رواية

عرب راقصون

(رواية فلسطينية مترجمة عن العبرية !)



سيد قشوع

ترجمة
د. جمال الرفاعى

25 عاما
اليوبيل الفضى للمحروسة
2011 - 1986
فى خدمة ثقافة الحرية

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

رواية

عرب راقصون

(رواية فلسطينية مترجمة عن العبرية !)

رقم الإيداع : 2011/3921
الترقيم الدولى : 978-977-313-411-1

الطبعة الأولى 2011



قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف : 002-02-25075917
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
الغلاف والإشراف الفنى : أحمد ممدوح
المحرر العام : محمود الوردانى
المستشار الفنى : مصطفى عبادة

الطبعة الأولى 2011

رواية

عرب راقصون

(رواية فلسطينية مترجمة عن العبرية !)

سيد قشوع

ترجمة

د. جمال الرفاعى

الطبعة الأولى 11

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

قشوع، سيد.
عرب راقصون: رواية فلسطينية مترجمة عن العبرية / سيد قشوع؛
ترجمة جمال الرفاعى. ط1.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2011.
ص 194 ؛ 14 × 20سم؛
تدمك : 1 411 313 977 978
1- القصص العبرية
أ- الرفاعى، جمال (مترجم)
ب- العنوان
892.43
رقم الإيداع : 3921 - 2011

المحتويات

مقدمة المترجم

يمثل عام 1948 نقطة تحول بالغة الأهمية في تاريخ المنطقـة عامـة وفي التاريخ الفلسطيني بشكل خاص، فقد شهد هذا العام نجاح الحركـة الصهيونية في تأسيس دولة إسرائيل على التراب الفلسطيني. وقد عمدت إسرائيل منذ تأسيسها على نفي كل ما هـو عـربي أو مـا يمكنـه أن يـذكر بعروبة فلسطين، فعملت عـلى مصـادرة البيـوت والأراضي الفلسـطينية، وعلى ترحيل الفلسطينيين عن قـراهم وأراضـيهم. ولم تقـتصر ممارسـات إسرائيل التعسفية على مصادرة الأراضي وفـرض كـل أنـواع القيـود عـلى الفلسطينيين وإنما امتـدت لتشـمل العمـل عـلى تغييـب اللغـة العربيـة والقضاء على كل ما يمكن أن يذكر الفلسطينيين بعروبتهم.

يعد الغزو العسكري المتبوع بمدة طويلـة مـن الاحـتلال مـن أهـم العوامل التي تلعب دورا فائق الأهمية في بسـط لغـة المحتـل وثقافتـه. وقد عرف التاريخ منذ عصور بالغة القدم وحتى العصر الحديث حالات

كثيرة نجح فيها المحتل في بسط لغته على الشعوب التي احتلها، فقد حمل الإسكندر الأكبر اليونانية إلى بلاد الشرق خارج حدود اليونان، كما حملت إسبانيا والبرتغال وفرنسا وبريطانيا الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإنجليزية على الترتيب خارج حدود بلادها الأصلية بفعل الغزو العسكري.

لا يختلف سلوك المستعمر الإسرائيلي عن سلوك المستعمر أينما كان منذ أقدم العصور إلى الآن، إذ يحرص الاستعمار الاستيطاني على أن يفرض لغته وثقافته على السكان الأصليين. وحينما يقوم المحتل بمصادرة اللغة فإنه يهدف من ذلك الإجراء مسخ الأمة وبترها من ماضيها وتراثها وتاريخها ووضعها تحت الوصاية الفكرية والوجدانية للمستعمر حتى بعد أن يجلو عن أرضها.

وقد سعى المستعمر الصهيوني منذ احتلاله للأرض على محاربة اللغة العربية، فسن الكنيست الإسرائيلي في عام 1955 قانوناً نص على أنه لا يحق لأحد أن يضع إعلانا أو لافتة في الشوارع إلا باللغة العبرية. ونص القانون أيضاً على أنه إذا استلزم الأمر في مدينة الناصرة التي معظم سكانها من العرب استخدام لغة أخرى غير العبرية في الإعلان فمن الضروري أن يشغل النص العبري ما لا يقل عن ثلثي المساحة، وأن يتم وضعه على رأس الإعلان وبحروف أكبر من حروف اللغة الثانية. ولم تكتف إسرائيل بسن القوانين بل عملت على اتخاذ كل الإجراءات التي تضمن لها تغييب اللغة العربية، ومن هنا تشكلت الكثير من اللجان التي أخذت على عاتقها مهمة استبدال مسميات عبرية للمدن والقرى والشوارع والطرقات والمتنزهات بمسميات عربية، فقامت هذه اللجنة باستبدال مسميات عبرية بالمسميات العربية فجعلت نهر العوجا (اليركون)، والخالدية(هموفيل)، وبيسان (بيت شان)، وقرية اجليل(جليلوت).

وقد فرض هذا الواقع اللغوي في إسرائيل على الفلسطينيين معرفة اللغة العبرية التي أجبروا على دراستها لغة وأدباً فيدرس الفلسطيني في إسرائيل بدءاً من الصف الرابع الابتدائي وحتى نهاية المرحلة الثانوية اللغة العبرية لخمس ساعات أسبوعيا. ولا تكتفي إسرائيل بتعليم الفلسطينيين قواعد اللغة العبرية وإنما تلزمهم أيضا بدراسة كل المكونات الفكرية للتراث اليهودي والصهيوني، فيدرس الفلسطينيون التوراة وأجزاء من العهد القديم، والتلمود والميدراشيم والشعر العبري الصهيوني. وبطبيعة الحال فإن تدريس العبرية للطالب العربي في إسرائيل لا يترك أمامه خيارا آخر سوى إتقان العبرية. وقد عبر الشاعر الفلسطيني محمود درويش في كتاب "يوميات الحزن العادي" الذي سجل فيه معاناته في ظل الاحتلال الإسرائيلي عن الواقع اللغوي الثقافي لعرب إسرائيل بقوله:" لقد تبين لنا أن ما نعرفه عن العهد القديم يفوق بكثير ما نعرفه عن القرآن الكريم، وأن معرفتنا بالأدب العبري الحديث أفضل بكثير من معرفتنا بالمتنبي والشعر العربي".

ويعبر ما ذكره درويش في الاستشهاد سالف الذكر أن المؤسسة التعليمية الإسرائيلية اتبعت مخططا معرفيا محكما بغرض انتزاع كل ما يمكنه أن يذكر الفلسطينيين بعروبتهم، وسعت إلى غرس مكونات يهودية صهيونية في نفوسهم بغرض زرع المكونات الأولى للثقافة العبرية الصهيونية في نفوسهم وزعزعة انتمائهم إلى محيطهم العربي.

وتتزامن حالة القهر الثقافي التي يتعرض لها الفلسطينيون المقيمون داخل إسرائيل مع فرض السلطات الإسرائيلية لكافة أنواع القيود عليهم التي تهدف إلى تضييق الخناق عليهم، ودفعهم إلى الرحيل عن ديارهم. ويعود تاريخ هذه القيود إلى الفترة التي تلت تأسيس إسرائيل في عام 1948، واستمرت حتى عام 1966. وتعرف هذه الفترة باسم فترة الحكم

العسكري التي لم يسمح فيها للفلسطينيين بالخروج من مدنهم وقراهم إلا بتصاريح من الحاكم العسكري. وفي تلك الفترة تم الإعلان عن القرى المهجرة كمناطق عسكرية مغلقة وذلك بموجب أنظمة الطوارئ حسب المادة 125، مما أدى إلى منع عودة المهجرين إلى بيوتهم وقراهم، وخصوصا هؤلاء الذين بقوا في حدود إسرائيل وحصلوا على المواطنة الإسرائيلية. تم إلغاء الحكم العسكري في عام 1966 بعد قرار صدر من رئيس الوزراء الثاني ليفي اشكول. وقد سمح هذا القرار لفلسطينيي 1948 الحصول على الجنسية الإسرائيلية والمشاركة في انتخابات الكنيست الإسرائيلي. وهكذا أصبح يحق للفلسطينيين المشاركة في الانتخابات الإسرائيلية، وقد انضم عدد من فلسطينيي 1948 إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي كان من أبرز أعضائه في عقد الستينيات عدد كبير من الأدباء الفلسطينيين مثل اميل حبيبي وتوفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم.

وبالرغم من انضمام الفلسطينيين إلى الأحزاب الإسرائيلية إلا أن عددا منهم ساوره إحساس عارم بالتناقض بين ذاته الفلسطينية وهويته الإسرائيلية. وعبر الشاعر محمود درويش عن هذا القلق في كتاب يوميات الحزن العادي بقوله" كيف يمكنك أن تكون الشيء ونقيضه في آن واحد". وكان هذا التساؤل معبرا إلى حد كبير عن إحساس الفلسطيني المقيم بداخل إسرائيل عن صعوبة الواقع الذي يعيشه داخل الدولة الصهيونية.

وقد تجلى هذا التناقض بشكل واضح في إقدام عدد من فلسطيني 1948 على وضع نتاجهم الأدبي باللغة العبرية، ومن أبرز هؤلاء الأدباء عطا الله منصور وانطون شماس ونعيم عرايدي، وسلمان مصالحه. وبينما يعبر بعض هؤلاء الأدباء عن أعمالهم باللغتين العربية والعبرية فإن الأديب سيد قشوع الذي ولد في قرية الطيرة في فلسطين في عام

1975 يقـدم نتاجـه باللغـة العبريـة فقـط، ويـبرر قشـوع إقدامـه عـلى الكتابة باللغة العبرية بقولـه:" إنـه لا يعـرف اللغـة العربيـة وأنـه يقـرأ الأعمال الأدبية العربية في ترجمتها العبرية". وتكشف هذه المقولـة عـن مأساة اللغة العربية في إسرائيل.

وقد أصدر الأديب سيد قشوع عدة أعـمال أدبيـة باللغـة العبريـة، وتعد رواية عـرب راقصـون هـى روايتـه الأولى. وتتكـون روايـة " عـرب راقصون" للأديب سيد قشوع التي حرصنا على نقلها إلى اللغـة العربيـة من خمسة فصول رئيسة تنتظم في كل منها عـدة قصـص قصـيرة يقـدم الراوي من خلالها سيرة ذاتية لعائلة فلسطينية تقيم في داخـل إسرائيـل، فيتحدث الراوي في الفصلين الأولين عن طفولته في الطيرة وأفراد عائلتـه، ويلقي في هذين الفصـلين الضـوء عـلى دور والـده في مقاومـة سـلطات الاحتلال، وتجربته في المعتقلات الإسرائيلية. ويتحدث الـراوي أيضـاً عـن نجاح بطل مجموعته القصصية في أحـد الاختبـارات التـي أجرتهـا وزارة التعليم الإسرائيليـة مـما أهلـه للالتحـاق بإحـدى المـدارس الداخليـة في إسرائيل. ويتناول الراوي في الفصلين الثالث والرابع من المجموعة تجربة بطـل مجموعتـه في المدرسـة الداخليـة الإسرائيليـة التـي التحـق بهـا، وجهوده التي بذلها للتكيف مع المجتمع الإسرائيلي والتي جعلته يغترب عن واقعه الفلسطيني، كما يكشف تفاصيل قصة الحب التـي نشـأت في المدرسة بينه وبين الفتاة اليهودية "نعمي" والتي باءت بالفشـل بعـد أن رفضت والدتها تشكل هذه العلاقة بقولها "إنها تفضـل أن تمـارس بنتهـا السحاق عن أن تصادق عربيا". أما الفصـل الخـامس والأخـير مـن هـذه المجموعة والذي كان بعنـوان الطريـق إلى الطـيرة فيتنـاول عـودة بطـل المجموعة مرة أخرى إلى القرية التي نشأ فيهـا، ويرصـد في هـذا الفصـل طبيعة التحولات التي شملت كل أفراد العائلة.

وحينما نترجم رواية "عرب راقصون" للأديب سيد قشوع إلى اللغة العربية فإننا نترجمها لننقل إلى القارئ العربي طبيعة المأساة التي يعيشها الفلسطينيون المقيمون داخل إسرائيل التي تعمل بدأب على اقتلاع كل ما يمكنه أن يذكرهم بجذورهم وعروبتهم. إن ترجمة هذه الرواية لا يمكن أن توصف أو أن تصنف في إطار التطبيع أو الترويج للفكر الإسرائيلي لأن هذه الرواية تسرد عبر فصولها طبيعة المأساة التي ألمت بالعائلة الفلسطينية في إسرائيل، ونترك للقارئ الفطن هذا العمل ليتعرف على معاناة الفلسطينيين في إسرائيل.

المترجم

د. جمال الرفاعي

الجزء الأول
نـعـش الـجـدة

1- مفاتيح الدولاب

كنت أفتش دائما عن مفاتيح الدولاب، فكنت أبحث عنها دوما كلما كانت تخرج جدتي لزيارة منزل احدي عجائز القرية التي رحلت. وكان الدولاب بني اللون أشبه بالصندوق المسحور الذي يحتوي على خزائن من المجوهرات وتيجان الملوك.

ورأيتها ذات صباح، بعد ليلة كاملة لم أستطع فيها النوم، تخرج المفتاح من داخل كيس سري كانت قد خيطته في احدي الوسادات. وبعد أن ناولتني جدتي المفتاح طلبت مني أن أخرج لها من الدولاب سجادة الصلاة، فنهضت مسرعا من فراشي إذ لم أصدق أنها ستعطيني

ذات يوم مفتاح الدولاب. وبعد أن أخذته منها وهممت بوضعه في فتحة الدولاب قالت جدتي " أدره برفق فكل شيء يعلوه الصدأ".

كانت الفساتين البيضاء معلقة على الشماعات بأحد جوانب الدولاب، كما كانت توجد على الأرفف بعض المناشف والسراويل والجوارب. ولم تكن عليها أية ملابس داخلية، فلم تكن جدتي ترتديها حيث كانت تستعيض عنها بلبس السراويل. وكانت توجد بالرف الأخير سجادة للصلاة مصنوعة من جلد الكباش، كانت جدتي قد طرزتها بنفسها من جلد الكبش الذي اشترته قبل عيد الأضحى. أما الرف العلوي من الدولاب فكانت توجد فوقه حقيبة زرقاء ضخمة سبق لجدتي أن حملتها منذ بضعة سنوات خلال سفرها لأداء مناسك الحج. وتساءلت دائما ترى ماذا يوجد في داخل هذه الحقيبة، وكنت أظن أنه ربما توجد بها بعض البدل الشبيهة بلبس العسكر التي سبق لها أن أحضرتها من مكة.

جذبت سجادة الصلاة من الرف ووضعتها في المكان الذي كانت تصلي فيه جدتي التي ما كانت تصلي إلا جالسة بعد أن لم تعد تقوى على الصلاة واقفة.

وكانت جدتي تسكن معنا بل كنا نحن الذين نقيم معها. وكانت لها غرفتها الخاصة بها، هذه الغرفة التي كان يوجد بجوارها مرحاض وصنبور مياه للاغتسال قبل الصلاة. ولم تكن جدتي تراوح غرفتها فلم تنتقل قط إلى الصالون أو إلى المطبخ. وكان لزام على كل من يرغب في الحديث إليها الدخول إلى حجرتها، ولم تكن تجرؤ قط على غزو أراضي أمي. ولم تكن تبادر عامة بالحديث إلى أحد.

كانت هذه الدار دارها حتى انتقلت ملكيتها إلى والدي ابنها الوحيد، الذي أضاف عدة غرف إليه بعد أن تزوج وأنجب به. أما أنا

فكنت الوحيد من بين أحفادها الذكور الأربعة الـذي اعتـاد التسـلل إلى غرفتها والنوم بجوارها، فلم أنم تقريبا مع إخواني بالغرفـة. وكنـت دائمـا انتظر حتى يغفو والداي وعندئذ كنت أتسلل في هـدوء إلى جـدتي التـي كانـت تعلـم مـدى فزعـي في الليـل مـن اللصـوص والظـلام والكائنـات الخرافية. وكانت تعلم أني لا أشعر بالأمان إلا لديها، فلم تنهرني قط عـن النوم بجوارها هـذا بـالرغم مـن أن سريرهـا كـان صـغيراً وقـديما يعـود تاريخه إلى ثلاثـين عامـاً خلـت. وكنـت اسـتيقظ كـل صباح مـع شروق الشمس أى في الوقت الذي كانت تصلي فيـه جـدتي الفجـر. لم أكـن قـد رأيت المفتاح قط، ولم تطلب مني قط أن أحضر لها شيئاً من الدولاب.

حينما فرغـت مـن صـلاتها في أحـد الأيـام توجهـت إلى متسـائلة :" أرأيت أين أخبأ المفتاح؟ سـأقص عليـك فقـط مـا أخبئـه، وأرغـب في أن تعدني بألا تقص على أحد ما أحدثك به حتى يوم وفـاتي. وعندئـذ تفـتح الـدولاب وتخـبر أعمامـك الـذين سـيأتون بالتأكيـد عنـد مـوتي أن كـل مسـتلزمات الكفـن موجـود هنـا في الحقيبـة الزرقـاء. أتفهمنـي؟ فقـط. أتعدني؟"

أعاهدك

"وعندئذ سيفارقك الخوف. ولـدي الحكـيم ممـا تخـاف؟ أسرع إلى غرفتك قبل أن يستيقظ والداك".

الآن أصبحت مسئولا عن موت جدتي، وكما يبدو فهى تعلم شيئا لا أعرفه وإلا فلماذا تحدثني عن الموت.

ومنذ ذلك الصباح الذي أفصحت فيـه جـدتي عـن مكـان المفتـاح، بدأت أسرع كل يوم في العودة إلى المنزل في كل فترات توقـف الدراسـة. وكانت لدي خمس دقائق فقـط للعـدو مـن وإلى البيـت إذ كنـا نقطـن

بالفعل بجوار المدرسة. وحينما كان ناقوس المدرسة يعلن انتهاء فترة توقف الدراسة كنت اسمعه من البيت، ودائما كنت أنجح في الوصول إلى الفصل قبل دخول المدرس. لم أتأخر قط فقد كنت أفضل تلميذ بالفصل بل كنت أفضل ممن كانوا في نفس المستوى الدراسي الرابع. وفي كل مرة كنت أعدو فيها إلى المنزل كنت أشعر أني لن أرى من جدتي سوى جسد مسجى على السرير تحيط به بناتها الأربعة وأنهن يرددن ذات الأدعية التي رددوها عند وفاة العم بشير زوج العمة فاتن وعند وفاة العم شاكر زوج العمة ابتسام. وكنت أعلم أنه لا يحق لي أن أضيع فرصة حضور موت جدتي، ودائما ما كنت أدعو الله أن أشاهدها قبل دفنها. وكنت أشعر دوماً أنه يتعين على أن أسرع لأحدث أقاربها عن الحقيبة الزرقاء وعما أعدته للموت، فلا يعلم أحد أين المفتاح بمن فيهم والدي ابنها الوحيد البكر.

وواصلت طوال الليالي التسلل إلى سرير جدتي والنوم جوارها وتبدد خوفي من الظلام والكلاب ليحل محله خوف من موت المرأة التي بجواري، وسرعان ما بدأ يتبدد ذلك الإحساس بالأمن الذي كان يشعه جسدها الضخم، وبدأت أشعر أن نومي بجوارها قد يحميها من شبح الموت، وكثيرا ما كنت أستيقظ وأضع كفي بجوار فمها حتى أطمأن أنها لازالت تتنفس وأن الموت لم يحل بعد.

لم تحدثني جدتي ثانية عن الكفن أو عن الحقيبة وكأنها نسيت الأمر برمته، وكأن أمر موتها لم يعد يزعجها. وفي وقت ما وحينما كنت في الصف الخامس بالمدرسة عدوت كعادتي إلى البيت في احدي الفسح، غير أني لم أجد جدتي بالدار. وكان حدث نادر حقا أن تغادر جدتي غرفتها فلم تكن تغادرها إلا لزيارة منزل احد المتوفين. وكانت تمضي عندئذ وقتا طويلا للعودة إلى المنزل.

توجهت دون تردد نحو الوسادة، وأدخلت يـدي برفـق إلى الكـيس السري بالوسـادة دون أن أغـير موضـعها وأخرجـت المفتـاح متـذكراً أن جدتي قالت إن كل شيء يعلوه الصدأ فأدرتـه بـبطء وبحـذر. فلـم أكـن أحتمل أن ينكسر المفتاح الآن.

كانت كل الأغـراض مرتبـة في الـدولاب وكأنـه لم يتغـير شيء البتـة، فوجدت السجادة والفساتين البيضاء والقمصان. ولم تكن بالـدولاب أيـة ملابس داخلية وكانـت توجـد بـه فقـط جـوارب مختلفـة. ولم انجـح في الوصول إلى الرف الأعلى فخلعت حذائي ووضعت قدمي على الرف الذي توجد به السجادة ووضعت رجلي الاخرى عـلى رف القمصـان ونجحـت في أن افتح بيد واحدة الأقفال الحديدية للحقيبة الزرقاء.

ورأيت بصعوبة بالغة ما بداخلها فتحسست بيدي عدة فـوط غـير أني تساءلت أيعقل ألا يكون بالحقيبة سوى مجموعة من الفوط ألم تقل لي أن بالحقيبة كفن كما أن البيت مليء بالفوط فكيف يعقل أن تكـون هناك فوط خاصة بالموت؟

اندفعت إلى المطبخ وأحضرت من هناك كرسيا وقفت عليه غـير أني سمعت في ذات اللحظة جرس المدرسة يدق معلنا بداية درس آخـر غـير أني تمسكت بألا أضيع هذه الفرصـة وليسـجلوا عـدم حضـوري بالفصـل وسأخبرهم أني تغيب لشعوري بمغـص حـاد وسيصـدقونني بـالطبع فأنـا من أمهر التلاميذ. وتناسيت جرس المدرسة وركزت في الحقيبة. وكان من السهل بالفعل الوصول إليها بعد أن وقفت على الكـرسي. وجمعـت كـل قواي قبل رفع الحقيبة ولكنها كانت أخف بكثير مـما تصـورت ولا أدري كيف تصورت أن الكفن سيكون ثقيلا.

ووضعت الحقيبـة عـلى فـراش جـدتي وبـدأت في فحـص محتواهـا، وكانت المفارش مثنية ومرتبة بشـكل مـذهل فأخرجـت المفـارش واحـداً

تلو الأخر حتى يمكنني إعادتها إلى مكانها. وكان عدد المفارش خمسة. وكانت توجد تحت المفارش قطعة قماش بيضاء كبيرة منقوش عليها اسم مكة. إن وجود هذا المفرش يعني أن جدتي تريد أن يوضع جثمانها فيه، وكانت توجد تحت هذه القطعة من القماش عشرات القطع من الصابون وجميعها من إنتاج مكة. كان يوجد بالحقيبة أيضا عطر وغطاء لليدين وملقط ومقص وفرشاة جديدة. . لم أدرك أن أدوات الحمام تدخل في إطار مستلزمات الكفن. وأحسست بخيبة أمل فتساءلت هل مشاهدة كل هذه الأشياء كانت تستلزم التخلي عن درس الزراعة، ولماذا تحتفظ جدتي بهذه المناشف وقطع الصابون؟

بعد أن أخرجت كل هذه الأشياء وجدت أسفلها مجموعة من الجرائد، وكنت واثقا أنها وضعت بالحقيبة للحفاظ على مستلزمات الكفن من الرطوبة غير أن عيناي وقعت قبل إعادة هذه الأشياء على صورة في إحدى الصحف كانت كل سطورها بالعبرية التي لم أكن قد تمكنت بعد من قراءتها، غير أني وجدت في الصحيفة التي اصفرت أوراقها صورة جواز سفر صغيرة لشاب أحسست أنه لا يحدق بعينيه في أحد سواي.

تجمدت يداى فقد كانت هذه الصورة لوالدي. وبالطبع كانت ملامحه اصغر فلم يكن قد سبق لي رؤية أية صورة لوالدي في هذا السن غير أنني كنت متيقنا أن هذه الصورة ليست لأحد آخر سواه. ورفعت الجريدة ووجدت تحتها عدة صحف تحمل جميعها نفس صورة الجواز القديمة. وكانت كل الصحف بالعبرية ولم أتفهم ما فيها حيث كنا لا زلنا ندرس في الفصل جملا عبرية بسيطة، فقررت أنه لزام على أن أدرس العبرية حتى يمكنني قراءة ما جاء في هذه الصحف.

وواصلت البحث فوجدت تحت الصحف عشرات البطاقات البريدية المدونة باللغة العربية وسرعان ما تعرفت على خط أبي، الذي دائما ما تمنيت أن يكون خطي مثل خطه رقيقا جميلا مستديرا بهذا الشكل الجميل، فكان خطه أقرب إلى اللوحة منه إلى الكتابة. لقد كان أبي من أكثر التلاميذ تفوقا في الطيرة. وتمنيت دائما أن أكون مثله.

استللت إحدى البطاقات البريدية، وقرأت : " سلام يا بشير وكيف حال أختي فاتن؟ آمل أن تكون كل الأمور على ما يرام لديكم. أحوالي على ما يرام. الحمد لله. ولتتوسل إلى أمي بأن تتوقف عن البكاء. سيطلق سراحي عما قريب. قبلاتي لشريفة وفاتن وابتسام وشروق والأطفال. ولتطلب من أمي أن تحضر في زيارتها القادمة كراسة وقلمين رصاص وجوربين وقطعتين من الملابس الداخلية. أخيكم المخلص درويش".

كانت توجد على البطاقة البريدية مثلثات حمراء كثيرة كتبت عليها بضعة أشياء باللغة العبرية. ومن الجهة الأخرى من البطاقة كانت توجد صورة أبيض في اسود لجندية تأكل فلافل. وسمعت مرة أخرى دوي الجرس معلنا بدء الفسحة وسرعان ما سيبدأ الدرس.

وأسرعت في ترتيب البطاقات البريدية والصحف وأعدت كل مستلزمات الكفن إلى الحقيبة ووضعتها في الرف العلوي. وبعد أن أغلقت الدولاب خبأت المفتاح في الكيس بالوسادة. وسرعان ما أعدت الكرسي إلى المطبخ وانتعلت حذائي، وأغلقت باب المنزل وأسرعت إلى الفصل.

ورأيت في الطريق جنازة كانت جدتي تسير في ركابها. وكان المتوفي هو أبو زياد جارنا جد إبراهيم صديقي بالفصل. وكانت جدتي تكرهه كراهية شديدة. أما أنا فأكره إبراهيم.

2- الأجمل والأذكى

تحكي جدتي " جلس أبي ذات يوم على السرير منصتا للراديو، غير أنه قفز فجأة من على سريره قائلا بكل قوة هكذا يجب أن تمضي الأمور، ولم أعرف ماذا كان يسمع. ولا أدري من أين أتي بكل هذه القوة التي جعلته يطير في الهواء؟ لقد ذهلت مما فعله ولم اقل سوى بسم الله الرحمن الرحيم. . . ماذا حل بك ؟".

ولم يجبها أبي. وتقول جدتي أنه قد ارتسمت على وجهه ابتسامه لم ترها قط من قبل، وجمع حقيبته وقبلها قائلا أنه عائد إلى القدس.

وبعد مضى بضعة ساعات على خروجه أتت إلينا الدولة فاقتحم البيت حوالي مائة جندي وشرطي. وكانت جدتي بمفردها بالبيت حيث إن باقي العمات متزوجات ولسن بالبيت. "وحرثوا كل زاوية بالبيت، وكانت لديهم أجهزة تصدر أصوات عنها، كانوا يضعونها على كل حجر بالبيت. وقلبوا كل شيء رأسا على عقب بما فيه الدواليب والأسرة. وسألتهم فلتخبروني عما تبحثون لعلي أساعدكم ولكنهم لم يجيبوني. وقد فتشوا كل رف من رفوف المكتبة واخذوا معهم بعض الكتب وتركوا بعضها الآخر. وفتشوا أوراق أبي. وبعد ذلك بدؤوا في حرث الحديقة ولم يتركوا منها سنتيمتر واحد دون أن يفتشوه". لقد كانوا يبحثون عن السلاح بطبيعة الحال غير أنها لم تفهم هذا الأمر إلا بعد أن ذهبوا. وواصلت جدتي حديثها قائلة : "علمت أنه قد حدث له شيء ما وتوسلت إليهم أن يخبرونني إذا ما كان ولدي على ما يرام وأن يخبرونني بما حدث ولكنهم لم يجيبوني".

وتقول جدتي إن والدي لم يجلب لها الراحة قط غير أنها كانت تحبه وكانت تقول إنها تحبه أكثر من نفسها. وكانت تتمنى أن يلتحق بالجامعة فبذلت كل ما في وسعها حتى تدبر له مصاريف الدراسة

ونفقاته الخاصة. وكانت تعطيه كل ما تحصل عليه ولم يكن يعوزه شيء. وكانت تعمل بقوة رجلين ولم يكن أحد يستطيع أنه يقول إنه يتيم فقد كان التلميذ الأجمل والأذكى في المدرسة، فكانت ملابسه دائما نظيفة ومكوية.

وكانت جدتي تقول إنه كان يذهب إلى المدرسة كالأمير. وكان الجميع يغارونه. وحينما كان الأطفال الذين في سنه يوجهون له اللكمات كانت جدتي تذهب إليهم في منازلهم لتوبيخ آبائهم. وكان كل من يشاكس أبي يعلم أن جدتي في طريقها إليه. وكان أفضل تلميذ بالفصل فكان يجلس طوال الليالي بجوار الموقد للدراسة. وحينما كان يروق لجارتنا في بعض الأحيان الغناء في منتصف الليالي كان يقوم بتشغيل وابور الجاز بصوته العالي ليجبرها على التوقف عن الغناء. وكان يتجول في الحقول حاملا كتبه. وكان دائما يحصل على أعلى الدرجات في كل المواد الدراسية.

وحينما كان يحل يوم توزيع الشهادات كان عمي بشير عليه رحمة الله يقف في انتظاره أمام المدرسة، وحينما كان ينتهي حفل توزيع الشهادات كان عمي يحمله على كتفه ويرقص معه وله طيلة الطريق إلى البيت. وكان جسد العم بشير ضخماً كالجمال إلى الدرجة التي كان يجد فيها صعوبة في اجتياز الباب.

ولم يكن من الممكن أن يشعر أحد أنه ليس لوالدي إخوان، وأنه ليس له أب ينشغل به. وحتى حينما لم يكن يتوفر لجدتي ما تعوزه من طعام كانت تقتني له الكتب التي يبتغيها وكل ما يريد، فاشترت له دراجة غالية، فلم تكن تريد أن يتصور أحد أنها فقيرة. وكانت دائما تحكي أنها كانت تضع قطعا من النايلون داخل البطاطين حتى تتصور الجارات اللاتي يقمن بزيارتها أن الخشخشة الصادرة عنها ناجمة عن

اصطكاك النقود. ولم يتفهم أحد كيف يمكن لأرملة تعمل في جنى الثمار الحصول على المبالغ التي تحتاجها في معيشتها ولكنها كانت تقـول دائمـا إن الله يعطيها ما تريد.

وحينئذ تحطم كل شيء للجدة وضاع كل شيء ففقـدت الابـن ومـا كانت تستثمره والدراسة. ولم تعرف جدتي أين اصطحب الجنود والـدي، فحرمت نفسها أسبوعين من النوم جابت خلالها كل المعتقلات مع عمي بشـير والعـم شـاكر زوج العمـة ابتسـام. وتنقلـوا خـلال جـولاتهم بـين المعـتقلات بالحـافلات فلـم تكـن لـديهم سـيارة، فـذهبوا إلى سـجون مسكوبيه، والرملة والشاطة والدامون وبئر سبع.

وبعد مضى أسبوعين من البحث عنه رأتهـم يقتادونـه إلى المعتقـل. وتقص جدتي أنها بكت وصرخت إذ أحست عنـد مشـاهدته أنـه أصـبح أقل حجما مما كان يبدو عليه وأنه جوعان. ودائما ما تكرر هذه الجمـل عند وصفها لما شاهدته هناك، وتمسك بمنـديلها الأبـيض وترفعـه وتنزلـه كمن تنوح على عزيز فقدته، وكانت تضع به حفنة من الرمـال تسـكبها على رأسها مرددة " قتلوك يا ما ضربوك؟ ماذا فعلوا بك يا ما يا حبيبي".

وتقول جدتي إنها بدأت في اقتراض المال من العمات لزيـارة والـدي كل جمعه، ولم تقدم على هذا إلا بعد أن لم يعـد لـديها مـا يكفيهـا مـن مال. ولم تتوان عن زيارته كل أسبوع بالرغم من تمديد فترة اعتقالـه. ولم تتفهم ما كانوا يقولونه هنـاك فلـم تكـن تريـد سـوى الاطمئنـان عليـه. وكانت تعلم أنها لن تسامح نفسها إذا ما أضاعت أية فرصة لرؤيتـه. ولم تزره قط بيدين خاويتين فكانت تحضر له دوما شيئا ليرتديه، فكـان مـن المحرم عليها أن يخطر بباله أنه يعوزه شيء ما.

ووهنت قواها مع الوقت وأصبحت يداها شـديدة الـوهن فبـدأت تستعين بعصا للسير. وتم تمديد فترة اعتقال والدي دون أن يـتم تقـديم

أي مبرر فقد كان يتم تمديد فترة الاعتقال بناء على طلب جهاز الأمن الإسرائيلي، وكان يتم إخفاء الأدلة. وكان مسئولو الجهاز يكتفون بقول إنه خطير. وكانوا يطلقون على تمديد فترة الاعتقال مسمى اعتقال إداري. وكانوا ينقلونه كل مرة لمعتقل آخر دون أن يكلفوا أنفسهم عناء إخطار جدتي. وكان لزام عليها أن تبحث دوما لمجرد معرفة أنه تم نقله من سجن شاطه إلى سجن دامون.

وسرعان ما اهتدت إلى أنه يمكنها استغلال علاقاتها مع أعضاء الكنيست ومع أولئك الذين يوصفون بشرفاء الدروز العرب. كما كانت تتوجه إلى كل المؤسسات الصحفية، فكانت ترسل كل أسبوع خطابات إلى العاملين فيها كان يقوم بكتابتها نيابة عنها من يملكون خطاً جميلاً. وكانت هذه الخطابات تنطوي على جملتين فقط : "اعيدوا لي ولدي فليس لي شيء في العالم سواه. إنكم تقتلونني". وقد نشرت إحدى الصحف واحداً من خطاباتها. واحتفظت جدتي بكل الخطابات في الحقيبة الزرقاء. ولم تتوان جدتي عن السفر إلى الجليل بعد أن سمعت أن بإحدى قراه أشخاصا يمكنهم مساعدتها، فالتقت برؤساء بلدات ورجال دين دروز. وقد زارتهم كثيرا وأجبرتهم على كتابة خطابات للقضاة ورجال الشرطة والحكومة جاء في بعضها:" لقد كان يذهب فقط للمدرسة وإن كل ما حدث وقع بسبب الغيرة وقد أوشى به ولاد الحرام لأنه كان أجملهم وأكثرهم ذكاءً".

ولم يكن والدي معنيا بكل ما يدور حوله فكان على يقين أن عبد الناصر ولا أحد سواه سيأتي لإطلاق سراحه، وهكذا لم يتمكن الخوف منه ولم تؤلمه الضربات التي كانت تنهال عليه خلال التحقيقات. وحينما يشاهد والدي حاليا التلفاز الإسرائيلي يتعرف على بعض من كانوا

يعذبونه في التحقيقات. وحتى يومنا هذا فإنه يتحسس وجهه كلما تذكر ما تعرض له التحقيق.

وبذل أبي كل ما في وسعه للخروج من المعتقل فبكي ذات مرة لساعات طوال أمام سجانيه بدعوى أن أسنانه تؤلمه حتى ينقلونه للمستشفى. ويحكي أبي أن الطبيب ابن العاهرة كان يعلم تمام العلم أن أسنانه على ما يرام ولكنه كان يزيلها دون استخدام المخدر، ومع هذا يذكر أبي:"كان هذا الألم يستحق الخروج من الزنزانة".

وتوجد في ألبوم الصور صورة لأبي وهو جالس مع شخص ما على شرفة عالية، وهما يرتديان معاطف ثقيلة يضعون بداخلها أيديهم. وتوحي الصورة بمدى البرد الذي كانا يشعران به ومدى إحساسهما بالحاجة للدفء. وقال أبي إنهما كانا يجلسان على هذه الشرفة حتى يتمكنا من إحصاء عدد الطائرات العمودية التي كانت تقل الجرحى من الأردن إلى مستشفى "هداسا" في اليوم الذي شهد وقوع معركة الكرامة. وقد شارك والدي مع صديقه خليل مطورعان في إحدى العمليات، فذكرت الصحف أن أبي وصديقه فجرا كافتيريا الجامعة غير أن أبي يذكر أن الصحف لا تردد سوى الأكاذيب. ويستدل على هذا بأنه في اليوم الذي أطلق فيه سراحه اقتنى صحيفة هآرتس وقرأ فيها نقلا عن موشيه ديان أن الطالب المعتقل يشكل خطرا حقيقيا على الدولة وأنه ليس من المتوقع إطلاق سراحه قريبا. غير أن ابي أطلق سراحه على نحو سريع. أما صديقه خليل فبلغت فترة اعتقاله سبعة عشر عاما. وحكم عليه بالسجن مدى الحياة غير أن صفقة تبادل الأسري التي ابرمها أحمد جبريل فكت أسره.

وبعد مضى بضعة أيام على إطلاق سراح خليل وضعنا أبي نحن الأربعة في المقعد الخلفي للسيارة وسافرنا بعيدا إلى قرية طورعان.

وحينما سأل أبي المارة عن بيت صديقه، أنكر بعضهم معرفته بهذا الاسم خاصة أن كهانا كان يقول أنه سيعيد السجناء الذين أطلق سراحهم إلى المعتقل ولهذا كان الأهالي متخوفين من تصريحاته. وكان للأهالي في قرية طورعان لكنة غريبة بعض الشيء، فكانوا ينطقون القاف بشكل مفخم للغاية كان يثير ضحكنا. وحينما التقي والدي بخليل فقد احتضنا بعضهما البعض بشدة وقبلا بعضهما في كل موضع، ولم أكن قد رأيت مثل هذه القبلات من قبل. ولم يكن خليل يعلم أننا سنأتي إليه فاندهشت أمه لرؤيتنا فجأة، ولكنهم قالوا فيما بعد أننا أسرة واحدة وأن خليل وأبي مثل الاخوان ودعونا للبيات معهم. وكان خليل وكل أبناء أسرته يتحدثون بنفس اللكنة الغريبة الخاصة بأبناء طورعان. ولم نفهم شيئا البتة من حديثهم.

وحينما كنا هناك روى أبي أنه وخليل وطالب آخر من قرية جلجوليه استأجروا ذات مرة شقة في منطقة روممه من والدة قائد المنطقة الوسطى بالجيش الاسرائيلي. وحينما فتحت لهم أمه الباب قالت لهم " أنا والدة جاندي قائد المنطقة الوسطى ألا تعرفونه؟" وأجاب ذاك الطالب "بالطبع جاندي من الهند " وانفجر أبي وخليل في الضحك. وكان جاندي متزوجا، وقد استأجر والدي غرفته. ويقول إنه كانت لدية مكتبة عظيمة وأنه قد استعار منها عدة كتب عن زعيم اليمين الإسرائيلي زئيف جابوتنسكي، وكتب أخرى عن الحرب. ويروي أبي إن والدته كانت سيدة فاضلة غير أنها طلبت منه ألا يدع الجيران يعرفون أنه من العرب، ويضيف أبي إنها توفيت في غضون هذه الفترة نتيجة لأمراض الشيخوخة، وأنها كانت تتبرع يوميا بمربعات من الشاش لمستشفى " شعاري تسيدق".

وبعد حرب الأيام الستة تركوا بيت أم غاندي، وكان أبي وخليل من أوائل الذين توجهوا لمشاهدة قبة الصخرة بعد احتلال الجيش الاسرائيلي للمدينة القديمة. ويقول أبي إنهم أحسوا بالإحباط عند مشاهدة قبة الصخرة إذ كانوا يتصورون قبل رؤيتها أن صخرة مقدسة ترفرف فوق المسجد. وتحول أبي فيما بعد إلى شيوعي وبدأ في توزيع صحيفة الحزب في القرية حينما كان يعود إليها في نهاية الأسبوع.

وقد آمن والدي بأفكار ترو تسكي ولينين والروس وجاجارين وفالنتينا، ولازال يتذكر النص الكامل لبعض خطب عبد الناصر هذا بالرغم من أنه لم يكن بالقرية آنذاك سوى راديو واحد كان يلتف الجميع حوله لسماع عبد الناصر. ولازال أبي يذكر عبارتي " باسم الأمة باسم الشعب " اللتين كان عبد الناصر يستهل بهما خطاباته، كما أن أمي تعشق عبد الناصر. وعند رحيل عبد الناصر كانت أمي في الصف الثاني الثانوي، وتروي أن سكان القرية رفعوا نعشاً رمزياً لعبد الناصر طافوا به القرية. أما جدتي فلا يساورها الشك في أن اليهود دسوا له السم في سجائره، وأن وفاته لم تكن طبيعية.

ويقول والدي إنه لا مجال للمقارنة بين ناصر والسادات. وعند مقتل السادات كنا في طريقنا من طولكرم إلى البيت، وحينما بث المذياع خبر مقتله تضاحك أبي قائلاً هكذا كانت يجب أن تكون نهايته، فلم يكن أبي متفهما لماذا أوقف السادات القتال في عام 1973. ولم يكن أبي يعشق أحداً مثل عبد الناصر وكل ما يفعله، ولهذا أطلق اسم سام على أخي الأكبر نسبة إلى صواريخ سام روسية الصنع. ويقول أبي الذي لا يكف عن الحديث عن السياسة إن جولدا مائير فكرت جديا في عام 1973 في الاستسلام. ولم ينقذها سوى الملك حسين ابن العاهرة، وأنه من المؤسف حقا أن عبد الناصر لم يقض عليه. وحينما كان يحدثني عن

عبد الناصر والملك حسين كان يقول وبلكنة مصرية خالصة أن عبد الناصر وصف الملك حسين ذات مرة بالكلب، فقال كانوا يضغطون على ذيله في لندن حتى ينبح في عمان.

ولا يتفهم أبي كيف أصبحنا أنا وإخواني على هذا النحو، وكيف أننا لا نستطيع حتى رسم العلم، فيقول إن الأطفال الأصغر منا يسيرون في الشوارع ويهتفون بالانجليزية "بي ال او يسرائيل نو"، ولا يكف عن توبيخنا لأننا لا نعرف ماذا يعني اختصار "بي ال او".

3- شقائق النعمان

كان والداي يستيقظان دائما مبكرا للعمل، وكانت أمي أول من يستيقظ. ولما كنت استيقظ قبل أخواني فقد كنت مكلفا بشراء وجبة الإفطار التي كانت لا تتعدى رغيف من الخبز ومائة جرام من الجبن الأصفر. وكنت اشتريها من محل غير بعيد عن البيت كان يقع بالفعل في مواجهته غير أنني كنت أفضل أن أخرج مبكراً قدر الإمكان خاصة أني لم أكن أفضل أن التقي بالغزازوة الذين كانوا يأتون كل يوم إلى هناك كل صباح. وكنت دائما أتورط معهم. وفي أحيان نادرة فقط كنت أنجح في استباقهم، ومع هذا كنت أراهم يهبطون من الباص عند خروجي من محل البقالة. وكانت باصاتهم تتوقف بالفعل قرب المنزل، فكانت محركاتهم تصدر ضجيجا ضخما، وكان الغزازوة ينزلون من الباصات على المحل الصغير الذي كان يكتظ بهم بل وكان يقف طابور طويل منهم خارجه. وكرهت الغزازوة مثلما كان الجميع يكرهونهم، فكنت أخاف أن يخطفونني.

وقد بدوا لي بشرا عاديين بل ولم يزعجونني قط غير أن القصص التي كانت جدتي ترويها لي عن الأطفال الأشرار الذين باعهم أهلهم

للغزازوة كانت ترعبني. وكثيرا ما كنت أرى نفسي أصعد أحد باصاتهم الحمراء واقف معهم في تلك الطوابير الواقفة أمام محل البقالة. . وكان من الممكن مشاهدة الغزازوة مبكرا في ساعات الصباح المبكر حينما كان الظلام يعم المكان إذ كان يحظر عليهم في باقي اليوم التجول في الخارج. وكانوا يأتون لشراء الطعام وسرعان ما يفرون وكأنهم لم يتواجدوا، وكأنه لا وجود للغزازوة قط.

وحينما كنت أعود من محل البقالة كنت أجد أبي دائما في دورة المياه التي كان يدخن فيها سيجارته التي كان يطفئها في فنجان القهوة الذي كان يأخذه معه إلى الحمام. ودائما كنت أدخل إليه في دورة المياه وأخذ منه فنجان القهوة. وكان لدورة المياه بعد خروج أبي رائحة خاصة، كما كانت لأبي رائحته الخاصة. وأعرف هذه الرائحة جيدا. إنها ليست رائحة منفرة بل كنت أحبها. ولم أكن أرى والدي كثيرا في الصباح إذ سرعان ما كان يخرج من الحمام لأخذ علبته البلاستيك التي كانت تعج بالسندويتشات التي أعدتها أمي ويتوجه للعمل.

وقد عرفت أن أبي يعمل في مكان كان يدعوه " مكان الجمع". ولم أعرف حقا ما المقصود بهذه الكلمة ولكنني تصورت أن أبي يعمل في جني الثمار.

أما المدرس جمال الذي كان يعلمنا اللغة العبرية في المرحلة الابتدائية فلم يتوقف عن التحدث عمن يعملون في موسم جنى الثمار، وكان يحدثنا عنهم أكثر من حديثه عن اللغة العبرية، وكثيرا ما كان يقول إن مصيرنا لن يخرج عن اشتغالنا كعمال لجني الثمار. وكان يقول مثل سائر المدرسين " ستخرجون في السادسة صباحا من منازلكم ولن تعودوا إليها إلا في ساعة متأخرة من الليل".

وقد أحبني جمال فقد كنت التلميذ الأبرز في الفصل، وكنت أبذل كل ما في وسعي حتى لا أعمل في نهاية الأمر كعامل لجني الثمار، ومع هذا كنت مقتنعا بالكامل أنه لن يحول أي شيء دون اشتغالي في هذه المهنة. وكنت أشفق على والدي وكنت آمل ألا يعرف جمال أن والدي يعمل عاملا وأنه يخرج من البيت في السادسة صباحا ويعود إليه في ساعة متأخرة من الليل. لقد كان أبي هو التلميذ الأنبغ في الفصل كما أن خطه كان شديد الجمال.

وعلى خلاف والدي فقد تحدثت جدتي كثيرا عن عملها في جمع الثمار، فكانت تتحدث عن جارنا ابي زياد الذي كان يجمع في حافلته الأرامل من الحي وينقلهن إلى البساتين في الواقعة في منطقة "مهدرين" لجمع الثمار فكانت تجمع البرتقال مرة والفستق مرة أخرى. وكانت تعمل حافية القدمين بل وكانت تحب أن تظهر قدميها المتشققتين كدليل على أنها تعمل من الصباح حتى المساء. وكانت دائما ما تقول: "أعمل تحت الشمس والمطر وطيلة اليوم من أجل شيلينج واحد في اليوم". وكانت جدتي تعمل طيلة الوقت من أجل أولادها وخاصة من أجل الوالد ابنها الوحيد حتى يكمل التعليم، ولكنه حطم كل شيء وفطر قلبها، فكانت تقول: "لم يقصم جنى الثمار ظهري وإنما الحزن الذي تسبب فيه والدك وليحفظه الله وليس لي احد سواه".

وبدأت جدتي في العمل في جني الثمار بعد أن قتل زوجها في الحرب، وظلت بمفردها مع بناتها الأربعة وابنها الوحيد الذي كان رضيعا عند فقدان والده. وتحكي الجدة كيف أن زوجها كان ينتظر مولودا ذكر، وحينما تقص ما مرت به كانت تأخذ طرف غطاء رأسها بيدها اليمن وتجفف دمعة من عينها اليسرى. وكانت في تلك الأيام امرأة شديدة البأس فحينما قام اليهود بقصف بلدة الطيرة وضعت

رضيعها على القمح واحتضنته بين ذراعيها. وكانت تقول:" كنت أقول لنفسي أنه من الأفضل أن تصيبني القذيفة وألا تصيب ولدي"

وحاولت أن أتخيل جدتي في صباها ولكنني لم أنجح فرأيتها دائما امرأة عجوز على نفس النحو الذي أراها، فكنت أراها دوما تسير بقدمين متعثرتين وبثوب ابيض وتحتضن رضيعها الباكي الذي يعلم أنه ليس له أب. وكنت أراها دوما والقنابل تنهال عليها في حقول القمح بالطيرة وأنها تنجو بأعجوبة فقط مما يحدث، وتقوم برفع الرضيع وتجري به لتلوذ من الطائرات التي سرعان ما كانت تعود، لتدفعها مرة أخرى للجلوس على الأرض. وتقول جدتي دوما إنه إذا نشبت الحرب فيجب علينا ألا نبقى في البيت لأنه سينهار علينا بل ومن المحظور إشعال النور، وأنه من الواجب الاختباء بين الأشجار.

وقد أحببت تخيل حقول القمح التي تتحدث جدتي عنها، وأحببت أيضا تخيل البيادر، والسكان عند تجمعهم وكأنهم في عيد كبير وهم يذرون المحصول في الهواء بالمشكاة حتى تسقط الحبوب في كومة واحدة ويطير القش في الهواء ويتجمع في كومة أخرى.

وكانوا ذات مرة أثرياء فكانت لديهم ثلاثة جمال مكدسة بكل أنواع الخير كانت تنقل المحصول وكل أنواع الخضروات من حقولهم في منطقة "الباسه" إلى البيت. وكانوا يدفعون في مقابل كل جمل شيلينج فقط. وكان لدي جدتي أبقار وخيول كثيرة، كما كان لديها كلب ضخم كان دائم الجلوس في الشرفة. وكان يتولى حماية الطيور من القطط، ولم يحاول الكلب دخول البيت قط.

وكان جدي رجلا حكيما للغاية فكان يعرف القراءة والكتابة وكان له خط جميل، ولكن لم يلتحق بأية مدارس، فلم تكن في ذاك الوقت في القرية أية مدارس كما هو الحال عليه اليوم وإلا لكان والدي درس

الطب وصار طبيبا. وتقول أمي أيضا أنه كان من الممكن أن تصير مهندسة لو كانوا أرسلوها للدراسة ولكن لم يكن يسمح للفتيات في ذات الوقت بالدراسة. وكنا نصدقها دائما حينما كانت تردد هذا الأمر، وتصورنا بالفعل أنه كان يمكنها أن تصبح مهندسة. وحقا فبالرغم من أنها لم تدرس شيئا البتة فقد كانت تجيد لعب الأوراق وكانت تعرف أصول الحساب من جمع وطرح وكانت تعرف أين تنتهي كل قسمة وأين تبدأ كل قسمة جديدة.

وكان لجدي شارب صغير كما يبدو في الصورة الوحيدة التي تحتفظ بها جدتي، وكان بطلا ورجلا قويا فقد حارب اليهود ولكنه توفى عند مدخل البيت حينما كان يجمع بعض حبات العنب. ولم ينطق سوى بكلمة الله عند وفاته. ولم تتفهم جدتي أسباب سقوطه فقالت له " قم يا زلمة"، فكانت تظن أنه يتظاهر بالتعب.

وتقول جدتي إن جدي شهيد فقد خرجت من جرحه شقائق النعمان بدلا من الدم، . وتقول إن جثة أبو زياد أكلتها الديدان التي لم تقترب في المقابل من جثة أبي مما يدل على أن جثة الشهيد لا تعفن وتظل على ما هى عليه.

4- حفلة عدن

كان أبي أول من اشترى جهاز فيديو في الحي، وكان ضخما وثقيلا إذ كان من المعدن. وكانت شرائط الفيديو آنذاك أخرى صغيرة وسميكة. وبعد اقتنائه للجهاز ببضعة أيام توافد على البيت عدد كبير من أقارب الأسرة الذين كانوا يأتون لتهنئته، حاملين معهم أكياسا من الأرز والقهوة. وكان أبي يعرض لهم فيلم "السموراى الاسود" والفيلم الهندي

"عمار اكبر انتوني" بطولة اميتاب باتشان، الذي كان يحكي قصة أخوة ثلاثة تفرقت بهم السبل في طفولتهم بعد أن قام رجل شرير بقتل أبيهم. غير أنهم في نهاية الفيلم توحدوا وانتقموا من الأشرار.

واحضر أبي ذات مرة شريط فيديو اسمه "حفلة عدن"، وقد شاهدناه دفعة واحدة، وقد جلست كل الأسرة أمام التلفاز لمشاهدته. وجلست جدتي على مقربة من التلفاز بعد أن وهن بصرها. وكان شريط الفيديو يتضمن مجموعة من الأطفال كانوا يحملون معهم الكثير من البنادق، ومجموعة من المغنيين والشعراء الذين كنا نحفظ أشعارهم عن ظهر قلب. وكانت معهم طفلة كانت دائما تنشد لأبيها الكثير من الأشعار قبل خروجه للحرب. أما جدتي فكانت لا تتوقف عن كفكفة دموعها. وكانوا جميعا يرفعون شارة النصر عند صعودهم على منصة المسرح.

وكان يأتي إلى المنزل أصدقاء والدي لمشاهدة شريط الفيديو، وكانوا ينهمكون في قزقزة اللب عند مشاهدة التلفزيون. وكان أبي يسخر منهم عندما يحدثهم عن بعض الشخصيات التي لا يعرفونها، وكان ينهرهم عندما يتبين له أنهم لا يعرفون شخصيات مثل "أبو جهاد " و" محمود درويش"، بل ولم يتردد في طرد أحد الحاضرين عندما تبين له أنه كان يظن أن "الفكهاني" اسم أحد باعة الخضروات في بيروت.

وكان يعطي جدتي في الليل شريط الفيديو حيث كانت تخبئه في حظيرة الدجاج، التي لم تكن والدتي تحتمل قذارتها وضجيجها. ونشبت معركة حقيقية بينهن بسبب الدجاج وتوقفن عن تبادل الحديث لفترة طويلة. أما أنا فقد وقفت في صف الدجاج. وقامت والدتي ذات يوم بحرق الحظيرة الصغيرة وشريط الفيديو، وغضب والدي غضبا شديدا وغادر المنزل ليلعب الأوراق مع رفاقه ولينفث عن غضبه.

ولم يعـد أبي في اليـوم التـالي مـن العمـل، ولم تكـن في ذلـك الحـين هواتف في المنزل فخرجت أمي مع العم بشير في سيارة جيب مـن نـوع "اجركسكو" بحثا عنه، ووصلت كل عماتي إلى المنزل وانهمكـن في البكـاء، وسمعتهن يتحدثن عن المنشورات ويوم الأرض والاعتقال.

وجلست جدتي طيلة الليل على سجادة مـن القـش تحـت أشـجار الاوكاليبتوس عند مدخل الدار، وكانت تبكي وتنتظر، ولم تعد أمـي أيضاً إلى المنـزل. وقالـت جـدتي إنهـا بـلا شـك لـدى والـدي ولكنهـا لم تحـدد مكانهما. وفي الغد لم أتوجه مع سائر أخواني إلى المدرسـة وجلسـت عـلى السجادة تحت الشـجرة مـع جـدتي. وكانـت تتحـرك ذات اليمـين وذات اليسار وكانت عيناها محمرتين للغايـة ومنتفختـين، واكتفـت بالتحـديق بعينيها في نقطة بعيدة في الأفق. وحينما كانت تسمع صوت أيـة سيارة كانت تتوقف عن التأرجح ذات اليمين وذات اليسار وتمد رقبتها. وكانت تصاحب كل سيارة ببصرها حتى تغيب عن نظرها، وعندئذ كانت تعـود إلى التأرجح بجسدها والاستمرار في حالة الذهول.

وأرادت أمي أن تقطع أشـجار الاوكـاليبتوس الواقعـة بـالقرب مـن البيت فكانت تقول إنها تفسد مدخل الدار. غير أن جـدتي كانـت تقـول إن قطعها سيجلب كارثة إذ يوجد فيها ولي طاهر يحمي البيت والقرية. وحكت كيف أن والد جدي الشيخ أحمد كان يقـف بـالقرب مـن هـذه الأشجار ويتحدث مع الثوار المتمركزين في يافا وعلى أعالي الجبال. وكـان يحذرهم من اليهود ويقول لهـم أيـن هـم يتربصـون وأي طريـق يتعـين عليهم أن يسلكوه.

وعـاد أبي بعـد يـومين مـن الاعتقـال، فقـد اعتقلـوه لـدى إحـدى الحواجز وهو في طريقه للمشاركة في إحدى المظـاهرات في طيبـه، وقـد فتشوا السيارة ووجدوا فيهـا منشـورات. وقـد بـدا مختلفـا للغايـة عنـد

عودته فكان شعره أشعثاً. واحتضنته جدتي ولم تتوقف عن البكاء وقالت له "متى ستتعلم يا ما يا حبيبي".

5- قلنسوة

كان من الواضح لي دائما أن الحرب ستقع عما قريب. وحينما كنت صغيرا حفرت مع أخواني عدة حفر في أحد البساتين الواقعة خلف منزلنا، وحفرناها بأيادينا، وكانت صغيرة بالفعل. ولم ننجح في أن نحفرها عميقا إذ سرعان ما كنا نصل إلى أرض صلبة للغاية، ولم تجد محاولاتنا في صب الماء عليها في أن نجعلها لينة. وأردنا أن نحفر حفرا ضخمة حول كل البيت حتى يمكننا أن نختبئ فيها عند البدء في إطلاق النيران. . وكنا نتصور أنه يمكننا أن نحفر هذه الحفر على نحو يمكننا من الوقوف فيها بل وأن نسمح لجدتي ووالدي بالجلوس بداخلها. وكنا نملأ أكياس النايلون بالرمال ونرتبها حتى تصبح سورا حول البيت. غير أن أكياس الرمال لم تصمد وسرعان ما تفككت.

وأخذنا والدي ذات يوم إلى قرية "يعبد" للالتقاء بأشخاص كانوا يعملون معه في الحصاد. وكانت لديهم سيارات بلوحات خضراء أي باللوحات التي يستخدمها اليهود. وكانت "يعبد" تشهد حربا بالفعل ليست مثل تلك التي كنا نسمع عنها في قصص جدتي. وكانت توجد في جدران منازل بيوت أصدقاء والدي ثقوب كبيرة على نحو بث الرعب في نفسي. وكانت بوابات منازلهم من الحديد المطلي باللون الأخضر غير انه كانت توجد بها ثقوب كبيرة يمكن لأى عابر أن يشاهد من خلالها غرفة المعيشة.

وقال أبي إنه ليس من الممكن أن يقع هذا الأمر لدينا لأننا مختلفون، ولم يكن أمامنا إلا أن نصدقه خاصة أن المقيمين في قرية

"يعبد" كانوا يتحدثون بلهجة مختلفة، وأيضا لان الأبواب في دارنا من الخشب.

كان والدي وأمي يحشروننا نحن الأربعة في المقعد الخلفي من السيارة، ويسافرون في الطريق المؤدي إلى "يعبد" غير أننا كنا نعود إلى البيت دون رؤية الأصدقاء فقد كان أبي يعود في منتصف الطريق إلى البيت وهو يسب كل شيء قائلا إنه ليس من الممكن اليوم الوصول إلى "يعبد" لأنه يوجد حاجز. وكان يقول إن الرجال في "يعبد" وأطفالهم من الرجال وليسوا مثلنا أصفارا أليفة.

وكنت أنا وأخواني نتدرب دائما على الحرب، فكنا نلعب طيلة الوقت بالعصى على نفس النحو الذي كنا نشاهد فيه ما يحدث في الأفلام التي تتناول سيرة النبي محمد. وكنت ألعب دور حمزة عم النبي محمد. الذي كان يبدو في هذه الأفلام قويا للغاية، ممسكاً بسيف ذي نصلين كان يقتل به عشرة كفار مرة واحدة. وكان أخي الأكبر يمثل دور علي ابن عم النبي، وكان أخواي الأصغر مني يمثلان دور الخليفة عمر والخليفة عثمان. وكان من المحظور بالطبع أن نمثل دور النبي محمد، فكانت جدتي تقول إنه إذا فعلنا هذا فإن الله سيلقي بنا في جهنم. ولم نر بالفعل في أي من هذه الأفلام النبي محمد، ولم نر فيها سوى ناقته المحاطة بهالة من النور.

وبدأنا فيما بعد اللعب بالمسدسات مثلما كان يحدث في فيلم عمر المختار في ليبيا، وفيلم جميلة بو حريد في الجزائر. وفي عيد الفطر كان أبي يصطحبنا دائما إلى طولكرم ليشتري لنا المسدسات، ولم يكن لأي طفل من قريتنا مسدسات جميلة بهذا الشكل بل ومن الحديد. وفي الأعياد وبينما كانت محلات البقالة تبيع مسدسات بلاستيكية كنا نلعب بمسدسات حقيقية. وحينما كانت تنفد الذخيرة كنا نصرخ " طاح طاح".

وحينما كبرنا بعض الشيء كان أبي يحضر لنا أفلام رامبو وأفلام الكوماندوز وعندئذ انتقلت ألعابنا للأسلحة الثقيلة، وانتقلت ألعابنا من حيز البيت والبستان وامتدت إلى كل الحي وأصبح أخي قائدا لمجموعة بينما كنت قائدا لمجموعة أخرى. ولم يتفوق على إلا بالخداع أو حينما كان يترك أحد جنودي موقعه ويذهب ليتبول.

وحينما كبرنا أصبحت لدينا بعض الأسلحة الأوتوماتيكية، فكانت لنا مسدسات كبيرة من الخشب وكانت مزودة بمخزن طلقات وزناد، وخيوط لتعليق المسدسات على الكتف. وفي البدء دعونا كل المسدسات "بيرن"، هذه الكلمة التي أخذناها من قصص جدتي، ولكن بعد أن شاهدنا الكلبة المظلية "عازيت" أطلقنا على المسدسات اسم "عوزي". . وقد أطلق احدنا خلال اللعب النار على سبعة من العرب دفعة واحدة، فقال أبي الذي انفعل للغاية إن مسدسات "ام 16" تطلق 60 رصاصة في الثانية. ومن هنا بدأنا في تسمية كل الأسلحة باسم "ام 16" هذا بالرغم من أنه لم ينجح أحد منا في أن يصرخ " طاح " ستين مرة في الثانية، فاستبدلنا كلمة " طاح " بكلمة "بررررر". وأطلقت على مجموعتي اسم " الفدائيين"، كما أطلق أخي الأكبر أيضا ذات الاسم على مجموعته خاصة أن أبي كان يقول دائما أن الفدائيين هم الأفضل في كل شيء.

ونادانا أبي ذات مرة وطالبنا بالعودة إلى البيت، وحينما نادانا كنت في منتصف اللعبة وكنت على وشك قتل أخي قائد المجموعة المنافسة، غير أن أبي صرخ بشدة، فلم يكن أمامنا خيار آخر سوى العودة. وجمعنا أخوينا الصغيرين من مواقعهما وطرنا إلى البيت خاصة أن أبي كان يقدم في بعض الأحيان على ضربنا عند الغضب. وحينما وصلنا البيت رفع والدي صوت التلفاز إلى أقصى درجة فانفجرت أمي في البكاء بل وانتحبت جدتي التي لم تبك قط.

وأمرنا أبي بالمشاهدة، وكان يردد اللعنات طوال الوقت قائلاً: " يلعن الله يلعن ربهم يلعن رب الله الذي خلقهم"، ومزقت جدتي ثيابها وأخذت تولول. أما أنا وأخي فكنا سعداء لأنه لم يضربنا في ثورة غضبه. وفهمنا أن أبي احضر فيلما جديداً وأنه يريد أن نشاهده. وفي الغد عاودنا اللعب، وأطلق أخي على مجموعته اسم "صابرا" وأطلقت على مجموعتي اسم شاتيلا.

6- مشاهدون

صعدت ذات مرة على خشبة المسرح واضعا الكوفية الفلسطينية على صدري وكنت حينئذ في الصف الثالث، واذكر في ذلك الحين مجيء أبي مع رجل ذي لكنة غريبة إلى المدرسة. واصطحبني أبي مع هذا الرجل في سيارته إلى منزل لم يسبق لي دخوله. وكان هذا المنزل جميلا أذكر أني رأيت فيه أرائك ضخمة ومزهريات وزهور بلاستيكية. وأخرج هذا الرجل من جيبه ورقة بها عدة جمل عربية لم أفهمها وأخبرني أني سأفتتح هذا المساء احتفالية "جفرا"، وطلب مني حفظ هذه الجمل، وعلمني كيف ألوح بيدي بعلامة النصر.

ووضعوا لي الكوفية وأصعدوني على خشبة المسرح التي كان عليها عدد كبير من العازفين، ورددت الجمل التي جاءت بها كثيرا كلمة "وطن" بصوت قوي. ولم يكن قد سبق لي أن شاهدت كل هذا العدد من الحضور. وحينما انتهيت من ترديد ما حفظت نزلت من على المنصة، وأشرت للحضور بعلامة النصر، فضجت القاعة بالتصفيق. وكان أبي ينتظرني من وراء الكواليس، وارتسمت على وجهه ابتسامة جميلة حينما ركضت نحوه مختبئا بين ذراعيه. أما الرجل الغريب فقال لي كلمة لم أفهمها ولكن والدي قال لي إن أدائي كان جيداً.

وأخذني والدي فيما بعد إلى المشاهدين قائلاً أني سأصبح طيارا حينما اكبر، وانه ستكون لنا دولة عند انتهائي من المرحلة الثانوية، وعندئذ يمكنني أن أحلق بعيدا. وقالت جدتي أني سأصبح وزيرا أو قاضيا. وحينما توفي احد مدرسينا كان من الواجب أن نتوجه للوقوف لدى قبره غير أنه لما كان لا يجوز لأحد الوقوف على القبر دون أن يكون مرتديا الملابس العسكرية فقد أخذني أبي إلى طولكرم لشراء سروال كاكي، وقميص أخضر، وقطعة من القماش لاستخدمها كرابطة عنق.

وحينما كنا في محل الملابس سمعنا صرخات مرعبة في الخارج، فطلب منا صاحب المحل مغادرة المكان وانزل البوابة الحديد على المحل. ورأيت في الشارع أطفالا كثر قاموا برفع الأعلام وإغلاق الطرق بأطر السيارات. وأبقاني أبي في السيارة واندفع إليهم حاملا قداحة لإشعال الإطارات. وبدأت في البكاء. وكنت متأكدا أن هذه هي نهاية العالم التي كنا نسمع عنها في دروس القرآن. أما أبي فبادرني قائلا "إنه لم يتوقع أني جبان إلى هذه الدرجة، وإنه لا يفهم لماذا أصر إذن على اقتناء مسدس".

وكان لجدي مسدس، وتقول جدتي إنه كان مقاتلا صلبا وإنه كان ممن خرجوا دفاعا عن الطيرة. وتقول إن اليهود لم ينجحوا في دخول الطيرة وإنهم لم يتمكنوا من دخولها إلا بعد أن سلمنا العرب لهم. أما أبي فيقول إنه كان من حسن الطالع أن الملك عبد الله سلم القرية لليهود في الوقت المناسب وإلا لكانوا ذبحونا الواحد تلو الآخر.

وحينما قتل ابن جدي من زوجته الأولى طالب بالثأر لدمه. وكان ولده "عقاب" من الثوار، فكان له فرس وبندقية وحزام مليء بالقنابل. وحينما أطلقت عليه النيران أصابت حزامه فانفجرت كل القنابل مرة واحدة، وتمزقت جثته بالكامل. وتقول جدتي إن كل الأسرة تكاتفت

لجمع أشلائه حتى يمكنهم دفنه. وكان له وجه مستدير كالبدر في كماله.

وتقص جدتي إنه بعد دفنه في المساء صعد جدي إلى سقف المدرسة التي رابط بها عدة جنود عراقيون، وأنهم كانوا يغيرون مواقعهم خلف مدفع من طراز "بيرن" كان يتم إخفائه في أكياس الرمال. وحينما سمع جدي اليهود يقتربون منفذين لأمر قائدهم بالتقدم، أطلق النار على قائدهم فتفرق اليهود وفروا ذعراً، وعندئذ واصل جدي إطلاق النار عليهم وحصدهم، وتقول جدتي "إن اليهود جبناء".

وكان قد سبق للانجليز دخول بيت جدي وجدتي قبل أن يولد أبي، وقلبوا كل شيء بالمنزل رأسا على عقب، فقلبوا الملح على السكر ومزقوا المراتب بل وتبولوا أمامها. وتقول جدتي إن أحدهم جلس على قدر ضخم للزيتون وعبث بداخله، وقام بعد ذلك بطرح كل ما بداخله على الأرض.

7- كان أهل الطيرة أكثر شجاعة

كان أهالي الطيرة أكثر شجاعة، فلم يسمحوا لأي يهودي بدخول القرية، ولم يستسلموا في الطيرة إلا بعد أن سلموهم. وحاول اليهود ذات مرة الدخول إلى القرية متخفين في صورة العرب، فأتوا مرتدين كوفيات غير أن ابو العبد عرف أنهم يهود بعد أن شاهدهم عن قرب في الوقت الذي كان يعبر فيه حقول القمح مع عدد من أفراد أسرته. . وحينما أخبر من حوله أن هؤلاء من اليهود اعتقدوا أنه فقد صوابه قائلين له "ماذا حدث لك إنهم بالتأكيد من الجنود العراقيون".

غير أن ابو العبد كان واثقا من صدقه، فقال لأصحابه إنني أعرف اليهود من مشيتهم، وإذا أطلقنا طلقة واحدة في الهواء سنعرف في

الحال فلو كانوا عربا سيصرخون فينا. أما إذا كانوا من اليهود سينبطحون أرضا".

وحينما أطلق النار سقطوا جميعهم أرضا واتضح حينئذ أنهم من اليهود. وظل ابو العبد ورفاقه ثابتين في أماكنهم مطلقين النار لإخافتهم، واندفعت النسوة والأطفال في الشوارع صارخين " يا أهل البلد اليهود أخذونا".

وعندئذ خرج كل الرجال دون خوف وخرجوا وكأنهم متجهين إلى عرس، وأطلقت النساء الزغاريد (التي يطلق عليها اليهود صرخات السعادة). ولم تكن لديهم أية بنادق وإنما كانوا مسلحين بالعصى والسكاكين والحجارة والمعاول ولم يدعوا أى يهودي يقترب. ونجحوا في ذاك اليوم في خطف جثث ثلاثة من الجنود اليهود.

وربط ابو العيد وعدد من المقاتلين في الطيرة الجثث في الخيول وسحبوها إلى مقر قيادة الجيش العراقي في طولكرم، ليخبروا القيادة أنه من الممكن قتل اليهود محاولين تشجيعهم وإقناعهم بإمكانية محاربتهم. غير أن العراقيين قالوا "ماكو أوامر ماكو سلاح".

وكان سكان الطيرة أكثر شجاعة فيما مضى، فلم يسمحوا للزعيم مائير كهانا بدخول القرية قط، ، فحينما ذكرت نشرات الأخبار ان كهانا يعتزم دخول القرية دوت مكبرات الصوت في المساجد معلنةً : "يا أهل البلد كهانا سيأتي غداً لإعادة الأسرى المحررين. العار علينا إذا دخل".

وفي الغد توجهت في الخامسة صباحا مع والدي إلى مدخل القرية الواقع عند كفر سابا ورامات هكوفيش. وكان هناك عدد كبير من الأفراد الذين أغلقوا الطرق بإطارات السيارات. وقال والدي إنه يجب أن ندافع عن القرية، ومنع عمال الطيرة من الخروج للعمل، خاصة أن اليهود

ينفجرون غضباً عند خسارتهم لأي يوم من أيام العمل، وقال متسائلا:" أتعلم حجم الخسارة التي نسببها لهم حينما لا نذهب للعمل؟".

واقتربت دوريات الشرطة غير أن أبي ورفاقه افترشوا وسط الطريق، ولم اخف وجلست معهم، وتحدث رئيس البلدة مع جنود الشرطة، فابتعدوا. وبعد مضى فترة وجيزة احتشدت كل القرية فأغلق الآلاف مداخل القرية. وحلقت طائرة في أجواء المنطقة فقال أبي إنهم يقومون بتصويرنا من الجو، وغطى وجهه بالقميص، وكان قد علمني كيف أربط القميص على وجهي مثل الأطفال الذين أشاهدهم بالتلفاز.

وعاد أبي في نفس اليوم متأخرا إلى المنزل، بعد أن اعتصر القلق كلا من أمي وجدتي، ولم يبتسما إلا بعد أن توقفت سيارته عند شجرة الاكاليبتوس الواقعة عند مدخل الدار.

وأحسست بأني أصبحت رجلا بعد أن تخلصت من الخوف، غير أن أمي وجدتي اندفعتا إلى الباب للتأكد أن والدي بخير غير أنهن لم يستفسرا مني عما حدث. وفي الحقيقة لم يحدث شيء البتة حيث إن كهانا لم يأت. وفي الغد تحدث الأطفال في المدرسة عن تدميرهم لنوافذ دوريات الشرطة ومع هذا قالوا إن كهانا دخل إلى القرية متخفيا في زي امرأة وأنه دخلها عن طريق البساتين الواقعة في تل موند.

8- طالب في السنة الثالثة

يكتب أبي أنه لا يشعر بأية سعادة في العيد، وأن عيده الحقيقي لم يحل بعد وإنه عند حلوله فإن السعادة لن تكون فرديه بقدر ما ستكون جمعية، وكان من بين ما كتبه أيضا أن السجن يسمح بيوم زيارة خاص بمناسبة العيد، وأنه لا يسمح وبشكل قاطع إلا بدخول كيلو جرام واحد فقط من الحلويات.

وكانت هذه الكلمات التي كتبها مسجلة على بطاقة بريدية من سجن دامون صادرة عن بريد حيفا في مارس 1970، وكان حينئذ في السجن. وأعلم هذا لأن حقيبة جدتي الزرقاء كانت تحتوي على نسخة من عدد جريدة هآرتس بتاريخ مارس 1969 الذي كان يتضمن خبرا عن اعتقال والدي وعلاقته بتفجير مقصف الجامعة العبرية بالقدس.

ووفقا للخطابات والصحف التي وجدتها فقد اعتقل والدي لأكثر من عامين. وكانت الأوراق مغطاة كم هائل من الأتربة، بل ووجدت أثراً لعنكبوت جاف على شهادة إتمام الثانوية العامة لوالدي. ولم تكن معدلاته الدراسية مرتفعة بشكل ملحوظ غير أنه يقول دوما إن المعدلات الدراسية في الماضي كانت مختلفة كلية عن المعدلات الحالية فمن كان يحصل على سبعين في المئة من الدرجات في الماضي أفضل بكثير ممن يحصل على أعلى الدرجات حاليا. وقد احتفظت جدتي بكل الشهادات، وبالرغم من أنها لا تجيد القراءة والكتابة إلا أنها ترى أنه من المهم الحفاظ عليها. وكانت توجد في ذيل الشهادة توصية بالتحلي بالهدوء والتزام الصمت، فجاء في شهادة نجاحه من الصف الحادي عشر إلى الصف الثاني عشر" يجتاز الصف شريطة أن يحافظ على النظام".

ويبدو لي أنه لا يعرف أحد سواى وجدتي شيئا عن هذه الخطابات والصحف والشهادات، فالأتربة تؤكد أنه لم يمسسها أحد قبلي، غير أني لا أتوقف عن تصنيف هذه الأوراق، وفقا للتواريخ والأماكن والمؤسسات ووضعها بجوار جدتي.

ولم تكن جدتي تشعر بوجودي، فكان لزام على أن أثبت نفسي أمام عينيها وأن أخبرها بصوت عال من أنا حتى تقتنع أني استحق أن أنال حضنا منها أو قبلة. وكانت تجلس دائما أمام الفرن وتعبث بمسبحتها، وتكتفي بالإنصات إلى صوت عمان وتنتظر سماع صوت المؤذن.

وكـان والـدي يوجـه كـل خطاباتـه مـن السـجن إلى جـدتي، هـذه الخطابات الي كانت ترد بها دائما عبارات مثل " لتبلغوا أمي العزيـزة" أو " تبلغـوا أمـي الحبيبـة" أو " تخـبروا اعـز النـاس". وكـان يرسـل هـذه الخطابات إلى أزواج عماتي. وكان يحاول في كل مـا كـان يخطـه أن يبـدو على ما يرام، فكتب في إحدى البطاقات البريدية التي بعثها من السـجن في شهر أكتوبر 1969 والتي كانت الأقدم إنه تجاوز مشـكلات التكيـف مع السجن وأنه يلتقي فيه بأشخاص يصعب عـلى المـرء أن يلتقـي بهـم دوما وأنه يتكيف معهم. .

وفي خطـاب بتـاريخ لاحـق وفي أعقـاب تمديـد فـترة اعتقالـه لسـتة شهور تحدث عن المكتبة العظيمة وكيف انه يدرس طيلة الوقت، فجاء بها:" لتخبروا أمي الغالية أنني سعيد لأنهم أطالوا فـترة اعتقـالي، وتوجـد الكثير من الكتـب هنـا، ولا أغـادر المكتبـة إلا حيـنما يطلـب منـي أحـد الأشخاص مشاركته لعب الشطرنج. ولتطلبوا من أمـي أن تـحضر لي مـن المنزل قاموس انجليزي عربي".

وحينما مددوا فترة اعتقالـه مـرة أخـرى كتـب أنـه لـن يفـرغ مـن الكتب التي لديه إلا بعد خمس سنوات، وتحدث عن الفرصة العظيمـة التي أتيحت له لتطهير جسده ونفسه، واختبار مدى قوة عزيمته وقدرته على الصمود، وأنه يتفهم الآن أنه لم يولد إلا ليعتقـل، وأنـه لم يـنجح في تخيل حياته بدون القضبان الحديدية والأسلاك الشائكة. وجاء في إحدى الخطابات:" لولا معرفتي انك وأخـواتي تشـتقان لي لكنـت قضـيت بقيـة عمري هنا. ويطيب لي المقام في اعتقالي. أما الأمر الوحيد الذي يزعجنـي فهو أنكن بذلتن كل ما في وسعكن لأكون فـوق الجميـع، واشـعر بـالأسى لكل قطرة عرق بذلتنها من أجلي، فأعلم أني خيبـت آمـالكن. ولا أبتغـي سوى أن أعوضكن ولكنني لا ادري كيف".

وفي إحدى الصحف التي اصفرت أوراقها ميزت صورة أبي بصعوبة بالغة بعد أن ضاعت بعض معالمها، ولم يرد شيء تحت الصورة سوى "طالب بالفرقة الثالثة". وأحسست من معدلاته في السنتين الدراسيتين الأوليين أنه لم يكن طالبا مجتهدا أو نابغا فلم يدرس الكثير من المواد الدراسية، غير أنه درس مادة "الحركات القومية في العصر الحديث"مع البروفيسور طلمون. وكما يبدو لم يجتهد كثيرا في الدراسة مثلي. وحينما تركت الدراسة لم أستطع العودة إلى البيت من فرط الخجل، غير أني لم أفكر في تفجير الكافتيريا.

وكان أبي في الثانية والعشرين من عمره عند اعتقاله غير أنه كان يتصور انه في الثالثة والعشرين، فقد احتفظت جدتي بخطاب كانت بعثت به إلى هيئة تحرير صحيفة القدس، وتم نشره بعنوان " أطلقوا سراح ولدي". وكتبت في الخطاب أنها أرملة وأن زوجها توفي منذ ثلاثة وعشرين عاما تاركا لها أربع بنات وولد واحد. وأنها بذلت كل ما في وسعها من أجلهم وأنها لا تملك من الدنيا سوى ولدها، وأنها تناشد وزير الشرطة ووزير الدفاع ورئيس الحكومة إطلاق سراحه. وكان من بين الأخبار التي وردت في ذات الصحيفة التي نشرت الخطاب أن الكهرباء ستصل إلى قرية عرابه خلال عام 1970.

وبدأت جدتي فيما بعد إضرابا عن الطعام، وأرسل أبي مرة أخرى بطاقة بريدية إلى العم بشير استحلفه فيها أن يقنعها بفك الإضراب، وأنه إذا كان يعاني في سجنه فلا بأس غير أنه تكيف بالفعل في سجنه.

ولا يتحدث أبي عن تلك الفترة، ولا أعرف شيئا عنها إلا من خلال ما تم نشره في الصحف أو مما جاء في خطاباته التي يصعب معرفة الكثير منها، فقد وزعت " لجنة الطلاب العربية " في عام 1971 منشورا يدين سياسة الاعتقال الإداري ويطالب بتقديم والدي إلى المحاكمة أو إطلاق

سراحـه في الحـال، فجـاء بالمنشـور أن الشرطـة أعلنـت أن ملـف تفجـير الكافتيريا أغلق وأنه تم تقديم كل المتهمين في القضية إلى المحاكمة.

٩- البحر الميت

سافرت ذات مرة مع جدتي إلى البحـر الميـت الـذي تسـاعد مياهـه كثـيرا في التخفيـف مـن آلام القـدمين، وكانـت جـدتي قـد طلبـت مـن صديقتها آمنة أن تسـجلني في الرحلـة خاصـة أنهـا كانـت مسـئولة عـن تنظيم رحلات النساء اللائي في عمرهـا. وقـد سـافرن إلى "الحمـة" حيـث الحمامات الطبيعية التي تساعد على الشفاء والى القدس لأداء صلاة يوم الجمعة. وقد نظمت رحلات إلى كل الأماكن التي من الممكن أن تشـفي العظام.

وجدتي و"آمنة" صديقات منـذ أيـام الانجليـز، ويحـتفظ زوج آمنـة بمسدس أعطاه الانجليز له لحماية القريـة. وذات يـوم دخـل زوج آمنـة إلى البيت ووضع المسدس بجواره لينام غـير أن أبـو زيـاد الشريـر دخـل الغرفة وسرق البندقية. وظن الانجليز أن زوج آمنة بـاع البندقيـة فـربط الجنود الانجليز قدميه وانهال الضابط علي ظهره ضربا بالكرباج. ووصل صراخه حتى الحقول فانـدفع الأهـالي لمعرفـة مـا يحـدث. وحيـنما كـان الانجليز على وشك إطلاق النار عليـه تـدخل أبـو زيـاد وقـال إنـه وجـد البندقية في احد الحقول.

وكانت آمنـه تبـدو مثـل جـدتي إذ كـن يرتـدين الفسـاتين البيضـاء المخصصة للخروج وغطاء الرأس الأبيض، وكن من أكبر النساء المسافرات إلى البحر الميت. أما سائر النسوة فكن مـن الصـغار. وذات مـرة أشـارت جدتي برفق إلى إحداهن وسألت آمنه "من هذه البنت الجميلـة، ولمـاذا

هي غير متزوجة؟". وعندئذ بدأت كل النساء في دق الدف والغناء والرقص، وأمسكت إحداهن بالميكروفون وغنت أغنية هندية كانت قد وردت في فيلم "كورباني"، هذه الأغنية التي كان الجميع يعرفها فاشتركن معها في الغناء.

وكنت أسير في المنتصف بين جدتي التي كانت تمسك يدي اليمني وبين آمنة التي كانت تمسك يدي اليسرى، وكن يعربن طيلة الطريق عن أسفهن لأنهن لم يأخذن معهن عصا للسير. وكان السفر في الحافلة قد أنهكهن فضلا عن أن الحر كان شديدا. وحينما وصلنا إلى شاطئ البحر كانت كل النسوة في البحر. وكانت بعض الفتيات يتضاحكن علينا غير أنه لم يكن بمقدور جدتي وآمنة مشاهدة ما يحدث في البحر أو سماع الفتيات من هذه المسافة.

ولم تستوقفني ضحكاتهن كثيرا فبقيت بجوار جدتي وآمنه، فكان عشقي للاستماع إلى قصصهما يفوق عشقي لأي شيء آخر. وكن يقصصن هذه القصص مرة تلو الأخرى، فكن يحكين قصصا عن أن البعض كان يقوم بقطع يده حتى لا يأخذه الأتراك إلى الحرب، وأن الأتراك كانوا يأخذونهم إلى أماكن بعيدة حيث الجبال التي تغطيها الثلوج وأنهم كانوا يلقون حتفهم هناك من شدة البرد، وأنه لم يعد أحد من هناك.

وكانت جدتي وآمنة يخلعن الثياب البيضاء، وكن يرتدين من تحتها ثياب بيضاء أخرى أقل فخامة، هذه الثياب التي كن يدخلن المياه بها، وكانت توجد تحتها جوارب طويلة. وكن يدخلن المياه ببطء، وكن يخفن من أن يفقدن توازهن في المياه، فكن يقررن الزحف جلوسا على الحجارة. وكنت أجلس بينهن ممسكا أياديهن وازحف معهن حتى المياه.

وكانت جدتي تدعوني للدخول إلى الماء غير أني كنت أقف بالخارج مكتفيا بالنظر إليها خشية أن تضيع، وكنت أحافظ عليها عن بعد، وكنت أدخل الماء حينما كن يخرجن. وكانت ثيابهن البيضاء تطفو على المياه، فكانتا تبدوان كمظلتين. وكان الجميع يتضاحك لرؤيتهن، وضحكت أيضا فكانت المرة الأولى التي أرى فيها جدتي في البحر. ويمكنني الآن تخيلها وهى صبية، بل ويمكنني الآن رؤيتها وهى تعمل في الحقول.

وكان أهالي القرية في الماضي يعلنون حبهم لبعضهم البعض في الحقول، وكانت جدتي تحكي لي كيف أن البعض كان يلتقي في حقول القمح، أو يذهب إلى ذاك البئر البعيد الواقع على طرف القرية لتبادل النظرات. ولم تقم جدتي بمثل هذه الأمور فكانت تمتطي في صباها الخيل وتندفع بها من قلقيلية حتى الطيرة. وكانت تعشق جدتي امتطاء الخيل، وكانت ترتدي ملابس الرجال فكانت تغطي رأسها بكوفيه وتندفع بسرعة. وقد طاردها ذات مرة فارسان لساعة كاملة ولم ينجحا في الإمساك بها، غير أنه حينما تبين لهما إنها فتاة لم يصدقا ما شاهداه، غير أنها نهرتهما وعادت إلى بيتها.

وكانت جدتي يتيمة، فتوفيت أمها عند ولادتها، كما أن أباها توفي بعد فترة قصيرة من ولادتها. وقد تولى عمها تربيتها هي وأخويها. وكان العم والعمة من الأشراف الخيرين فتوليا إطعام الأطفال اليتامى وحافظا لهما على الأرض. وكانت حياتهم أفضل بكثير من حياة سائر أطفال القرية.

ولم تتعرف جدتي على جدي زوجها، فلم تلتق به في حقول القمح. وحينما تتذكره جدتي فإنها تلعنه، وتقول إن هذا الشايب كان متزوجا وله أطفال كبار، وكانت بنتاه الكبيرتان متزوجتين. وكان أخ جدتي يرغب

في أن يتزوج بنته الثالثة وفي المقابل فقد طلبها جدي. ويسمون هذه الطريقة في الزواج البدل. وكانت بنت جدي الثالثة شريرة فقد أرادت أن ترمل جدتي لأنها تزوجت أبيها وكأنها أرادت أن تحتفظ به لنفسها.

وضرب جدي ذات مرة جدتي بسببها بعد أن أتت بنته إلى المنزل مولولةً "ضربني زوجي وطردني"، واتضح فيما بعد أنها لم تكن سوى كاذبة، وقام جدي بتوجيه اللكمات إلى جدتي. وقام بهذا الأمر بموجب عرف البدل الذي يسمح للمرء بتطليق زوجته إذا قام أخوها بتطليق أخته.

وبعد أن انطلقت جدتي في قص هذه الحكاية بادرتها آمنه بقولها "غير أنه كثيرا ما أحسن إليك، ولماذا لا تحكين أنه كان يحملك على كتفه مثلما كان يفعل زوجي عليه رحمة الله، ولماذا لا تقصين أنه أخذك ذات مرة إلى مسرح يافا لمشاهدة المنشدين؟" ووجهت آمنه لي الحديث قائلة : "كان جدك يضع لها طربوشا على رأسها، وكان يعطيها ملابس الرجال ويأخذها لمشاهدة المنشدين، ولم تجرؤ امرأة في القرية في ذلك الحين على مشاهدة مغني؟ ألا تنسين هذا ياعجوز؟ وقد أخذك كثيرا على الفرس لكل الأماكن". ووجهت آمنة لكمة خفيفة إلى جدتي التي ضحكت، وواصلت آمنة حديثها بقولها "لولاه ما كنا عرفنا البحر الميت".

10- خمس بلوكات صغيرة

ليس لي من صورة لجدي سوى صورة له وهو في الأربعين من عمره، ولا يبدو من الصورة سوى كتفيه ورأسه وشارب صغير وجاكت أزرق وقميص أبيض. وتحكي جدتي أنه كان بطلا بحق، وتذكر في أحيان

أخرى انه كان عجوز متصاب، وأنه أخذها من بيت أعمامها حينما كانت صغيرة للغاية.

وحينما كنا صغارا كانت أمي تأخذنا في الأعياد إلى منطقة المقابر الواقعة بجوار البيت، هذه المنطقة التي كانت تتجمع فيها كل القرية في صباح كل عيد. ولم يصحبنا أبي قط لزيارة قبر والده. وكان قبر جدي بسيطا وصغيرا وأقل فخامة من سائر القبور. وكانت منطقة المقابر تكتظ دائما بأهالي القرية، وكان الجميع يجلس في حالة بكاء دائم بجوار المقابر البيضاء الكبيرة والجميلة. وكانت تحيط المقابر الكثير من الزهور، وكانت لبعض المقابر قباب صغيرة مثل تلك التي نراها في المساجد. وكانت بعض المقابر تضم ثلاثة أو أربعة طوابق. وقال أخي الأكبر إن المقابر المكونة من أربعة طوابق مخصصة للشيوخ والأبرار وأنهم سيصعدون مباشرة إلى جنات عدن دون حساب مثلما علمونا في حصص الدين. . وكانت المقابر تكبر وتتسع في كل عيد خاصة أن البعض حرص على بنائها من الرخام والسيراميك. وكان أخي الأكبر يجوب المقابر بحثا عن الجديد منها، ويبحث عما إذا كان الموتى نهضوا من قبورهم. أما أنا فكنت أخشى الابتعاد عن جدتي. وكانت دائما تقول إنه يجب ألا اجلس على الأحجار لأنها جزء من المقابر، ولذلك كنت أتحسب دائما مليون مرة قبل الجلوس على أى حجر. وكنت أمسك بذيل ثوبها الأبيض الضخم خشية الضياع بين كل هؤلاء البشر المتواجدين. ولم أطأ أيضا الأحجار الصغيرة فكنت أتصور أنها ربما كانت مقابر أطفال صغار. وقالت جدتي عن الأطفال الصغار إنهم لا يموتون وان الله يختارهم ويأخذهم لأنه يريد أن يجعلهم من الملائكة.

وكانت توجد في منطقة المقابر خمسة أقبية صغيرة تغطيها الأعشاب، وكانت هذه الأعشاب تخضر في الخريف وتصفر وتجف في

الصيف، وكانت جـدتي تجلس بجـوار القـبر وتبـدأ في ترتيـل آيـات مـن القرآن الكريم. وتقول جدتي دائما إنهـا تحفـظ آيـات قرآنيـة كثـيرة هـذا بالرغم من أنها لم تدرس قط. وفيما بعـد وحيـنما كـان مشـايخ المسجد يبـدؤون في التكبـير للعيـد كـان الأهـالي يصـافحون بعضـهم الـبعض ويوزعون المال والحلوى على الأطفال. وكان يوجد معي بالفصل طفـلان كانا ينجحان في جمع أمـوال كافيـة لشراء عشرة بنـادق، وكانـا يجمعـان هذه الأموال عبر ترديد عبارة " الله يرحمه" عند التقائهما بأي شـخص في المقابر. وكان الأطفال يأتون دائما إلى المقابر من أجل تحصيل الأمـوال في العيد. أما البنات فلم يجرؤن على المجيء.

و كانت جدتي تحمل عند زيارتها للمقابر حقيبـة مليئـة بـالعملات الفضية كانت توزعها على الأطفـال، فكانـت توزعـا أمـوالا كثـيرة وكنـت أغضب منها لأنها لم تكن تعطيني هذه الأمـوال، وكنـت أردد دائمـا عـلى مسامعها إني على دراية بهؤلاء الأطفال.

ولم تسمح لنا جدتي بأخـذ الأمـوال مـن أي شـخص بـالرغم مـن أن البعض كان يتطوع بإعطائنا عملات مـن الفضـة دون أن نـذكر عبـارة " الله يرحمه"، ولم تسمح لنا جدتي أيضـا بأخـذ قطـع الحلـو مـن العجـائز اللائي كن مثلها هذا بالرغم من أنهن كن يستحلفنها بالنبي محمد لأخذ قطعة صغيرة من الحلـوى. وكانـت جـدتي تعـاملهن برفـق وبـأدب جـم فكانت تقبل أياديهن وتتمنى الرحمة لفقيدهن، وأن يكون مصيره جنـة عدن. ولم تأخذ منهن شيئا.

ورفضت أيضا أخذ أي شيء، وكنت أصدق كل ما قالتـه جـدتي بأنـه ليس من الجائز أخذ شيء من المقابر، وكانـت تقـول دائمـا إننـا لسـنا في حاجة إلى أى شيء، وأن الأطفال السيئين فقط هم الذين يأخذون فقـط.

وكانت تقول إنها تصطحبنا معها حتى نعرف على الأقل أين يرقد جـدي وألا نتصرف مثل أبي الذي يتصرف وكأن جدي ليس والده.

11- في الطريق للبحر

وحدثنا أبي في بعض الأحيان عن جدي خاصة حينما كان يصـطحبنا إلى البحـر، وكانـت لأبي بعـض القصـص التـي كـان يرددهـا دائمـا خـلال رحلاته، فكان يضحك كلما مررنا بالقرب من "رمـات هكـوفيش"، ويـردد قصة الحادث الذي مـر بـه العـم محمـود، وكيـف أن سـيارته الجديـدة دمرت بالكامل. وعند مرورنا بقرية كفر سابا كان يشير إلى مبنـى صـغير ويقـول إن جهـاز الأمـن الإسرائـيلي يتخـذه مقـراً لـه، وانـه تعـرض فيـه للتحقيق أكثر من مرة، وأن المحققين طلبوا منه أن يحدثهم عن تفاصيل أحاديث من يجلسون على المقاهي ولكنه رفض. وحينما كنـا نتوجـه إلى البحر، ونمر بجوار المقابر الواقعة عند منطقة "تل موند" كان يحـكي أنـه كتبت على كل مقـبرة مـن هـذه المقـابر عبـارة "1948 معركـة الطـيرة". ويقول إنـه مـن الضروري أن نصـدقه حيـنما يقـول إنـه شـارك في هـذه المعركة، وأنه رأى بالفعل ما هو مكتوب على هذه المقابر.

وكان أبي يكرر دائما هذا الحديث، وكان لا يمل من ترديـد أن أهـالي تل موند ورمات هكوفيش لا يحدثوننا لأننا قتلنا لهم الكثـيرين، وأنـه لا يعرف عدد من قتل جدي ولكنه يعتقـد أنـه قتـل الكثـيرين، وأنـه كـان مقاتلا شرساً. وكان ينهي حديثه بوعد أنه سينظم لنا جولة ذات مـرة في مقابر منطقة تل موند. وبالرغم من أننـا كنـا نسـافر طيلـة الأسـبوع إلى البحر إلا أننا لم نتوقف هناك.

ولم ترغب جدتي في ان نسافر للبحر، وكانت تحذره طيلة الوقت، وتعرض عليه السفر إلى الجبل بدلا من البحر، وكانت تقول إنه من الممكن أن تمضي إلى الجبل بنفس التكلفة بل وأن نشوى للأطفال بعض الدجاجات. وكانت تشعر بقلق بالغ من سفرنا للبحر، ولم تكن تهدأ إلا عند عودتنا. وحينما كنا نعود إلى الشارع كانت ترفع رأسها محاولةً عد من بالسيارة حتى قبل أن تتوقف. وكانت أمي تقول دائما إن البحر خطير للغاية ولا أمان له، وأنه من الممكن أن تنشق فجأة بعض الآبار بالقرب من البحر لتبتلعنا، وأن البحر ابتلع ابنها الثاني.

غير أنها كانت تقص علينا أنها كانت تذهب في طفولتها إلى البحر، وأن كل أهالي الطيرة كانوا يتوجهون إلى البحر، وأن أراضي القرية كانت تمتد حتى ساحل البحر، وأنها لم تكن تسبح في البحر وكانت تكتفي بغسل قدميها في مياهه. وكان الرجال يأتون على الساحل بجمالهم المحملة بكميات ضخمة من البطيخ الذي كان له مذاق لا وجود له الآن، وأن الأرض كانت تمتلئ بأكداس ضخمة من البطيخ، وأن بعض الأجانب كانوا يتحدثون بلغة لم يكن يفهمها سوى الرجال وكانوا يشترون البطيخ. وكان لهم عدد كبير من العمال الذين كانوا يحملون البطيخ على أكتافهم ويضعونه على السفن.

وكانت جدتي تتوجه إلى هناك مع أعمامها وأطفالهم على الحمير، وكانوا يتوجهون بعد بيع البطيخ إلى قلقيلية لشراء الملابس. ولم يجرؤ أحد على قول إن الآخر اشترى أكثر مني. لقد كان كل شيء مختلفا آنذاك، فلم يكن هناك آنذاك خداع ولم يكن أحد يبث الخوف في نفس الآخر. وكان الجميع يخاف فقط من المنافقين والذئاب.

وكانوا يتوجهون في الأعياد إلى مسجد سيدنا علي حيث كان الرجال يضحون بالكباش، وكانت النسوة آنذاك يشعلن النار لطهيها. وتروي جدتي

أن النساء المدنيات كن يتحدثن فقط بلغة مختلفة ويرتدين مثل العاهرات لبس البحر ويتوجهن إلى البحر، وأن أمي كانت تتصرف مثلهن إذ كانت تسير سافرة الشعر. وكانت النساء المدنيات لا يطبخن وفي المقابل فقد كانت الفلاحات يقمن بإطعامهن وكن يحببن الضحك عليهن.

12- الأرض

وحينما قتل جدي تركت جدتي البيت، وحينما أراد أبناؤها المتمردون الحصول على البيت تنازلت عنه في مقابل الحصول على الأرض. وكانت توجد آنذاك الكثير من الأراضي، فلم تكن لديهم أية مشكلة في التنازل عن دونمين من القمح في مقابل البيت. وتقول جدتي" رموني ورموا الأطفال الصغار، والبنات الأربعة والطفل الرضيع. إنهم يريدون الآن الأرض، ولكنهم يحلمون".

ويتصارعون جميعهم الآن من أجل الحصول على بضعة سنتيمترات من الأرض، ويدعي أحفاد جدتي العاقين أن القسمة لم تكن عادلة ويطلبون منها نصف دوم، غير أن جدتي ترفض التنازل عن نصيبها. ونهضت جدتي من مكانها وكشفت عن أنيابها وحاربت من اجل أرضها، فيكفيها ما أخذه اليهود من أرضها. وتخرج جدتي أوراقها المغطاة بأكياس النايلون من حقيبتها الزرقاء وتقول:" كله إلا الأرض وهذه أوراق الأرض والحقل، وكل شيء مسجل هنا. وتوجد هاهنا الخرائط وأختام المحامين. وهل تعتقدوا أني ساذجة فقد وقعت على كل شيء وأثبته".

وتتوجه جدتي إلى البلدية وتطلب منهم أن يصوروا لها عشر نسخ من الأوراق، بل وتجمع كل الشهود لتثبت أحقيتها في الأرض، وتكشف أمام أحفادها العاقين كل ما مرت به حينما اضطرت للعيش في خيمة، وتكشف لهم أنها لم تحصل على الأرض نتيجة عطف الآخرين أو منحة

منهم، وتواجههم بقولها" لتحضروا مهندسا لنتقاسم النفقات، وإذا كنت مدينة لكم بشيء ما فلتأخذوه".

وتسفر هذه المواجهة دائما عن خنوعهم وخروجهم من أمامها، ويتركونها تدمدم ببضعة كلمات، وكانت تشعر دائما في مثل هذه اللقاءات بالإهانة إذ كانوا يذكرونها بأمور تحاول دائما نسيانها منها تلك البنت التي جرحتها جرحا غائرا حينما تمردت على نظام البدل. ولم تبك جدتي قط غير أن صوتها كان يختنق أحيانا بالدموع وتقول " هل أبقيت أخواتها جوعى قط ؟ إن الله لن يغفر لها في هذا العالم أو حتى في الآخرة"

وتنتقد جدتي والدي بشدة لعجزه عن المواجهة، ولخوفه من هذه الحثالة التي يركبها الغرور، ولعدم حفاظه على أرضه، ولعدم إدراكه لقيمتها.

وتحلم جدتي في بعض الأحيان بمكان اسمه " البصه"، هذا المكان الذي كان والداها يقضيان فيه موسم جمع البطيخ الذي كان يكبر دون استخدام منقطات المياه، وكانوا يكتفون في زراعته باستخدام روث الدجاج. وتحلم أيضا بالجمال التي كانوا يمتطونها بثلاثة قروش فقط. وقد توجهت جدتي ذات مرة بعد الحرب إلى هذا المكان حاملة كومة من القش على رأسها، وقد توجهت إلى الحقول هناك بحثا عما قد تجده في الأرض لإطعام أبنائها. وحينما اعترضها أحد الجنود بادرته قائلة " روح من هون " فنهرها قائلاً " ليست لك أية أرض هنا"، ولم تعبأ به وواصلت سيرها غير أن فوهة بندقيته ارتفعت لتلامس صدرها.

وحينما كان الاتحاد السوفيتي قوة عظمى كان أبي يردد دائما أن هذه الأراضي ستعود فيما بعد، وكان يحدثنا دائما عن الطائرات والدبابات والسفن والغواصات الروسية، وكان يقول دائما " إن الروس شديدو الاختلاف عن الأمريكان الذين يخلعون ملابسهم في الأفلام. إن

الجنود الروس مدربون جيدا، ولن يتخلوا عن موقفهم قط"، وحدثنا عن أن قائدا روسيا ضرب ذات مرة طاولة الأمم المتحدة بحذائه، وهدد الولايات المتحدة وإسرائيل.

وأجبرنا والدي على مشاهدة الألعاب الأوليمبية وتشجيع الروس، وكان أبي يقول أن ما يحدث في هذه الدورات هو ذات ما يحدث في الحرب، وأن من ينتصر في الرياضة هو الذي يتفوق فيما بعد بالطائرات. وكان الروس يتفوقون دائما، ولم يكن يخالجنا أى شك في أنهم هم المنتصرون. لقد كان للبشر في تلك الأيام أمل. . وأطلق بعض أهالي القرية مسميات روسية واشتراكية على أبنائهم، فسمى أحد الأهالي بنته " فالنتينا"، كما سمى أحد الأشخاص في قرية قلنسوه ولده كاسترو، ولازال يعرف حتى الآن باسم أبو كاسترو.

ومع مضى الوقت تحول حلم والدي إلى عبث ولكنه ظل يشجع فرق كرة القدم التي ترتدي اللباس الأحمر، وتوقف عن متابعة الألعاب الأوليمبية، وحل اليأس محل الأمل، كما أن كتب ماركس ولينين وضعت على الأرفف العليا من المكتبة وحلت محلها كتب إسرائيلية بالعبرية والعربية.

ولازال أبي يقول " إن الأرض مثل العرض، وأن من يبيع أرضه كمن يبيع عرضه، وأنه لو كان يحق لجدتي الحصول على مائة وخمسين ألف دولار في مقابل ما تملكه من أراض إلا أنه حذار من بيع الأرض ".

ويتفهم أبي السياسة، فيشاهد نشرات الأخبار، ويقرأ الصحف بدقة بالغة، بل ويسمع المذياع دائما الذي لا يتوقف عن البث حتى وهو نائم. ويبدو أبي الآن مهموما للغاية، ويتفهم الآن أن الوضع لن يصبح أفضل عما هو عليه الآن، وأن الأمور ستدوم على هذا النحو حتى يتم أخذ ما تبقى من الأرض. ويوجه حديثه إلينا قائلاً: "ستفرون من هنا

بالطبع، ولن يبقى أحد منكم للـدفاع عـن الأرض. أتريـدون أن تصـبحوا لاجئين. انظروا إلى ما حدث لمن فروا. من الأفضل ألا تموتـوا وألا تهربـوا، ولكنكم لا تفهمون قيمة الأرض؟"

الجزء الثاني
ضربة في الرأس

1- الطفل المزعج في القرية

يروى والداي أني كنت من أكثر الأطفال إزعاجا في القرية حتى تلك اللحظة التي قفزت فيها من على السور وكسرت رأسي، وقد اهتم والداي للغاية بمستقبلي، وحاولا أن يبذلا كل ما في وسعهما لتعليمي، غير أن جهودهما لم تجد البتة. وكان والداي مهمومين بي، وخلقت إزعاجا لا مثيل له ليس لهما فقط وإنما لكل الحي بل ولكل أقارب الأسرة.

ويقول أبي إن الجميع كان يكرهني حقا، بل ويبغض رؤيتي، فلم يكن يجرؤ طفل على السير بمفرده في الشارع أمام بيتنا، ويقول إن بعض الجيران كانوا يقدمون بسببي شكاوى للشرطة إلى الدرجة التي جالت

فيها بخاطره فكرة إيداعي مؤسسة متخصصة في علاج الأطفال المشاغبين. وكنت آنذاك طفلا صغيرا للغاية فلم أكن حتى ذهبت إلى روضة للأطفال.

ويتذكر والداي في بعض الأحيان الشغب الذي كنت أسببه، ويضحكان، ويحكيان كيف كنت استيقظ قبل الجميع وأقفز عبر النوافذ إلى الخارج، وأذهب إلى المدرسة الواقعة جوار البيت بحثا عن زجاجات الحشاشين، وكنت أركض فيما بعد بحثا عن السيارات التي أحرقها اللصوص في الليل، وكنت أعود إلى البيت حاملا لوحات السيارات المتفحمة.

ويذكر أبي أنه ووالدتي كانا واثقين حتى قبل أن ابلغ الرابعة من عمري أني سأصبح لصا للسيارات أو مدمنا للمخدرات. ويروى أبي أن اللصوص في الطيرة كانوا يسرقون في الأعياد السيارات الفارهة، وأني كنت اهرب من البيت وانتظرهم عند مدخل القرية مع الحشاشين والأطفال الأشرار وأصفق لهم. ويقول أبي إن الأعياد كانت كابوسا حقيقيا له لأنه كان يلاحقني فيها في الطرقات.

وتقص أمي أنها كانت تتوجه كل سبت لزيارة والديها، وأنها كانت تضطر لربطي بحبل طويل حتى لا أهرب منها، وتقول إنها كانت تضطر للقيام بهذا الأمر لان عدم القيام به كان يعني هروبي منها، والجري وراء القطط وقلب سلال القمامة، والطرق على أبواب كل القرية بحثا عني. وتقول إن أبي اضطر بسببي لبيع نصف دونم وشراء سيارة. وكانت السيارات باهظة الثمن في تلك السنوات، غير أنه لم يكن أمامهما خيار آخر، فكانا في حاجة للبحث عن وسيلة طبيعية لنقلي لطبيب الأطفال في كفر سبا. وتقول أمي إنه لم يكن بمقدورها اصطحابي في أية حافلة،

وأنها بكت ذات مرة بعد أن أوقف السائق الحافلة ليأمرها بالنزول منها بسبب الضجيج الذي قمت به.

ويمتلئ جسم أخي بالجروح، ويشير والداي إلى جرح في بطنه ويقولان "إني حاولت في صباي أن أجري له جراحه في البطن"، ويتحدثان أيضا عن الجروح الكثيرة برجليه، ويحكيان أني حاولت أن أبدل رجله اليسرى باليمنى.

ويروى والداي أني حطمت ثلاث تليفزيونات جديدة وأني كنت أحطم كل أسبوع الأطباق، واني كسرت أقفال دواليب المطبخ، واني وضعت الرمال في مقعد المرحاض، وذبحت دجاج الجيران، وضعت النمل في عيون أبناء عمي، وأحرقت نصف بستان المانجو. وكان لي مخزن مليء بآلات المنجنيق، كنت استخدمها في إطلاق المسامير على السيارات أو المارة بالشارع.

ولم يذهب أبي إلى حفلات زفاف أقاربي بسببي، ولم ينم والداى إلا بصعوبة بالغة خلال طفولتي فلم يكن يغمض لهما جفن من فرط الخوف مما قد أقوم به خلال المساء، وكان الجميع مشفقا عليهما، فقد كان من الواضح أن الأمور لا تسير على ما يرام.

ولم أكن أخشى شيئا في طفولتي، فلم أخش الصغار أو الكبار، ولم أخف الأسوار العالية أو الثعابين، وحينما كانوا يضربوني كنت أتظاهر بالبكاء وأطلب العفو مدعيا أنها المرة الأخيرة التي أخرق فيها النظام غير أنه سرعان ما كانت تحل كارثة أخرى في غضون دقيقتين. وكانت مشكلتي الحقيقية أنني كنت أجيد تمثيل دور المسكين، فكنت أتلوى من الألم وأتظاهر بأني احتضر حتى يصفحوا عني.

وحاول والداي كل شيء معي فجربوا الرحمة والقسوة بلا جدوى، وحينما كان يشتد غيظهما في بعض الأحيان كانا يضرباني فيضربوني بالحزام وبالعصى وبالأيدي على المؤخرة وظهري والقدمين بل ولجآ إلى الأطباء والمسكنات والمشايخ والعرافات غير أنه لم يجد شيء معي سوى الضرب. ولا أذكر شيئا من كل ما يذكرون.

وحدث ذات مرة أن جارتنا عائشة بعد أن طلقت من زوجها أبو إبراهيم أحضرت كل أغراضها من بيتها لفناء منزلنا، فأحضرت سريرها ومفارشها ووسائدها وملابسها، وجلست في انتظار الشاحنة لنقل كل الأغراض. وكانت توجد كومة ضخمة من الأغراض التي رأيت أن جميعها تسم بقدر كبير من المرونة والليونة، فصعدت على الأحجار التي كنت قد أحضرتها من احد مواقع البناء، وأمسكت بمواسير الدش، وصعدت على السور محاولا القفز على كومة الأسرة والملابس التي أحضرتها عائشة غير أني أخطأت الهدف فأصبت إصابة جسيمة في رأسي. وتصور الجميع أني لقيت حتفي فحملني أبي الذي تلوث قميصه بالدم مع أبو يكن من المحل المجاور إلى المستشفى. . وظن كل من رآني مسجى على الحجارة والدماء تتدفق مني أني لن أنهض مرة أخرى، غير أني تمكنت خلال يومين من السير على قدمي.

ويقول والداي إني لا أذكر شيئا عن الضرب الذي تعرضت له قبل هذا الحادث، ويقولون إن الحادث الذي تعرضت له كسر الجمجمة ولكن المخ لم يتعرض لاى أذى. وكان من حسن الطالع أن رأسي صلب كالحجر، فبالرغم من أني فقدت الوعي لمدة يومين إلا أني أصبحت إنسان آخر بعد أن استرددت وعيي. فأصبحت طفلا رائعا ومهذبا وهادئا وحكيما. وحينما رجعت من المستشفى في المساء ارتديت

بيجامتي، وغسلت أسناني، وفي السادسة مساء قبلت والداي، وذكرت لهما تصبحون على خير.

2- اليوم الذي رأيت فيه اليهود عن قرب للمرة الأولى

حينما رأيت اليهود عن قرب للمرة الأولى تبولت في سروالي، فغضبت أمي غضبا شديدا إذ كانت قد طلبت مني الحفاظ على نظافة الملابس. وكانت قد ألبستنا في الصباح ملابس جميلة ونظيفة لأنها كانت تعلم أنه لن يكون لها متسع من الوقت في المساء عند عودتها من العمل أن تطهي لنا قبل مجيء الضيوف. ولذلك ألبستني ملابس جميلة وأرسلتني إلى روضة الأطفال.

وقررت مربيات الأطفال في ذات اليوم اصطحابنا إلى ملعب كرة القدم مكتفيات بتناول المكسرات، وقضاء الوقت في الثرثرة. أما الأطفال فانهمكوا في الجري في كافة أنحاء الملعب، وقذف الكرة. واكتفت البنات في المقابل باللعب في الرمل وقذف أكياس الرمل والحجارة على بعضهن البعض. أما المدرسات فانهمكن في تناول المكسرات غير أنهن كن ينهرن في بعض الأحيان الأطفال.

وكنت أعلم أنه لا يحق لي اللعب أو أن تتسخ ملابسي في هذا اليوم بالذات، وكنت مرتديا أوفرولا أزرق ومن تحته قميص أبيض، وكنت أعرف أن الأبيض سرعان ما يتسخ، ولهذا حرصت على أن أحافظ على نظافته وإلا لن يدعونني أرى اليهود القادمين من الجهة التي عمل بها أبي.

وأحسست فجأة أني أريد أن أتبول، ولكن لم يكن من الممكن البتة أن أنزل السروال بجانب مدرسة روضة الأطفال وبجانب الأطفال، وكنت

قد رأيت باقي الأطفال ينزلون سراويلهم لقضاء الحاجة، ولكني لم استطع. وتماسكت بعض الشيء، وبدأ الألم يتسرب رويدا لي، فبدأت أبكي من شدة الألم، وتبولت في سروالي. ولم أستطع بالطبع أن اخفي ما حدث، وشاهد الجميع ما حدث لي.

وضحك أحد الأطفال، وجرى إلى المدرسة وأسر لها ما حدث، غير أنها لم تضربني فكانت دائما رحيمة بي. وبكيت بشدة وصرخت ودعكت عيناي بيدي ولازلت أشعر حتى اليوم بطعم الدموع التي سالت على خدي، وبمدى الاضطراب الذي أحسست به لحظتها خلال السير.

وسحبتني احدي العاملات في روضة الأطفال بيدها إلى مبنى المدرسة، وكانت يدها على أقصى استقامتها فكانت تريد أن تبعدني قدر الإمكان عنها، وارتسمت على ملامحها كل علامات الغضب والاشمئزاز، ووبختني قائلة :"عليك أن تخجل من نفسك فأنت الآن طفل كبير". وكانت ذراعي تؤلمني غير أنها قادتني مباشرة إلى فصل الصف الأول الذي كان يدرس به أخي الأكبر. وحينما وصلنا إلى هناك أخرجته من الفصل، وسمعها كل التلاميذ وهى تقول إنه يتعين عليه أن يصحبني إلى البيت بعد أن تبولت في سروالي.

وعلت صرخاتي، وأخذني أخي بيديه وجذبني وراءه، وكان سعيدا بالفعل لخروجه مبكرا من المدرسة، وأخذ يتضاحك على، ويقول" سيراك اليهود الذين يعملون مع والدك في الشغل، وستقتلك أمك"

ولا اذكر إذا ما كنت رأيت اليهود في هذا اليوم أم لا، ولكني لا أظن أن والدتي ضربتني، واذكر أنها تمالكت نفسها. واذكر أنه بعد أن خرج من كانوا بالبيت فتحت الهدية التي كانوا احضروها، ووجدت بها علبة حلويات، واذكر أنها قالت: "هذا ما أحضروه بعد أن استعددنا طيلة أسبوع لاستقبالهم".

وبعد ذلك بخمس سنوات وحينما أصبحت في الصف الرابع دخل إلينا مدرس اللغة العبرية مع شخص أجنبي أشقر الشعر طويل القامة ووسيم ليس مثلنا. وترجم لنا المدرس ما قاله هذا الأجنبي بالعبرية وقال إنه من منظمة "نيتساني شالوم"، وأننا أصبحنا الآن في هذه المنظمة، وأننا سنلتقي باليهود، وأنهم سيأتون إلينا، وسنذهب إليهم.

وسعدنا، فالالتقاء باليهود يعني التحرر من الدراسة فضلا عن أن المدرسين عند لقائنا بهم يتصرفون على نحو آخر البتة فلا يضربوننا كما أنهم يبتسمون طيلة الوقت. ولليهود عدد أكبر من المدرسات في حين أنه ليس لنا سوى مدرسة واحدة طاعنة في السن. ويأتينا اليهود من كفر سابا.

وأخبرنا مدرس العبرية أنه سيكون لكل تلميذ عربي صديقا يهوديا غير أنه نظراً لأن عدد تلاميذ فصلنا كان أكبر من عدد اليهود فقد تقرر أن يكون لكل تلميذين عربيين صديقا يهودياً. وكان نصيبي من اليهود تلميذ اسمه "ناداف ابشتاين"، وكان من الضروري أن نأخذهم إلى المنزل.

وعرفت كل القرية أن اليهود قادمون، وحصل كل التلاميذ على خطاب يطلب من أولياء أمورهم الاستعداد للزيارة وألا يقوموا بأي شيء من شأنه أن يخجل اليهود، وأن يتركوا انطباعا طيبا، فأخذت أمي اجازة من عملها حتى تتفرغ لإعداد الطعام وترتيب المنزل، وكان لها درسان في نفس اليوم، فحرصت على أن توفر مدرسة بديلة. وفي يوم الزيارة خرجت النسوة والأطفال بمن فيهم من لم يلتحقوا بعد بالمدرسة إلى الخارج لاستقبال اليهود. وأعدت أمي يومها صينية مقلوبة، وملوخية ودجاج وسلطة. ورتبت والدتي الطاولة، واشترت قنينة وضعت بها زهور بلاستك، وارتدت ثيابا جميلة.

وكان ناداف على ما يرام، ولم أعرف كثيرا من العبرية غير أنه كان على ما يرام. ولم أفهم لماذا يطلق على الخبز الذي نتناوله لفظة "بيتاه"، هذه اللفظة التي تعني عند قولها في الطيرة شطائر الخبز.

وسافرنا بعد أسبوعين إليهم في كفر سابا، وكانت مدرستهم تبدو مختلفة كلية، فكانت لديهم مكبرات للصوت في الفناء، كما كانوا يسمعون الموسيقى في فترات الراحة، بل ورأيت هناك ولدا يسير مع فتاة وهم متشابكو الأيدي. وانتظرت أن يندفع أحد المدرسين لمعاقبتهما. وحينما بحثت عن ناداف، أدركت أنه قد وقع خطأ إداري في المدرسة جعلهم يرسلون إلى الطيرة ذات الصف الذي سبق له زيارتها.

ووزعونا مرة أخرى بنفس الطريقة ليكون اليهود والعرب معا، وحصل كل تلميذ يهودي على تلميذ عربي. وقدموني إلى تلميذ يهودي جديد، ولم أساله حتى عن اسمه. وسرعان ما فهمت أن اليهود لن يأخذونا إلى بيوتهم، وأنهم اكتفوا بإعداد مأدبة طعام في المدرسة، وضعوا عليها الخبز، وبعض علب الشوكولاته والمربي.

ولم أتناول الطعام، وأحسست بالإهانة فلم أتفهم كيف يعطونني صديق جديد في الوقت الذي لم أتمكن فيه بعد من نطق اسم "ابشتاين". وانتحى الطلاب العرب جانباً، ووقف اليهود بمفردهم، وبدأت في البكاء، غير أني قررت أن أتماسك، وغضبت من نفسي لاهتمامي إلى هذا الحد بابشتاين، وكأنني فهمت ما ذكره عند لقائي به، وبالتأكيد فإنه لا يهتم إلى هذه الدرجة بما حدث. ولم يتوقف مدرسونا عن التحدث همساً فيما بينهم عن الأكل، فقد كانوا يتصورون أن اليهود سيأخذوننا إلى منازلهم، غير أنهم أدركوا أن الأمر لن يتعدى حدود ما قاموا به من ارتداء ملابس أنيقة.

وفجأة أتى مدير مدرستنا مندفعاً نحوى وهو يتصبب عرقا محاولاً أن يسرح ما تبقى من شعر رأسه، وأمرني بالسير معه قائلاً سأعيدك إلى المدرسة. وكان منفعلا للغاية غير أنه لم يضربني، ولم أتفهم كيف أتى من القرية خصيصا ليصطحبني، ولم أتخيل قط أني سأسافر مع مدير المدرسة في سيارته. وحدثني المدير أن ناداف ابشتاين لم يتوقف عن البكاء بسبب الخطأ الذي حدث في الفصول، وانه لم يوافق على السير مع أحد سواى. وقال المدير أن ناداف كان يصرخ كطفل صغير يعاني من مشكلة حادة. واخبرني المدير أنه من الضروري أن أعمل على تهدئته، وأنه قد فكر في إعادته إلى البيت غير أن مساعده أخبره انه ليس من اللائق إعادة طفل يهودي وهو يبكي بهذا الشكل إلى منزله.

وسعدت للغاية، فقد سرت في ناداف نفس أحاسيسي، وأحبني هذا اليهودي بالفعل.

3- تفتيش

كان مدرس الجغرافيا مخيفا للغاية، وشديد القوة، فأمسك ذات مرة بأذني الطفل يعقوب وألقى به في الهواء صوب السبورة. ولم يقو يعقوب بالرغم من قوته الجسدية على شيء سوى أن حرك رجليه بحركات لا إرادية في الهواء. وعندئذ التزمنا الصمت وتجمدت أطرافنا، وفيما بعد تضاحك عدد من الأطفال على يعقوب.

أما مدرسة اللغة العربية فكانت لا تكف فور دخولها الفصل عن السير بين مقاعد الدراسة لمعرفة من أعد الواجبات المنزلية، وكانت نسبة من لم يقوموا بها كبيرة للغاية، فلم يكن لدى نصف الفصل دراية عن القراءة والكتابة. وكانت تحمل في يدها بالفصل مسطرة حديدية،

وكان من لا يعد الواجبات يتلقى ضربة بهذه المسطرة على رأسه، وينهض من كرسيه، ويقف ووجهه صوب الحائط.

وحينما كانت تنتهي من التفتيش كان يصطف المذنبون أمامها في صف واحد دون أى شكوى أو تذمر، ولم يجرؤ أى منهم على الخروج من الصف حيث كان يعلم الجميع أن كل من سيبعد يده عن العصا سينال حصة مضاعفة من الضرب. وكان الجميع يطأطئ رأسه ويغمض عينيه ويمد يده قدر استطاعته. ولم يكن من المسموح أن تكون اليد بجوار الجسد لأن المدرسة لم تكن ترغب بالطبع في الاقتراب من القمل الذي يملأ ملابس الأطفال العفنة. وكانت مدرسة اللغة العربية تمسك بالعصا، وتضرب على ظهر كف اليد بكل قوة.

وكان كل المدرسين يضربوننا بالفعل ضربا شديدا، وكان بعضهم يسير في الفصل ممسكا في يده بأنبوب للرى، وكان بعضهم الآخر يمسك عصا خيزران طويل ورفيع. وكان يوجد في غرفة المدرسين سوط، وكان من يشرفون منهم على فناء المدرسة يحملون في أياديهم السوط، وأذكر أن مدرس الطبيعة ضربني ذات مرة بالسوط حينما تبولت. واذكر أنه دخل دورة المياه التي كانت شديدة القذارة مثلما كانت عليه دائما، وضرب كل من كان بها، وسب الجميع قائلا: " بهائم خنازير".

وكان نصيبي من الضرب أقل من الجميع وحتى أقل من البنات، فكنت أعد دروسي دائما، كما أني لم أتسبب قط في أية ضوضاء في الفصل، ولم أتحدث مع أحد. وكنت أجلس خلال فترة الفسحة واضعا يدي على المائدة. واتبع المدرسون طريقة العقاب الجمعي مع التلاميذ، فحينما كانت تحدث ضوضاء شديدة بالفصل خلال فترات الفسحة كان يتعرض للعقاب كل من بالفصل. ولم يستثن من هذا الوضع سوى أطفال المدرسين العاملين بالمدرسة، فكان يتم إعفاءهم من العقاب.

وكان التفتيش مرعبا للغاية، فكان دخول الممرضة في منتصف الدرس يعني قيام كل منا بإخراج منديله من القماش ووضعه على المائدة، ويضع كفيه عليه. وكان عدم وجود المنديل يعني التعرض للضرب، وكان الضرب أيضاً من نصيب كل من تلاحظ الممرضة أن منديله ليس نظيفا أو أن أظافره أطول مما ينبغي. وكنت أحمل معي دائما منديلين، كنت أخرج أحدهما من أجل التفتيش وكان شديد النقاء بالفعل. أما الآخر فكان لاستخدامي الشخصي.

وكانت الممرضة تخرج على نحو عشوائي من الفصل بضعة تلاميذ، وتبحث في شعرهم عن القمل بواسطة عصا صغيرة. وكانت دائما ما تجده في شعر التلاميذ، فكانت تصرخ وتضرب، وكان مدرس الفصل يعاونها في الضرب. وكانا يكتبان على بطاقات خاصة "يوجد لي قمل"، ويلصقانها على جبهات من تم فحصهم، ويتم إرسالهم إلى البيت. وكانت الممرضة تعلل ما تفعله بقولها "حتى ترى والدتك ماذا تخرج من البيت". ولم تجد الممرضة قملا في رأسي قط.

وكان كل من بالمدرسة يضرب التلاميذ بمن فيهم الخادم الذي دخل ذات مرة إلى الفصل وأخرج منه ثلاثة تلاميذ قام اثنان منهم بسحب كيس القمامة الأسود. أما الثالث فتم تكليفه بجمع ما تبقى من الساندويتشات، والأوراق والعلب الصغيرة من أرض الفناء. وكان الخادم يضرب التلاميذ في حالة إذا ما شعر أن الفناء غير نظيف. وتعرضت ذات مرة للضرب بعد أن أوشى أحد التلاميذ للخادم بأني لم أجمع القمامة، فصفعني صفعة واحدة فقط رغم أنه كان يعرف أبي بحكم الجيرة.

وضربني مدرس الموسيقى ذات مرة ضربتين بالعصا على ظهر كف يدي بعد أن تبين له أني لم أعرف اسم الأغنية التي عزفها على العود، وتلقيت مرة أخرى عدة ضربات لأن سلة القمامة في الفصل لم تكن نظيفة كما ينبغي في الوقت الذي كنت مسئولا فيه عن نظافتها.

وتلقيت مرة أخرى ضربة بالسوط من نائب مدير المدرسة لأني تخوفت من الصعود على سقف المدرسة يوم الاستقلال لرفع العلم فوق غرفة المدرسين. ولم أقم بذلك لأنه لم تكن هناك سلالم للصعود على السلم.

وكان مدرس الزراعة هو الوحيد الذي لم يضربني، وكان إنسانا مهذبا، وتوفي منذ فترة قليلة اثر أزمة قلبية داهمته، وكان هو المدرس الوحيد الذي كان يأتي إلى المدرسة مرتديا حلة ورابطة عنق، كما أنه كان المدرس الوحيد الذي كان يأتي للمدرسة بسيارته السوبارو الزرقاء التي كان يقف بها بعيدا عن جرارات المدرسين الذين كانوا يتوجهون فور انتهاء الدراسة إلى حقول التوت. وفي دروس الزراعة كنا ننظف سيارة المدرس الذي أحببناه. وحينما كنا ننتهي من تنظيف سيارته كان يلقي إلينا بالكرة في الفناء وسرعان ما كنا نتقاذفها.

4- شفاء صديقي الوحيد بالطيرة

نقل صديقي الوحيد بالصف الثامن بالمدرسة بالطيرة إلى المستشفى ، وكان هو الطفل الوحيد الذي رحب بالجلوس جواري في الدروس دون أن يجبره المدرس على الجلوس بجانبي.

ولم يأت ذات يوم إلى المدرسة، فطرقت باب منزله عند عودتي من المدرسة ولم يجبني أحد، وعلمت فيما بعد من عمه الذي كان يعمل في محل بقاله بالحي أنه مريض وأن والداه نقلاه إلى المستشفى في منطقة "رماتايم". وحينما أخبرت والداي ارتدوا أجمل ثيابهم، واشترت أمي لفافة "طعمي"، ولفتها جيدا مثلما يغلفون الهدايا، وتوجهنا لزيارته.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتوجه فيها إلى رماتايم، وأشاهد فيها مستشفى نظيف بهذا الحجم لا تنفتح بوابتها إلا بعد أن يدخل الأطباء فيها بطاقة ذات رقم سري. وقد ارتسمت على ملامح والدي

القلق والعصبية، ولم يتبدد هذا القلق إلا بعد أن قال والدي لوالـدتي إن المشكلة بحق تكمن في أنه ليس لديهما سوى ولد واحد رغـما عـن تلـك المؤخرة الكبيرة المميزة لوالدته.

ولم يسمحوا لأحـد سـواي بالـدخول، وحيـنما شـاهدت صـديقي لم ألحظ شيئا غريبا عليه، وأحسست أنه طبيعي، غير أنـه قـال إنـه يشـعر في بعض الأحيان بالصداع وأنه يسمع أشـياء غريبـة وتجاهلـت مـا قالـه فكان يبدو طبيعيـا بـل إن حرارتـه لم تكـن مرتفعـه. وكـان يوجـد عـلى السرير المجاور طفل كان لا يتوقف عن رفع أحد الألعاب النارية. وكـان هذا الطفل أكبر منا، وحدثني صديقي أنه يلعب معه في بعض الأحيـان، وأنه يسميه " العراقي".

وقد اشترى والداه له لعبة "الأتاري"، وقد سمح لي باسـتخدامه، ولم يكن بمقدور والداي بالطبع أن يقتنيا لي لعبة باهظـة الـثمن عـلى هـذا النحو، ولهذا كنت أغار منه طـوال الوقـت. ولم يكـن يتنـاول الحلويـات رخيصة الثمن قط وإنما كان يتناول في طعامه كل ما هو فـاخر، كـما أن ملابسه كانت جميله للغاية، وكان يستخدم ساعة اوتوماتيكيـة. وحيـنما كانت أمي تلاحظ أني أغار منه كانت تقول لا تـنس أنـه وحيـد والديـه، وأنه ليس بوسعها أن تقتني لنا ما تقتنيه والدته له.

وكان صديقي هذا هو الصديق الوحيـد الـذي لم يـزعج أمـي عنـد مجيئه إلى منزلنا، وكانت دائما ما تقول إن سائر الأهالي يرسلون أطفالهم لنا للتخلص منهم، وكانت تطلب منـي عـدم إدخـالهم المنـزل، غـير أنهـا كانت تتعامل مع صديقي هذا بود بالغ، بل كانت تدعوه لتناول طعامه معنا، غير أنه كثيرا ما كان يرفض.

وعاود أبي حديثه مرددا أنه لا يفهم لماذا لا ينجبون طفلا آخر طالما أنهم ميسورو الحال وماذا سـيفعلون إذا مـا ألم مكـروه بولـدهم هـذا؟

وكان لوالد صديقي هذا جرار ضخم، مزود بمكيف في كابينة القيادة، وكان أبي يقول إنه يحرث كل حقول تل موند من الصباح حتى المساء، وأنه مستعد لأن يقبل أي عمل آخر. كما كانت لهم سيارة جديدة دائما ما كانت تقف أمام البيت ويغطونها بغطاء أبيض من القماش، ونادرا ما كانوا يستخدمونها، ولهذا كان أبي يعلق على سيارتهم بقوله إنها كما يبدو قطعة زينة وكان والده يستخدم الجرار فقط بل كان يستخدمه يومي الجمعة والسبت اللذان لا يعمل فيهما اليهود في حرث حقول الطيرة.

وفجأة وبينما كنت ألعب بلعبته جن صديقي فبدأ في الصراخ، وسرعان ما ظهرت الممرضات وأخرجوني من غرفته، وكبلوا صديقي في السرير، وكان هذا الأمر مخيفا بحق، فلم أر مثل هذا الأمر قط، وسألت والداي عما حدث، فاكتفيا بقول علينا العودة إلى البيت.

ولم نتحدث طوال الطريق إلى الطيرة، وقاد أبي سيارته بهدوء، وجلست أمي بجواه. وجلست في الخلف كالعادة. وفي تلك الفترة لم يكن والداى يسمحان لي بالنوم بجوار جدتي، غير أنهما في تلك الليلة غضا الطرف حينما شاهداني أتسلل إلى سريرها. وكانا قد حدثاها عما حدث في المستشفى فقالت "لم يكن من الواجب أن يأخذوك" واحتضنتني بشدة. وقال "لا تبك إن الله سيشفيه، وسيعود إلى المدرسة، وسترى. نم بهدوء يا ملاكي، ولا تخف".

5- البرلمان

كانت هذه الفترة فترة ازدهار بالفعل، وحينما كنت في عامي الأخير بالمدرسة الابتدائية مهدوا الطريق إلى الطيرة، ومدوا خطوط الهاتف إلى

القرية، بل إن فريق الطيرة وصل إلى الدوري الممتاز، وافتتحوا حماما للسباحة، بل واشتركت الطيبة في كابلات التلفزيون.

وأصبحت كل القرية متصلة بكابلات التلفاز، وكان أهالي القرية سعداء للغاية عند مشاهدتهم لمن يعرفون على التلفاز، وكانوا يشاهدونهم في الإعلانات التي كانت تبث بين الأفلام الهندية والمصرية.

وفي شهر رمضان من ذاك العام والذي حل في الصيف قررت شركات الكابلات تنظيم مسابقة كبرى ذات جوائز ضخمة يمكن لكل سكان القرية المشاركة فيها. وفي غضون يومين تحولت المسابقة إلى معركة حقيقية، فدخلت كل عائلات القرية في مسابقة حقيقية. وعقدت بعض العائلات جلسات عائلية على نحو شبه يومي لإحصاء عدد أبناء الأسرة الذين نجحوا في حل اللغز، والاستعداد لليوم التالي من المنافسة. وفي ذات الحين كانت الانتخابات تقترب ومن هنا احتدم الصراع بين مختلف العائلات. وكانت كل عائلة تأمل أن تقوي وضعها في الانتخابات عن طريق حل اللغز. وكانت عائلتنا من أقوى العائلات في القرية غير أنها كانت صغيرة للغاية، ولذلك كان أبي يعلم أنه ليست لديه أية فرصة لخوض الانتخابات. وحينما انتهت مسابقة حل اللغز عرف أبي حق المعرفة لمن سيصوت في الانتخابات.

ولم يتوان أبي عن متابعة بث حلقات المسابقة على كابلات التلفاز، التي كانت أسئلتها في البداية بسيطة للغاية كان منها متى ولد النبي محمد، وسرعان ما كان والدي يجيب على هذه الأسئلة. وكانت شفتاه تتحرك مع كل كلمة يقولها المذيع الذي يوجه المسابقة، غير أنه كان من الواضح أنه لا ينوي الاتصال بمعد البرنامج ومشاركة الحمقى في ألعابهم السخيفة، غير أن الحقيقة أن أبي لم يكن يثق في نفسه كليةً، وكان ينتظر دائما الاستماع إلى أن الإجابة التي ذكرها هي الإجابة الصحيحة.

وذات يوم قرروا في الكابلات تقديم أسئلة صعبة للغاية مثل تلك التي يقدمها المذيع الاسرائيلي حميتسر، وقد ازدادت صعوبة الأسئلة في منتصف شهر رمضان، وسيطر الصراع على حل الألغاز التي تقدمها الكابلات على كل القرية التي لم يخل مكان منها من الحديث عن اللغز وحله، وزعم بعض الأهالي أن المذيع يتلقى المكالمات فقط من أقارب أسرته، وطلبوا تشكيل لجنة قضائية تضم في عضويتها كل عائلات القرية حتى تشرف على المسابقة عند بثها مباشرة على الهواء.

وبث التلفاز ذات ليلة لغزاً صعباً للغاية وضعه والد المذيع الذي كان مديراً للمدرسة، وبادرت العائلات الضخمة بإرسال مندوبين عنها لمحطة الكابلات. وكان من بين هؤلاء المندوبين فتية أقوياء للغاية حتى يمكنهم متابعة الأمور عن كثب. وتزايدت قوة هذه التظاهرة التي كان الغرض منها استعراض القوة، وأخذ عدد مندوبي العائلات في التزايد حتى أصبح من الصعوبة بمكان مشاهدة المذيع وهو يوجه الأسئلة أو الاستماع إليه.

وحدثت خلال البث الحي عدة مشاجرات، بل كان كل بيت بالقرية يسمع في بعض الأحيان الألفاظ الجارحة والخارجة التي كانت تتردد. وحينما أدرك أصحاب الكابلات صعوبة البث قرروا بث المسابقة من أحد ملاعب كرة القدم، فكان أهالي القرية يتدافعون إلى الملعب فور الانتهاء من الصوم للمشاهدة غير أن البعض الآخر كان يكتفي بالجلوس في بيته لمشاهدة البث المباشر للمسابقة. وامتلأت الشوارع والطرقات بالأهالي الذين كانوا يسرعون دون أن يعطوا أنفسهم فرصة هضم طعام الإفطار في رمضان.

ولم يشارك والدي حتى ذلك الحين في المسابقة، مكتفيا بالتحدث دائماً عن أن مدير المدرسة كان رفيقه في الدراسة وأن مستواه الدراسي

كان شديد التواضع، وكان يستدل على ذلك بأنه درس في إحدى كليات إعداد المدرسين شديدة التواضع، وأن درجاته - أى درجات والدي - كانت أفضل منه بمراحل، وانه لو كان لديه المال اللازم للالتحاق بالجامعة لكان قد أصبح طبيبا.

وحينما سمع أبي أن مدير المدرسة هو الذي وضع السؤال الذي سيبث اليوم من أرض الملعب نهض واقفا وتقدم صوب التلفزيون بخطوات متثاقلة وأمر أهل البيت "أعطوني قلم" و "التزموا جميعا الصمت". وحينما أعاد المذيع السؤال كتب والدي السؤال على كف يده. وكان السؤال: "من بلاد العم سام وفي زرقة السماء ويجلب المشكلات. ومن الممكن أن يبدأ بحرفين، ويسكن به عبد الوهاب". وعندئذ بدأت الحرب. وبالرغم من أن عائلتنا كانت عائلة صغيرة إلا أنها كانت تضم عددا كبيرا من الحكماء والعلماء. ونقل والدي الكلمات من كف يده إلى أحد الدفاتر، وأخذ يبحث في مدلولات كل كلمة، وكان يسأل بين الحين والآخر "هل وجد أحد الحل"

" لا ياوالدي"

ومضى الوقت، غير أنه لم يتوصل أحد للحل، وبدأ أبي يفقد أعصابه، وقال إنه سؤال شرير، وأنه لا يستطيع أن يفكر مثل هؤلاء الأشرار، وتواصل البث على الكابلات حتى مجيء موعد الوجبة التي تسبق الصوم في حوالي الخامسة صباحا. وظل أبي مستيقظا مواصلا التفكير في حل اللغز. ولم يحل أحد اللغز وفي الغد أخذ الجميع يتحدث عن أن مدير المدرسة كتب لغزا لا حل له، وأنه فعل ذلك عمدا، وأنه فعل ذلك من أجل تقديم أسرته في انتخابات المجلس، وأنه يبذل كل ما في وسعه لإفشال سائر العائلات.

واتصل أبي في الصباح بمقر عمله في "قلمنيه"، وطلب إجازة حتى عيد الفطر أى حتى نهاية المسابقة، وجمع فيما بعد كل دوائر المعارف التي كانت لدينا في المنزل وبدأ في البحث عن حل للغز، وبدأ في البحث عن كل السياقات المكنة وغير الممكنة لكل كلمة وردت في اللغز، وانتشرت آنذاك شائعات في القرية عن توصل بعض الأفراد لحل للغز. وتلقى البرنامج عشرات المكالمات الهاتفية وعشرات الحلول غير أنه لم يعلن أحد الحل، وبدأ أبي في البحث عن مدلولات دينية للغز، وكان يتصور دائما أنه توصل إلى حل ما، ويصرخ معلنا أنه توصل لحل للغز ويطلب منا أن نخبره إذا ما اتصل شخص ما بالبرنامج وذكر ذات الحل.

ومضت بضعة أيام قام أبي خلالها بشطب كل الحلول التي كتبها والتي فكر فيها أو التي سمعها من بعض الأشخاص، وقرر أخيرا أن يبحث عن حلول أخرى. ولم تكن لديه أية ثقة في ذاته غير أنه قرر أخيرا الاتصال بمدير القناة التلفزيونية ليستفسر منه عما إذا كانت إجاباته صحيحة، وأنه مستعد للتنازل عن الجائزة حتى لو كانت إجابته صحيحة. وحينما عاد أبي من لقائه بمدير المحطة فهمنا جميعا أنه فشل في الحل.

وتبقى يومان على حلول العيد، ولم يتم بعد العثور على الحل، وبدأت العائلات الكبيرة في تقديم عروض كبيرة لمن سيفوز بالجائزة في أرض الملعب في عيد الفطر. وفي ذات مساء لم يخرج والدي من غرفته، غير أنه قبل بدء البث بلحظات غادر غرفته وعيناه مغرورقتان بالدموع وقال "نفدت سجائري، اقتني لي سجائر".

وفعلت ما أراد وأمعنت في طرق عودتي إلى المنزل النظر في علبة السجائر التي أحملها والتي كانت من نوع "برلمان" الذي كان أبي يحبه. وكان مكتوبا على ورقة الغلاف "امريكان بلو"، وكان يوجد فوق هذه

الكلمات الانجليزية رسم للسماء. وفجأة اتضح لي أنه يمكنني حل اللغز، فأخبرت أبي أن لفظة البرلمان هي الحل المناسب للغز.

وحدق أبي النظر في بعينين متسعتين، وأجلسني وجلس بجواري، وأحس أن الحل الذي قدمته هو الحل المناسب حيث إنه هو ومدير المدرسة يدخنان سجائر من نوع برلمان. وقلت له: "إن البرلمان سيجارة أمريكية وعلبتها في زرقة السماء، وأن السجائر لا تجلب سوى المشكلات، ومن الممكن كتابة لفظة البرلمان بالباء الثقيلة أو الخفيفة، والمقصود بلفظة عبد الوهاب الواردة في اللغز عبد الوهاب دراوشة عضو الكنيست أى عضو البرلمان".

وقفز أبي على التو إلى الهاتف، مديرا قرصه ليتصل بمدير القناة الذي شاهدناه في التلفاز جالسا على مقعد وثير أزرق بجوار مقدم البرنامج. وكان يقف خلفهما عدد من الفتوات المشرفين على تلقي المكالمات التليفونية. وكان خط الهاتف مشغولا، فبدأ أبي يدير قرص التليفون مرة بعد أخرى بعصبية شديدة. وخرج من البيت مندفعا إلى ملعب كرة القدم. وكان عليه أن يركض بكل قوة حتى يصل قبل أن يعلن المدير الإجابة.

وبعد مضى ساعة على خروج أبي رأيته على شاشة التلفاز وهو يحاول اقتحام صفوف الفتوات الذين يغلقون الطريق المؤدي إلى منصة البث التلفزيوني، وفيما بعد اقتربت الكاميرا منه وسمعت صوته وهو يصيح "وجدت الحل". وحينما سمعه مدير المدرسة نهض من مقعده وطلب من ابنه مساعدة أبي على الصعود إلى المنصة. وفي تلك اللحظة قال مدير المحطة إلى مدير المدرسة "أود أن يعلم كل أهالي القرية أنه لم ينجح أحد في حل اللغز"، غير أن مقدم البرنامج أشار في نفس اللحظة إلى أحد الفتوات إشارةً فهم منها إنه يتعين عليه مساعدة أبي على

الصـعود. وفــور صــعود أبي أمســك بــالميكروفون وتوجــه إلى مــديــر المـدرسـة قـائـلا : "الحل هو البرلمـان"، فقـام المـدير مـن مقعـده وأخـذ الميكروفون من والدي وقال: "لا حل دون توضيح".

وتوجه أبي نحو الكاميرا قائلا: "السـيجارة" برلمـان "مـن إنتـاج بـلاد العم سام والسجائر تجلب الأضرار والعلبة في زرقة السماء ومن الممكـن أن نكتب اسمها بالباء الثقيلة أو الخفيفة وعبد الوهاب الدراوشة عضـو برلمان". وضجت القاعة بالتصفيق الحاد فور سماع الإجابة، كـما أن ابـن المدير ظهرت عليه السعادة فور الاستماع إليهـا إذ لم يكـن احـد يعرفهـا سواه هو ووالده. وهنأ الولد والدي وقال له لقد فزت بخمسـة كيلـوات من اللحـم المفـروم. وظلـت القاعـة تصـفق سـعادةً بنجـاح ابـن الأسرة الصغير في حل اللغز. أما أبي فظل ممسكا بالميكروفون محـدقا النظـر في المدير المهزوم. وركزت الكاميرا على والدي حينما رفع الميكروفـون ثانيـة وقال بابتسامة المنتصرين " إنه ولدي. إن ولدي هو الذي حل اللغز".

6- الأيام الماضية

كانت هذه الأيام هى آخر أيامي بالصف التاسع، وكنت أنهض كـل صباح متوجها إلى المدرسة يغمرني الإحساس بالفخر بما فعلـت. . وكنـت أعلم أن من حولي ينظرون إلى مليا، ولكنني لم أعبأ بالنظر إلـيهم، بـل لم أهتم بأن أدر رأسي نحوهم. وحاولت دائما أن أبدو منصرفـا إلى ذاتي وأن أبدو كمن لا يشغله سوى التفكر في أمـر عميـق مثـل التفكـير في احـد أسئلة الفيزياء.

وكان كل من بالمدرسة ينظر إلى آنذاك عـلى نحـو مختلـف، فكنـت أدرس حتى ذلك الحين في أحد الفصـول الضـعيفة للغايـة، ولا غرابـة في

هذا الأمر فلم يكن لوالدي واسطة. ومع هذا كنت أنجب تلاميذ الفصل الذي كان نصف تلاميذه لا يعرفون القراءة والكتابة.

وبعد انقضاء عيد الفطر ببضعة أيام أتى مـدير المدرسـة بنفسـه إلى منزلنا، وصـافحني وطلـب التحـدث إلى والـدي. وحدثـه عـن أن اليهـود يعتزمون افتتاح مدرسـة جديـدة للتلاميـذ المميـزين، وأنهـم يرغبـون في اختبار التلاميذ العـرب. وواصـل المـدير حديثـه بقولـه إن قائمـة تلاميـذ الطيرة قد تم إرسالها بالفعـل ولكنـه نجـح في أن يقنـع اليهـود بـدعوتي للاختبارات خاصة بعد أن نجحت في حل ذلك اللغز المحـير. وقـال إنهـم لا يقبلـون إلا واحـدا مـن كـل ألـف وأن فرصـتي طيبـة في اجتيـاز الامتحانات، ويجب ألا نصاب بخيبة الأمل أو الإحبـاط إذا مـا رسـبت في الامتحانات خاصة أنها صعبة للغاية.

واكتظت قاعة الامتحانات في جيفعات رام بالقدس بالتلاميذ العرب الذين أقلتهم حافلة كاملة مـن الطـيرة. وحيـنما رأيـت الأهـالي الأثريـاء يقلون أبناءهم في سياراتهم أدركت أنه ليست لدى أية فرصة.

وبعد مضى أسبوع على الامتحانات تلقى كـل التلاميـذ في مدرسـتنا خطابات عرفوا من خلالها أنهم لم يجتازوا الامتحان. أما أنـا فلـم يرسـلوا لي اى خطاب، ففهمت أن أدائي في الاختبار كان مـن السـوء إلى الدرجـة التي جعلتهم لا يكلفوا أنفسهم عناء الرد.

وحينما سـمع أبي أن الجميـع تلقـى خطابـات الـرفض وأني لم أتلـق أى خطاب بدأ في البحث وبجنون عن هاتف الجهة التي أجـرت لنـا الامتحـان، وتحدث مع مدير المدرسة، ومع المشرف عـن منطقتنـا التعليميـة، ولكـن لم يستطع أحد أن يستدل عن هذه الجهة. وبعد أن استبد بوالدي اليـأس مـما جرى قال لقد خـدعونا ولا وجـود لمثـل هـذه المدرسـة، وأن دولـة إسرائيـل أرادت فقط التعرف على مستوى التعليم العربي.

وفيما بعد وفي أحد أيام الجمعة وبينما كنت أعمل مع والدي وإخواني الثلاثة في بستان الزيتون الواقع خلف البيت صاحت والدتي من شرفة المطبخ قائلة يوجد على الهاتف شخص يتحدث بالعبرية. وسرعان ما ترك أبي الزيتون وبدأ في الركض وعدوت خلفه. ودخل المنزل دون أن يخلع حذاءه فاتسخت السجادة. وحينما دخل احتضن التليفون بقوة، ورفع يديه إلى السماء صارخاً هكذا تمضي الأمور، ثم أخبرني "لقد قبلوك" واحتضنني بقوة.

وفي الغد وحينما وقفنا في طابور الصباح هنأني مدير المدرسة بالنجاح، وأجبر الجميع على مصافحتي. وهكذا عرف الجميع أني نجحت في الاختبار، فحدثتني نفسي أن ريم ستحبني بالتأكيد كما أحبها، وأنها ستعرف بالتأكيد خبر نجاحي. ولم يسبق لي أن حدثتها فكنت أراقبها فقط بعيني فكنت اعرف متى تنهي الدراسة وكم الوقت الذي تستغرقه للسير من الفصل حتى فناء المدرسة. وحاولت على مدى عامين أن أرافقها خلال سيرها فكنت أسير خلفها عن بعد حتى لا يلاحظني أحد. وبالتأكيد فقد سمعت الآن عني، فالجميع يتحدث عن خبر نجاحي. وربما ستأتي مع والديها للحفل الذي سينظمه والداي اللذان اشتريا لي أفخم الثياب. ولا شك أنها ستعجب بي. وقد فكرت في أن أحلق شاربي بعض الشيء ولكنني تخوفت من أن يصبح أسودا فيما بعد، كما أني فكرت في أن التلاميذ الأسوأ مني يحرصون على حلق شواربهم مبكرا.

وكان قد سبق لأهلي أن التقوا بأهلها في الباص الذي أقلهم إلى مصر التي زاروها معا، والتقطا فيها معا الكثير من الصور التذكارية. وكنت قد بدأت في البحث عنها بعد أن شاهدت صورتها بجوار الأهرامات. وكانت هذه الصورة صورة فاتنة فلازلت أذكر شعرها الأسود الطويل وعينيها

الواسعتين. وعلمت آنذاك اسمها وأنها في الصف الثامن. والتقيت بوالديها أكثر من مرة حينما كانا يأتيان لزيارتنا. وأحسست بعد النجاح في الاختبارات أنه قد حانت اللحظة المواتية التي يمكنني فيها أن أحدثها. فقد أصبحت ناضجا كما أنه قد حان موعد رحيلي عن هنا.

سأطلب منها أن تنتظرني عند مجيئها، فهي تعلم كم أحبها، وتعلم كم كنت أحرص على السير خلفها، سأعاهدها على أني سأفكر فيها دوما، وأني سأعود إليها بعد أن أنهي دراستي، وأننا سنتزوج وسنكون سعداء. ولاشك أنها ستوافق على انتظاري بعد أن تعلم ماذا فعلت من أجلها خلال العامين الماضيين، وبعد أن ترى صورتها بجوار الأهرامات في حقيبتي.

ومضيت خلفها مليئا بالنشوة والاعتزاز. ولن يجرؤ أحد منذ الآن فصاعداً على السخرية مني، ومن شاربي وحقيبتي، ومن سيفعل ذلك سيعلم الجميع أنه يفعل ذلك لإحساسه بالغيرة. أما ريم فقد أصبح البنطلون يلتصق بساقيها، وأصبحت أخفض النظر. هذا هو اليوم الأخير في الدراسة، وستعرف ذلك.

7- المانجو

قال أبي قبل أن يخرج لاستقبال الضيوف "اليوم أنت العريس"، وارتديت عند خروجي معه بنطلونا مكويا، وقميصا أبيض. وكان شعري لازال مبللا، وكان شاربي صغيرا. ووقفت معنا كل العمات وأطفالهن وعائلاتهن.

وأتى في البداية زملاء والدي من العمل، وصافحوني مهنئين بالنجاح، وأحضروا معهم هدايا كثيرة كانت معظمهم أقلام "باركر" بسيطة، وتمنوا

لي أن أصبح عالم فضاء، وقال بعض الضيوف إني سأكون أول من يصنع قنبلة نووية عربية. ثم أتى والدى ريم واحضرا معهما هدية وصافحوني. ولم تحضر معهم غير أن نفسي حدثتني أنها ستأتي بالضرورة.

وجلس الضيوف يحتسون القهوة ويتناولون قطع الكنافة والمانجو. أما أخواني فكانوا يلعبون في الفناء مع أولاد عمومتهم، وكانوا لا يكفون عن دعوتي لمشاركتهم ألعابهم غير أني كنت أعتذر دائما بأني لا أيد أن تتسخ ملابسي. واكتفيت بالجلوس على الجدار الفاصل بين البيت والشارع.

وكنت أغالب النوم طيلة جلوسي على الجدار، وحينما بدأ الضيوف في مغادرة المنزل انهمكت أمي في تنظيف الفناء، وبدأ أخواني في دخول البيت. وخرج أبي من المنزل وطلب مني أن أغلق الصنبور في بستان المانجو خلف البيت. وأجبته بأني أخاف من هذا المكان المظلم. وأصر أبي على طلبه وسرعان ما فقد أعصابه وصفعني على وجهي بقوة فبكيت وذهبت لأغلق الصنبور.

وحينما دخلت البيت كانت جدتي تصرخ في أبي، أما أمي فكانت منهمكة كعادتها في غسل الصحون، وتقول مرددةً بأنه يتعين على أن اطلب الصفح. ودخلت غرفتي فوجدت أخي نائما في السرير. ودخلت إلى الفراش بملابسي وغطيت وجهي باللحاف وبدأت دموعي في الانهمار.

ودخلت جدتي إلى غرفتي، وبدأت في التحدث بكلمات لم أتبينها، وحاولت رفع الغطاء عن رأسي غير أني لم أدعها تسحبه. وبدأت في توبيخ أبي قائلة : "إنك تقتل ولدك. هيا انظر. إنه يرتعد" .

ووضعت جدتي يدها على الغطاء وقالت وهى تغالب دموعها "حسنا إنك ستغادر هذا المكان. الحمد لله. انتهى كل شيء".

الجزء الثالث
أردت أن أكون يهوديا

1- أصعب أسبوع في حياتي

أبدو إسرائيليا أكثر من أي إسرائيلي، وأسعد دائما عند سماع مثل هذه العبارة من اليهود، وأسعد أيضا حينما يقولون "أنت لا تبدو عربياً البتة". وبينما يرى البعض أن هذه العبارة عنصرية بعض الشيء إلا أنني أسعد بها، فهي دليل على نجاحي، فلم أتمن إلا أن أكون يهوديا، فهذا ما سعيت إليه ونجحت فيه.

وحينما عرفوا ذات مرة أني عربي حرصت فيما بعد كل الحرص على تزييف هويتي حتى أصبحت خبيرا في إخفاء كل ما هو عربي بداخلي. وقد حدث هذا الأمر في نهاية الأسبوع الأول الذي قضيته في القدس للدراسة، فحينما خرجت من المدرسة الداخلية بالقدس إلى الطيرة صعد

جندي إسرائيلي إلى الحافلة وطلب مني النزول بعد أن اكتشف أني عربي، وما زلت أذكر تلك الدموع الغزيرة التي سالت لحظتها على وجنتي فلم أشعر قط بذلك القدر من الإذلال والهوان مثلما أحسست عند مغادرتي للحافلة.

وفي بعض الأحيان وقبل خلودي إلى النوم تهب على رائحة المدرسة الداخلية فتؤرق مضجعي ومازالت تلك الرائحة تطاردني، إنها رائحة عالم آخر من المباني، والأثاث والسجاد، وأناس لم أعرفهم قط. وكلما تذكرت تلك الرائحة أحسست بالضيق، إنها تعيدني إلى تلك السنوات الثلاثة التي قضيتها في المدرسة التي لم اعتد عليها قط. إن تلك الرائحة مازالت غريبة عني.

كان الأسبوع الأول الذي قضيته في المدرسة الداخلية هو أصعب أسبوع في حياتي بأكملها، فكان كل يوم بهذه المدرسة يأتي لي دائما بكل ما من شأنه أن يعكر صفو حياتي، ويدفعني للبكاء. كنت قد بكيت حينما ودعت جدتي التي حدثتني همساً وهى تطبع قبلة على وجهي "لا تتحدث في السياسة".

وبعد أن فارقتني أقلتني سيارة أبي إلى "أبنية الأمة" بالقدس، وحينما صعدت السيارة على الطرق الملتوية المؤدية بي إلى هناك سرت قشعريرة بجسدي، وأحسست بالخوف. لم أتمن لحظتها سوى أن يعود أبي بسلام إلى الطيرة فقد كان المطر يهطل بغزارة مما أعاق حركة مرور السيارات. تمنيت لحظتها ألا أصل إلى المدرسة وأن أعود إلى موطني.

حينما دخلت المدرسة وجدت أناسا يجلسون خلف الطاولات، يوزعون على كل طالب ورقة كرتونية مدوناً عليها اسمه، وأمرونا بتعليق هذه الورقة على صدورنا، غير أني تبينت فيما بعد أن اسمي لم يكتبوه على نحو سليم. وسلموا كلا منا مظروفا كان بداخله ورقة صغيرة تتضمن رقم الغرفة ولون المبني الذي سيقطنه. وأمضيت وقتا طويلا

للعثور على المبنى. وحينما وصلت إلى غرفتي وجدت أن رفاقي الثلاثة سبقوني في الوصول إليها تاركين لي السرير القريب من الباب، وبعيدا للغاية عن النافذة. وعند دخولي الغرفة اكتفوا جميعهم بإلقاء السلام علي، غير أن واحدا منهم أتى ليصافحني، وناداني باسمي المدون على ورقة الكرتون والذي لم أعبء حقا بإصلاحه.

لم أعرف خلال الأسبوع الأول كيف يمكنني التعامل مع الصينية في غرفة الطعام، أو استخدام أدوات المائدة، ولم أعرف أن اليهود يضعون الصلصة على الأرز بدلا من وضعها في طبق مستقل. وبكيت حينما تضاحك شركائي في الحجرة بعد أن عرفوا أني لا أعرف شيئا البتة عن فرقة "البيتلز" الموسيقية. وتضاحكوا حينما تبين لهم أني لا أعرف الفرق بين الباء الخفيفة والباء الثقيلة في اللغة العبرية. ولم يكفوا عن الضحك على كل ما لدي فضحكوا على البطاطين الحمراء التي اقتنتها أمي لي، وعلى بنطلوني، وتصورت في البداية أنهم يرغبون في معرفة من أين يمكنهم شراء مثل هذه البناطيل حينما سألوني "هل العرب يرتدون بناطيل خاصة بهم؟"

وبعد أحد دروس اللغة الانجليزية قال أحد التلاميذ إن نطقي للغة الانجليزية لا يختلف كثيرا عن نطق ياسر عرفات، وقال تلميذ آخر إني أشبه إلى حد كبير عازف القانون الكفيف الذي يظهر على القنوات العربية للتلفزيون الإسرائيلي. وفي الأسبوع الأول كان التلاميذ الإسرائيليون ينادونني أبو جميل العنزه"، هذه الشخصية التي تبدو دائما في القنوات التعليمية بالتلفزيون.

وتعرفت خلال الأسبوع الأول إلى عادل الذي كان في صف دراسي أعلي مني، وكنت قد رأيته في مطعم المدرسة، وسرعان ما تعرفت إليه. وكان يشارك البنات الجلوس على إحدى الموائد، وكان يأكل الدجاج بيديه. أحسست أني لا أرغب في أن أبدو مثله غير أن إحساسي بأنه عربي

عزز رغبتي في التعرف إليه. وفي غضون يومين انتقلت أنا وعادل للسكن معا. ولم أجد صعوبة في إقناع أحد شركائه بالغرفة في أن يغير مكانه.

كان عادل الذي أتى من أحد قرى الجليل الأعلى، الذي يبعد عن هنا أربع ساعات بالسيارة، يرى أن البطاطين التي أحضرتها جميلة. وكان هذا التلميذ من أبرز تلاميذ المدرسة خاصة بعد أن أعد التلفزيون الإسرائيلي فيلما وثائقيا عنه، أبرز فيه مهاراته في كرة القدم، بوصفه دليلاً على أنه يمكن لليهود والعرب التعايش معا. وكان عادل تلميذا نابغا، ولم يكن في حاجة لاستذكار دروسه كثيرا، وكان كثيرا ما يتحدث خلال الدروس دون أن تعلو وجهه حمرة الخجل.

أما أنا وخلال الأسبوع الأول الذي قضيته بالمدرسة فكان لزاماً على أن أقرأ الكثير من الدروس باللغة العبرية، وربما يفوق عدد الصفحات التي قرأتها بالعبرية خلال هذا الأسبوع كل ما كنت قرأته بالعبرية خلال دراستي في الطيرة. وكانت الدراسة في المدرسة صعبة للغاية فلم أتمكن من الإجابة حتى عن سؤال واحد من أسئلة اختبار الفيزياء الذي أجروه لنا في المدرسة خلال الأسبوع الأول. أما عادل فحصل على الدرجة النهائية في الاختبار.

كان هذا الأسبوع كافياً إذ اتضح لي بعده أني عائد لا محالة إلى الطيرة إلى الأبد، وحينما سأروي لوالداى التجارب التي مررت بها خلال الأسبوع الأول في المدرسة الداخلية فإنه لن يسمح لي قط بالعودة، وسيصدق هو والجميع أن هذا العالم شديد الاختلاف وأنه ليس من الممكن أن أعيش هناك. سأقص عليهم كيف لم أتمكن حتى من إخفاء نفسي خلال تناولهم لوجبة رأس السنة اليهودية ، وكيف أنني كنت أشعر بالعجز حينما كانوا يرددون أغاني لم أعرف منها ولو كلمة واحدة. وسأحكي لهم أنني كنت أبيت كل ليلة قبل أن أغفو في حالة من البكاء المستمر، وأنني كنت أفكر

فيهم طوال الوقت، وأني كنت أخاف أن يصيبهم مكروه. وكنت أخاف أن تموت جدتي وأن يتعرض والدي لحادث سيارة. وسأقص عليهم أنه يوجد بالمدرسة تلاميذ أشرار يضعون حلقان في آذانهم، وبنات يرتدين بنطلونات قصيرة. وسأقص عليهم أن هذا الأسبوع كان أصعب أسبوع في حياتي. نعم سيسمحون لي بالبقاء في البيت.

2- بولنسكي

حينما سافرت إلى البيت في عطلة رأس السنة اليهودية جمعت كل ما كنت قد أحضرته معي إلى المدرسة الداخلية، وصعدت الحافلة متجهاً إلى بيتي، وكانت هذه هي المرة الأولى التي استقل فيها حافلة إسرائيلية، ولولا أن التلاميذ الإسرائيليين سبقوني في الركوب ما كنت عرفت أن السائق هو الذي يحصل التذاكر.

وجلسنا أنا وعادل معا على أحد المقاعد، واخبرني عادل انه من الوارد أن تجلس بنات من المدرسة الداخلية أمامنا غير أن هذا لم يحدث، وجلس كل تلاميذ المدرسة الداخلية في مقدمة الحافلة، وتحدثوا بصوت عال.

كان الخوف يملؤني طيلة الرحلة، فكنت متخوفا من ألا أنجح في الوصول إلى البيت، وتخوفت من الضياع إذا فقدت المحطة. وكان أبي قد سجل في كراس صغير كل ما يتعين على القيام به، فسجل لي أنه يتعين على أن استقل الباص إلى المحطة المركزية وأن أنزل فيها مثل الجميع. وجاء بالكراس أيضا : "إن خط 947 يتوجه إلى حيفا، وأن النزول سيتم في محطة كفر سابا وأن أتوجه منها إلى مستشفى "مائير" التي تقف لديها سيارات أجرة تتجه إلى الطيرة". أما عادل فكان سيتوجه إلى قرية

نحاف التي يعد الطريق إليها مختلفا بالكامل حيث يستقل بعد الوصول إلى حيفا حافلة إلى الكرميئيل التي يجب التوقف فيها بضعة ساعات لحين مجيء الحافلة التي تمر بجوار القرية. وكان عادل قد أخبرني أنه سيتوجه إلى قريته سيرا على الأقدام من الكرميئيل خاصة أن قريته تبعد عنها نصف ساعة سيرا على الأقدام.

ولم يكن عادل راغبا في العودة إلى منزله، فكان حزينا لعودته بعد أسبوع واحد من المدرسة، وكان قد تحدث مع "بيني" مدير المدرسة عن رغبته في قضاء العيد بالمدرسة غير أنه أكد له أن هذا الأمر مستحيل، فدعوته لقضاء عطلة العيد في الطيرة واستجاب لدعوتي. وسعدت حقا لوجود شخص يمكنه مساعدتي في العثور على الطريق. أما هو فابتهج بالدعوة التي كانت تعني له توفير الوقت والمال، وسألني عما إذا كانت توجد في الطيرة جارات جميلات.

بعد أن غادرت الحافلة البوابة الخارجية للمدرسة الداخلية توقفت بضعة دقائق في محطة مدرسة "بولنسكي" الفنية. وكان تلاميذ هذه المدرسة مختلفين كلية عن تلاميذ مدرستنا الداخلية. أما أنا وعادل فكنا مختلفين كلية عن الجميع. وامتلأت الحافلة بعد توقفها في المحطة بتلاميذ اخذوا يتصارخون ويسبون بعضهم بعضا، كما اكتظت ببنات بأحذية سوداء وحلقان كبيرة، وكانت البنات يدخن في الحافلة.

وجلس أمامنا بالحافلة ثلاثة تلاميذ، ووقف بجوارهم تلميذان كانا يمسكان بالقضبان الحديدية المتدلية من سقف الحافلة. وأحسست بالاختناق من المكان فقلت لعادل "سأنزل من الحافلة في المحطة القادمة" غير أنه نهرني قائلا "لا تكن متخلفا فلن أدفع ثمن تذكرة أخرى حتى المحطة المركزية".

وأحسست بالأسف لدعوته، ولمعرفته ولسفري معه. وأحسست أننا سنواجه مشكله، وكثيرا ما تتحقق مخاوفي في غضون بضعة ثواني.

وبادر أحد التلاميذ الجالسين عادل بالسؤال من أين أنت، فأجابه من "نحف"، فتضاحك التلاميذ وتوجهوا إلى سائلين ومن أين أنت؟ فرسمت على وجهي ابتسامة عريضة محاولا أن أبدو إنسانا مهذبا للغاية وأحسست أنهم لن يفعلوا شيئاً البتة لي خاصة أني كنت فيما مضى في مدرسة "نيتسانى شالوم" التي تعرفت فيها على اليهود، ولهذا يجب أن يتركوني في هدوء، وأجبت "من الطيرة" فانفجروا في الضحك غير أني واصلت حديثي قائلا "إنها بالقرب من كفر سابا". وثبت على وجهي ابتسامتي رغم سخريتهم وضحكهم وهمست لعادل "هيا بنا ننزل من هذه الحافلة وسأدفع لك" غير أنه لم يوافق على عرضي. واتضح لي بالكامل أني لن أواصل رحلتي بالحافلة".

واصل التلاميذ الجالسون أمامنا تبادل الهمسات والضحكات، مرددين بسخرية أسماء قرانا وتحريفها. وكانوا يتضاحكون على أسمائنا ولم نفعل شيئا البتة. ولم يكن من الممكن بالطبع أن نشاركهم الضحك الهستيري، فالتزمت الصمت، وبدؤوا في ترديد أغنية يقولون فيها "محمد مات". وكانوا يتغنون بصوت عال، وسرعان ما انضم إليهم ركاب الحافلة. وكتمت الغيظ بداخلي، وقررت النزول تاركاً عادل للجحيم، فرفعت حقيبتي من الحافلة، وتمالكت نفسي، وكبحت الدمع.

وبعد أن هبطت من الحافلة قرر عادل النزول، ولم أره بالفعل إلا على السلم، وبعد ذلك فتح أحد التلاميذ نافذة الحافلة، وبصق علينا. وسرعان ما بدأ عادل في الصراخ قائلاً "لا يمكنني أن أثق بك، أتعلم أين نحن؟ وهل تعلم أية حافلة يمكننا الآن أن نستقلها، وكيف عرفت أننا لن نتعرض لنفس الأمر في الحافلة القادمة ؟".

كنت مستعدا لأي شيء بما فيه الموت، وكنت سعيدا حقا لتخلصنا مما تعرضنا إليه. وكان أبي قد أعطاني ما يكفينا من المال فسافرنا إلى المحطة المركزية بسيارة أجرة. وكنت سعيدا فقط لأن أطفال مدرسة بولنسكي لن يسافروا معنا في الحافلة إلى كفر سابا.

3- بن جوريون

لم يحدثني أبي قط عن بن جوريون، وكيف فاته هذا الأمر، وكم كرهته حقاً، فحينما توقفت الحافلة للمرة الأولى كنت واثقا أننا وصلنا بالفعل إلى كفر سابا، غير أني وجدت نفسي لدى احدي حواجز دخول المطار. وعندئذ صعد أحد الجنود إلى الحافلة وطلب مني ومن عادل النزول. وحينما نزلنا طلب منا إظهار بطاقات الهوية، فأخبره عادل أننا لم نبلغ السن القانونية لاستخراج بطاقة هوية غير أنه أجاب على باقي أسئلته المتعلقة بمحل الإقامة والوجهة التي نتوجه إليها، ومقر الدراسة.

أمرنا الجندي بفتح الحقائب، ودخلت الحافلة بدوننا إلى المطار، وأخذ في تفتيش الكتب والملاءات والملابس وأمرنا بالانتظار لحين عودة الحافلة من المطار.

قررت ألا أصعد الحافلة مرة أخرى، فلم أكن مستعدا لتحمل نظرات من فيها. لقد خارت قواي بالفعل. نعم لقد نجحت في تحمل ما تعرضت إليه مع شركائي بالحجرة وفي حجرة الطعام، ومع أطفال مدرسة "بولنسكي" غير أني لم استطع تحمل ما تعرضت إليه في الحافلة. لقد انكسرت. وبكيت بشدة كطفل صغير، وصرخت. وأحس الجندي بألمي قائلاً إن الجميع يتصرف على هذا النحو، وأحضر لي كوبا من الماء، وتساءل "لماذا كل هذا؟ "

ولم أشرب الماء، واتصلت بوالدي في البيت، وحدثته بصعوبة بالغة، فأخذ يهدئني رغم عصبيته الشديدة. وصرخت قائلاً: "خذني من هنا، وصرخت فيه أني لن أعود بمفردي. أني بالمطار". أما عادل فالتزم الصمت ولم ينبس ببنت شفة، غير أنه قال : كان يمكنني الوصول إلى نحف منذ فترة طويلة، وأنه حزين لمجيئه معي.

وجلست أبكي في انتظار أبي.

حينما وصل أبي ليأخذنا معه بادرني بالسؤال "ماذا حدث؟"، ولم أجبه، وجلست في مقدمة السيارة، وجلس عادل بالخلف. وكان وجهي منتفخاً من شدة البكاء، فحدثه عادل عن أن الجندي أنزلنا من الحافلة، وأني رفضت صعودها مرة أخرى. وعلق أبي قائلاً : "أتبكي لهذا ؟"، فقال عادل : "حدثته مليون مرة لكنه رفض الإنصات الي".

ولم أعلق البتة على حديثهما.

وواصل أبي وعادل الحديث عن المدرسة، والطعام الذي يقدمونه هناك وخاصة عما يسمونه "الوجبة الرابعة" التي لا تعدو عن كونها خليطا من الفطير والعصائر. وحدث عادل أبي عن أن وجبة الغداء تتضمن كثيرا من اللحوم، كما حدثه عن المكتبة، وملعب الكرة. وعلق أبي على هذا الفاصل من الحديث بأن ملايين الأطفال يتمنون أن يكونوا مكاني وقال: "أترغب في العودة إلى الطيرة، والدراسة مع حثالة التلاميذ، أهذا ما ترغب فيه؟ عُد إذن، ولكن لا تخبرني فيما بعد أنهم يقولون لك أنك طردت بعد مضى أسبوع واحد من الدراسة، أترغب في أن يقولوا لك أنك فشلت وأنك لم تتمكن من البقاء في مدرسة ممتازة، ألم تفكر كيف سينظرون إليك؟"

وواصلت دموعي انسيابها بعد أن أدركت أن أبي لن يدعني أبقى في البيت، وتفهمت أنه ليس أمامي أى خيار سوى العودة إلى المدرسة الداخلية.

انطلق أبي في توجيه حديثه لي قائلا : "انظر إلى عادل، ولماذا هو لا يبكي"، وتضاحك على وكنت واثقاً من أن والدي يدرك أنهم يأمرون العرب بالنزول في محطة المطار، خاصة أنه كان يسافر في ذات الحافلة إلى الجامعة. وحكي أبي : "لم ينزلوني قط من الحافلة فلم يعرفوا أني عربي، وحينما كان الجنود ينزلون عربيا من الحافلة كنت أنهض من مقعدي واصرخ فيهم "فلتنزلوني أيضا فأنا عربي"، وكنت أمسك بطاقة هويتي، وألوح بها باعتزاز، غير أنك طفل جبان. انظر إلى نفسك كيف يستطيع جندي أن يهينك على هذا النحو".

سافرت فيما بعد مئات المرات على نفس الخط غير أن الخوف كان يتملكني كل مرة من جديد، وكنت أتنفس الصعداء كلما كنا نتجاوز محطة المطار. ولم يتمكنوا فيما بعد من التعرف على هويتي العربية بالحافلة. وكنت أشعر في أعماقي بالشفقة كلما كنت أراهم ينزلون عربيا من حافلة، وكنت أشكر الرحمن في قلبي لأنهم لم يتعرفوا على.

حلقت شاربي في الأسبوع الثاني من التحاقي بالمدرسة الداخلية، وأخبرت عادل فيما بعد أنه يتعين علينا أن نتعلم نطق الباء الثقيلة كما ينطقها الإسرائيليون، ولكنه لم يبال كثيرا. وحينما أبلغت مدرس مقرر العهد القديم أني أود تعلم نطق الباء الثقيلة في العبرية نصحني بوضع ورقة أمام فمي، وقال "إذا تحركت الورقة فإن هذا يعني أنك تنطق الباء الثقيلة حق نطقها". وكان عادل يتضاحك كلما رآني أضع ورقة أمام فمي عند نطق الباء الثقيلة، وكان يعلق أنه لا يشعر بوجود أى فرق بين الباء الثقيلة والخفيفة، فكان يرى أنه لا خلاف بين الحرفين البتة.

واقتنيت خلال الأسبوع الثاني أيضا سروالاً من احدي المحال اليهودية، واقتنيت شرائط أغاني بالعبرية بل وسماعات لأضعها على أذني خلال سيري. ومنذ ذلك الحين اعتدت أن أصعد الحافلة حاملا معي

كتاب عبري، وكنت أحرص على وضع السماعات على أذني عند اقتراب الحافلة من محطة المطار. ولم يعترض طريقي بعد ذلك تلاميذ مدرسة "بولنسكي". أما عن علاقتي بعادل فظللنا أصدقاء لكنني لم أدعوه فيما بعد إلى منزلي.

4- بنطلون قصير

تعلمت في المدرسة الداخلية كيفية استخدام المسدسات الحقيقية، بل وتعلمت استخدام الرشاش، واستبدال خزنة الذخيرة، ووضع البندقية على الكتف مثل القناصة، وتعلمت أيضا إطلاق النار. وحينما كانت المدرسة تنظم بعض الرحلات كان المدرسون المرافقون لنا يحملون معهم السلاح غير أنني سرعان ما أصبحت مسئولا عن السلاح. ورغم ثقل السلاح إلا أنه أصبح مسئوليتي، وكنت أشعر بقدر كبير من الاعتزاز حينما كنت أحمل البندقية على كتفي.

كان مدرس التاريخ الذي كانت له بعض التوجهات اليسارية يعطيني في هذه الرحلات سلاحه، ويطلب مني السير بجواره، وحينما نبهه أحد الموجودين بخطورة ترك سلاحه أوضح له انه يتحمل مسئولية السلاح. غير أنه لم يسمح لي بحمل خزنة الذخيرة رغم أنه كان من الممكن الاعتماد علي بالكامل.

سرعان ما بدأت في الاندماج مع باقي التلاميذ، فأصبحت أجلس في الجزء الخلفي من الحافلة مع سائر التلاميذ مرددا نفس أغانيهم، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت أقود فريقا بالكامل من التلاميذ في الحافلة عند ترديد كثير من الأغاني التي أصبحت أعرف كلماتها عن ظهر قلب.

أما الأغاني التي كنا نرددها في رحلات المدرسة الابتدائية ونحن في الطيرة فلم تخرج كلماتها عن عبارات مثل "لا تخف من الجنود. نحن

أطفال فلسطين. فلسطين بلدنا واليهود كلابنا". وكنا نردد هذه الكلـمات دون أن نفهم كلمة منها. وسألنا مدرس التاريخ ذات مرة ونحـن أطفـال عما إذا كان أى منا يعلم شيئا عن فلسـطين، غـير أنـه لم يعـرف أحـد في الفصل شيئا عن هذه الكلمة، ولم أعرف أيضا، وخيم صـمت ثقيـل عـلى الفصـل ثـم عـاود السـؤال مـرة أخـرى قـائلاً هـل سـبق لأحـدكم رؤيـة فلسطيني، ولم يجب أحد سوى تلميذ اسمه محمد حيـث قـال ولخوفـه من الضرب إنه يذكر إنه بينما كان يسير مع والده في الظلام أشار والـده على شخصين وقال له إنهما فلسـطينيان. وفي ذلـك اليـوم ضرب المـدرس كل من بالفصل، وبـدأ في ضرب محمـد الـذي كـان بـدينا للغايـة، وكـان يضربنا بالمسطرة، ويصرخ "نحـن فلسـطينيون، وانـتم فلسـطينيون وأنـا فلسطيني، سأعلمكم يا بهائم من أنتم".

ومن الأشياء التي أذكرها عن المدرسة الداخلية أننا كنا نقوم بالكثير من الرحلات، وكثيرا ما كنا نقضي الليل في الخـارج، وكـان بعـض الطـلاب يعزف على الجيتار خلال هذه الرحلة، هـذه الآلـة التـي لم أعـرف عنهـا شيئا خلال إقامتي في الطيرة. وكنا نغنى أغاني فرقة البيتلز، هـذه الأغـاني التي أجبرت نفسي عـلى معرفتهـا بالكامـل. وفي البدايـة لم أحتمـل هـذه الموسيقى غير أني ارتبطت بها في خـلال بضـعة شـهور وأحببتهـا للغايـة. وحينما كنت أعود إلى بيتي في الطيرة كنت استاء من وقـع أغـاني فـيروز وعبد الحليم التي كان أخواني يتغنون بها. وحيـنما كـان أبي يصـحبني في سيارته إلى محطة الحافلات في كفر سابا كنت أطلب منه أن يدير مـؤشر الراديو على أى إذاعة عبرية أو أن يقلل مـن صـوت الموسـيقى العربيـة التي يبثها المذياع في سيارته. ولم أكن أشـعر بالخجـل مـن هـذه الأغـاني بقدر ما كنت أشعر أني لم أعد قادرا على سـماعها، وكنـت أقـول لوالـدي إن أذني لم تعد معتادة على هذه الألحان.

وحينما رجعت إلى المدرسة الداخلية قمنا برحلة إلى وادي "قلط"، حملت خلالها مدفعي الرشاش، وأخذت موقعي في الجماعة التي تتولى قيادة الرحلة، وفجأة سمعنا صوت دوى قوى قادم من بعيد، فرفع مشرف الرحلة يده وأمر الجميع بأخذ وضع الاستعداد، واندفع مدرس التاريخ نحوي وجذب البندقية بقوة من كتفي، فوقعت أرضا وجرح ذراعي. وسارع المدرس بوضع خزنة الذخيرة في الرشاش آخذا وضع الاستعداد. وفجأة تبين لنا أن هذا الضجيج صادر عن رحلة يقوم بها تلاميذ إحدى المدارس.

وكانت هذه الرحلة تضم تلاميذا من مدرستي القديمة بالطيرة، وسرعان ما عرفتهم وعرفوني غير أني لم أكن أعرف مدرسهم الذي طلب من تلاميذه الوقوف جانبا والسماح لنا بالمرور حيث كان الطريق ضيقا للغاية. وعند مرورنا جانبهم طأطأت رأسي وانشغلت عنهم بمداواة جرحي.

وناداني بعض تلاميذ الطيرة، غير أني تجاهلتهم، وكنت قد سمعتهم يؤكدون لبعضهم البعض أني من الطيرة، وحرصت على ان أمضي مسرعاً، وحينما سألني بعضهم عن حالي اكتفيت بالهمهمة وواصلت سيري. وحينما سألني أصدقائي بالمدرسة الداخلية عما إذا كنت أعرفهم أنكرت معرفتي بهم، وعندئذ قال أحد زملائي بالمدرسة "إنهم كانوا ينادونك باسمك"، فقلت إن هذا الاسم اسم شائع لدى العرب.

5- العربي يظل عربيا

يقول أبي دائما إن العربي سيظل عربيا، وحقا فإن جملته صائبة، وكان يقول يمكن لليهودي أن يعطيك إحساسا أنك صرت واحدا منهم، ويمكنك أن تشعر في لحظة ما أنهم من أفضل البشر على وجه الأرض غير انك ستدرك في لحظة ما أنهم ينظرون إليك بوصفك عربيا.

وفي بعض الأحيان وحينما أعود إلى الطيرة اخذ بعض الكتب من أبي غير أني في الحقيقة أكره قراءة اى شيء بالعربية، ومع هذا على أن أطالع هذه الكتب حتى أتفهم لماذا يحظى شاعر كمحمود درويش بهذه الأهمية، ولماذا حظى أميل حبيبي بجائزة إسرائيل في الأدب. وكان آخر كتاب عربي سرقته من أبي هو "خمارة البلد" لسلمان ناطور التي يصف فيها حياة شاعر أو قاص عربي شاب لا يكف عن التردد على إحدى حانات تل أبيب. ويصف في هذه الرواية لقاءاته مع اليهود اليساريين الذين ينصتون إليه بكل اهتمام ولا يخجلون من تقديمه إلى أصدقائهم. ويصف في روايته أيضا الفتيات اليهوديات اللائي كن يجلسن بجواره ويتبادلن معه القبلات. ويصف في روايته كيف تصور في مرحلة ما أنه يمكنه الاندماج كلية معهم. أما أنا فأشعر الآن بمدى حماقتي حينما تصورت أنه يمكنني الاندماج.

وكان أبي يعتقد أني سأكون أول عربي يتمكن من إنتاج قنبلة نووية، وآمن بالفعل بهذه الفكرة، غير أن عادل كان يرى أنه من المحال تحقيق هذا الحلم حتى لو كنت أفضل إنسان في العالم، وأنهم لن يسمحوا لي بدراسة مثل هذا التخصص. فلا يمكن للعرب أن يتخصصوا في مثل هذه الأمور.

وكنت أنا وعادل في هذا الحين نجلس سويا في حجرة الحراسة، فكنا نتولى مهمة الحراس الموكلة إليهم مهمة التحذير. وكانت المدرسة تكلف كل ليله اثنين من تلاميذها بمهمة إيقاظ سائر التلاميذ إذا ما دوت صفارات الإنذار. وكان عادل لا يتوقف عن السخرية فكان يحدثني عن أنه يتمنى لو أوكلت إليه مهمة إيقاظ البنات حتى يتمكن من رؤيتهن بملابسهن الداخلية. ورغم أن رغبته الشيطانية كانت تروق لي إلا أني كنت أتضاحك دائما عليها. وكان عادل يحتفظ في دولابه

بمجلات الجنس، وكنت أسترق في بعض الأحيان النظر فيها وأتصفحها، وكنت أردد طيلة الوقت إن الإنسان بطبيعته مخطئ.

وفي هذه الفترة كانت الحرب تشارف على الانتهاء فكانت تمضي ليال كاملة دون أن تدوي فيها صافرات الإنذار غير أن عادل كان يقول دائما إنه لازال من الممكن أن يتغير الوضع وينتصر العراقيون، وأنهم لا زالوا ينتظرون اقتراب الأمريكيين، فللعراقيين ما يكفيهم من النفط لحرق الخليج، وكل حاملات الطائرات. وأن المشكلة الحقيقية هى أنه ليست لديهم العقول التي تستطيع تحقيق النصر، وأنه لو كان هناك لكان علمهم كيف ينتصرون في الحرب.

وكان يقف في الغرفة الزجاجية المواجهة لنا حارس يرتدي بزة عسكرية، وكانت هذه البزة دائما ما تخيفني، غير أني أحسست للحظة أنه يخاف منا. ولم يكن يحدثنا البتة، فكان يمسك طيلة الوقت كتابا بيده، ويبدو كمن يعكف على إعداد أحد الدروس. وكان يسترق في بعض الأحيان النظرات إلينا، غير أنه سرعان ما كان يعاود النظر في كتابه كلما كان يرانا نحدق النظر فيه. وقد تصورت أنه طالب في المدرسة غير أن عادل قال إنه يبدو كمن يعكف على استذكار دروسه استعداد لاختبار الثانوية العامة، غير أن هيئته لا تدل على أنه سيجتاز مثل هذا الاختبار.

وكنت أتمنى طيلة الوقت ألا تدوي صفارات الإنذار، وكان ذهني كله منشغلا بوالداى اللذان كانا قد توقفا عن وضع الأقنعة الواقية من الغازات السامة. وقد روت لي أمي فيما بعد أن والدي وإخواني كانوا يخرجون كل مساء لمشاهدة الصواريخ، وأن كل القرية كانت تخرج لمشاهدة صواريخ صدام، كما حدثتني عن أن أهالي القرية كانوا يتدافعون إلى الشوارع للتأكد من أن صواريخ "باتريوت" لن تصيب

أهدافها، وتحكي أمي أيضا أن بعض النسوة كن يطلقن الزغاريد عند مشاهدة الصواريخ، وأن أحد سكان القرية كان يخرج إلى الشارع ويصرخ بأعلى صوته وكأنه بمقدوره توجيه الصواريخ.

وكتبت الصحف العربية آنذاك خبراً مفاده أن إحدى الماعز كانت تطلق صوت "صداااااام"، وأن بعض أهالي القرية أكدوا أنهم رأوا صورة صدام مطبوعة على القمر. وحينما عدت إلى المنزل لم يعقل أبي كيف أني لم أستطع مشاهدة صورة صدام، وكان يأخذني في منتصف الليل إلى الطرقات لمعرفة كيف أرى وجه صدام بكل وبأدق تفاصيله على وجه القمر. وتمكنت في النهاية من مشاهدته على القمر، ولتنظروا إلى أعلى لمشاهدته.

6- فطائر عيد الفصح

تذكر جدتي أن اليهود اختطفوا د. جهاد حينما كان طفلا، وأن أمه التي كانت أرملة مثل جدتي أخذت تبكي طيلة اليوم، وأنها فتشت عنه في كل زاوية وكل ركن في كفر سابا. وتروي جدتي أنه حينما ذهبت أمه لشراء لعبة اختفى ولدها. وقد ساعدها كل رجال القرية في البحث عن ولدها الوحيد. وكادت تموت المسكينة من فرط الحزن عليه. غير أنها وجدته في نهاية الأمر لدى بعض اليهود المتدينين الذين أشفقوا عليها وأعادوه إليها. وتروي جدتي أنهم أخذوه لاستخدام دمه في فطائر عيد الفصح، غير أننا لم نصدق أن د. جهاد كان طفلا مثل الجميع.

وكان سجيا هو أول طفل يهودي يدعوني لحضور الاحتفال بعيد الفصح، وعند الذهاب إليه حرصت على أن أحلق ذقني جيدا. وكانت لديهم شقة صغيرة جميلة في مبنى كان به مصعد. ولم تكن لدينا في

القرية أية مصاعد، ولم أكن قد رأيتها إلا في مستشفى "مائير" في كفر سابا. وكان قد قال لي قبل زيارته ليس هناك أي داع للقلق خاصة أن والديه ينتميان إلى الفكر اليساري. وكانت والدته تنحدر من أمريكا اللاتينية وتؤمن بالفكر الاشتراكي في حين أن والده كان بولنديا. ورأيت في منزله بعض صوره التي تعود إلى الفترة التي درس فيها علوم الحاسب الآلي في الولايات المتحدة الأمريكية في عقد الستينيات. وكانت أخته تعزف البيانو في الصالون، كما كان لديهم في المطبخ تلفاز صغير. وأحسنوا جميعهم التعامل معي، فكانت والدته تبتسم دائماً، وتقضي طيلة الوقت في طهى الطعام . وحينما طلبت من صديقي سجيا إحضار بعض الأكواب من جارتهم، حرصت على مساعدته.

ولم يكن سجيا من أصدقائي المقربين، وكانت علاقتي به لا تتعدي حدود استعارة بعض شرائط موسيقى الروك العنيفة منه، ولم أكن محباً للموسيقى على نحو خاص غير أنه حينما دعاني استجبت لدعوته. وفي هذه الفترة التي كنت أدرس فيها في مرحلة الثانوية أدركت أو قررت أن علاقتي بوالداي ليست على ما يرام.

وفي المساء أتى شخص كبير في السن إلى المنزل، كما أتت أسرة أخرى مع أطفالها، كان من بينهم طفلة صغيرة. وجلسنا بجوار بعضنا البعض، وبدؤوا في الغناء. وأمسكت الطفلة بكتاب الصلوات الخاص بعيد الفصح ممعنةً النظر فيما به من صور، وكانت تتحدث بلغة مختلفة. وكانت تعرف بعض الأغاني، غير أنها كانت تغنيها بلكنة غريبة، وكانت تبدو سعيدة. وكانت هذه الطفلة الجميلة قد وصلت لإسرائيل منذ فترة بسيطة.

وعندئذ تعلمت ما المقصود بهذا العيد لدى اليهود، ففي هذا العيد يجلس اليهود حول الطاولة يرتدون أحلى ما لديهم من ملابس،

ولا يستخدمون النار البتة، كما أنهم لا يستخدمون الأطبـاق البلاسـتيكية حتى لو كان لديهم عدد كبير مـن الضـيوف، ولا يضـعون الحمـص عـلى الطاولة. ويأكلون كبدة مفرومة وأشياء غريبـة لم يسـبق لي أن تناولتهـا. وكانوا يعاملونني على نحو طيب للغايـة. ولم يقـدموا لي كـل مـا لـديهم على المائدة قائلين بين الحين والآخر "لست ملزما بتناول هذا الطعـام إن لم تكن تحبه"، غير أني تناولته مقررا إذا كان هذا الأكل يروق لهـم فإنـه يروق لي.

وعلمني سجيا أشـياء كثـيرة عـن صلاة عيـد الفصـح وفطـائر عيـد الفصح، والضربات العشر التي أنزلها الإله بالمصريين قبل خـروج اليهـود من مصر، وأشياء كثيرة عن النبي الياهو. وأمعنـت النظـر طيلـة الوقـت في البنت الصغيرة غير أنه لا يمكن للمرء أن ينال إعجـاب امـرأة دون أن يعرف لغتها. وكانت هذه البنت تقيم في مدرسـة متخصصـة في تـدريس اللغـة العبريـة للمهـاجرين اليهـود، حيـث كانـت قـد وصلت للتـو إلى إسرائيل وكانت تريد البقاء فيهـا. وكانـت تقـول إن هـذه الدولـة دولـة رائعة غير أني لم أتفهم عما تتحدث، وأخذت أردد همسا انتظـري رويـداً رويداً حتى تري أطفال مدرسة "بولنسكي"، وحتى ترتادي الحافلات. غير أنها كانت سعيدة للغاية. وبالرغم من أن والـداها بقيـا في الأرجنتـين إلا أن هذا الأمر لم يزعجها وقالت إنها تحب أرض إسرائيل.

وجلسنا معاً في غرفة سجيا، ولم أنجـح في التعـرف عـلى اسـمها، ولم تنجح في التعرف على اسـمي. ويعـرف سـجيا قلـيلا مـن الاسـبانية التـي تتحدث بها، فكان يترجم لي ما تقوله، وطلبت منه أن يسألها إذا ما كـان يوجد عرب في مدرسة اللغة التي تدرس بها فأجابت "لا غير أنها سمعت عن العرب وأنها لا تخاف منهم البتة". وتـرجم سـجيا لي كـل مـا قالتـه، وقال لها إنه يوجد تلاميذ عرب في مدرسته وإنهم على مـا يـرام. وقالـت

إنها لا تتفهم كيف يمكنه أن يوافق على الدراسة هناك، وأنها ترى أنه لا يوجد عربي واحد جيد. ورأى سجيا أن ما تقوله يثير الضحك، وقال لي إنها ساذجة، وأمسك رأسه مشيرا بأصابعه نحوي قائلاً إنه عربي، فضحكت وقالت ليس من اللائق أن تصفه بأنه عربي.

7- أسعد يوم استقلال في حياتي

لا يتبع المدرسون في المدرسة الجديدة سياسة العقاب البدني، ولا يقومون بتفتيش رؤوس التلميذ بحثا عن القمل، ولا يفحصون الواجبات المنزلية، كما أن التلاميذ لا يرفعون أياديهم للإجابة، ولا يستأذنون المدرسين للذهاب لدورات المياه النظيفة والمزودة بأجهزة تطرد الهواء الجاف لتجفيف الأيدي، كما توجد بها مناشف ورقية. ويوجد الكثير من عمال النظافة في المدرسة يرتدون جميعهم حللا زرقاء. ولا يحق لهم ضرب التلاميذ أو حتى التحدث معهم.

وفي المدرسة لا يقف التلاميذ في طوابير الصباح قبل الدخول إلى الفصول، كما أنهم ليسوا ملزمين بقراءة القرآن في الصباح أو ترديد أغاني بعينها، بل ومن المسموح جلوس البنين بجوار الفتيات.

وجلست نعمي بجواري ذات مرة وسرعان ما وقعت في عشقها، فأصبحت أضع رأسي في المساء على وسادتي محدقا النظر في سقف الغرف وأصبحت تراودني مشاعر مختلفة البتة. ، وأصبحت أشعر بآلام من نوع جديد. وباتت كل حواسي مرهفة السمع لوقع خطواتها في المطعم والمكتبة والفصل وفي كل أماكن التجمع، فكنت أعرف وقع أقدامها وأميزها سواء حينما ترتدي حذاء الأنشطة الرياضية أو حينما ترتدي أى حذاء آخر.

كثيرا ما نتجـول معـاً، وذاكـرت معهـا ذات مـرة مقـرر الكيميـاء في غرفتها، وجلست على سريرها وعلى فراشها الجميل. وكان شعرها طـويلا وجميلا لم يكن أسودا أو ذهبيا وإنما كـان لونـه بيـنهما. وكانـت أياديهـا شديدة البياض، وكان يوجـد عـلى وجههـا نمـش أحببتـه للغايـة. وكنـت أساعدها حينما كان يحـل دورهـا في أعـمال المطـبخ. وفي حفـل التخـرج الذي نظمته المدرسة للصف العاشر رقصت معها. وفي الشـهر الأول مـن التحاقي بالصف الحادي عشر قلت لها إني أحبك. غير أنها صادقت زميلا آخر بعد أسبوع.

ورأيتهما يحضنان بعضهما البعض بين الثلوج التي لم أكن قد رأيتهـا من قبل، وأخذت أراقبهما من نافذة غرفتـي حتـى حـل الصـمت الـذي أضاء الليل. وذهبت إلى السرير واسـتلقيت عليـه فاتحـا فمـي وشـعرت حينها بألم يفتك برأسي، وظللت هكذا حتى فارقا بعضهما البعض.

وفي يوم الاحتفال بذكري ضحايا النازي كانت ترتـدي بلـوزة بيضـاء وقرأت من كتيب أسود كانت تمسكه قصة عن طفلة رأت أباهـا يحـترق في الغابة. وفي نهاية مراسم الاحتفال قلت لها إني أحبك غير أنها اكتفـت برسم ابتسامة عـلى شـفتيها. وحيـنما حـل يـوم الاحتفـال بتخليـد قـتلى الجيش الإسرائيلي انفجرت مـن الغضـب لأني لم أقـف دقيقـة حـدادا في اللحظة التي دوت فيها صفارات الإنذار معلنـة ضرورة الوقـوف دقيقـة حداداً. وفي هذه اللحظة كنا نتلقى درسا في علـم الأحيـاء وحيـنما دوت صافرة الإنذار هبت واقفـة غـير أني واصـلت الجلـوس فأنـا مـن فقـدت جدي وعمي في الحـرب. وبعـد وقوفهـا دقيقـة حـداداً أخـذت حقيبتهـا وغادرت الفصل.

ولم تظهر في المطعم خلال وجبه الغـذاء، ولم تكـن في غرفتهـا أو في المكتبة، وأحسست لحظتها بمدى حماقتي متسـائلاً ألم تسـتطع الوقـوف

لحظتها خاصة أنها من يتامى الجيش الاسرائيلي، الذي ابتعثها إلى كندا وسدد لها مصاريف الجامعة. وكان والدها من الضباط الذين أسهموا في إخلاء مستعمرة ياميت، وقد لقى حتفه في حادث سيارة أقلته من قاعدته العسكرية إلى منزله.

وجلست عند بوابة المدرسة واضعا سماعة موسيقى على أذني كانت تردد موسيقى حزينة. وحينما رأيتها تهبط من سيارة أمها الموتسيبيشي رأيت الدمع في عينيها، وكانت هذه هى المرة الأولى التي أرى فيها أمها التي حدقت النظر في، وقادت سيارتها. وكانا في طقس تأبين قتلى الجيش الاسرائيلي في جبل هرتسل، غير أنها لم تكن حزينة لهذا السبب.

وحينما رأتني بادرتني متسائلة "لماذا لم تقف عند سماع صافرة الإنذار؟" وأجبتها "لست يهوديا"، فقالت " احبك كثيرا، وحدثت أمي باكيةً عن حبي لك، واعترفت لها أني لم أعد قادرة على مقاومة حبك". وواصلت حديثها قائلة "كلما كنت تقول لي أحبك كنت أردد همساً احبك أيضا" وابتسمت.

وتفهمت في هذه اللحظة معنى السعادة الحقيقية، وحملت حقيبتها إلى الغرفة، وكنت سعيدا، وكان هذا هو أسعد عيد استقلال في حياتي.

8- وطن قومي

جلست للمرة الأولى في أحد المقاهي حينما كنت في الصف الثاني عشر، وقد حدث هذا الأمر في احدي الأمسيات الحرة التي كانت تحل كل ثلاثاء، وتعلمت حينها أنه يمكن للإنسان أن يجلس في مقهى وأن

يطلب وجبة سلطة فقط، وعرفت حينها أن هذه الوجبة وجبة مستقلة بذاتها، وأنه توجد أنواع متعددة من السلطة. وجلسنا في مقهى "عطره" الذي جلس عليه الروائي عاموس عوز الذي كتب فيه رواية "ميخائيل". وقد طلبت نعمي وجبة سلطة يونانية. أما أنا فطلبت شوكو.

دعتني نعمي للسينما حينما كنت في الصف الثاني عشر، ولم أصدق لحظتها أنه يحق للفتيات التوجه إلى السينما. لقد كانت توجد في الطيرة ذات حين سينما، لكنها لم تعد موجودة. وحينما كنا أطفالا أخذنا ابن عمتي ابتسام الذي كان أكبر منا إلى السينما لمشاهدة فيلم طرزان. ، وكانت المقاعد بالسينما مقاعد خشبية مثل تلك التي توجد بالمدرسة الابتدائية. وحينما دخلنا قاعة العرض تقيئ أخي الصغير في البداية فتركنا المكان في الحال. وصرخ الجميع. وكان كل المشاهدين يدخنون السجائر. وحينما ظهرت صديقة طرزان في الغابة صفر الحضور في القاعة وتحدثوا على نحو غير لائق. وخفت من الجميع.

كنت متخوفا قبل الذهاب إلى السينما مع نعمي، فتخوفت من أن تكون السينما مكتظة بتلاميذ مدرسة "بولنسكي"، وتخوفت من أن يعرفوني، وعندئذ لن أجد وسيلة للهرب. وحينما كان هؤلاء التلاميذ يأتون في بعض الأحيان إلى بوابة المدرسة، ويهتفون "الموت للعرب" كنت أخشى الخروج إلى ملعب المدرسة الواقع خارجها، فقد كان هذا الأمر بالغ الخطورة.

وقالت نعمي ليس هناك مبررا للخوف من السينما، وأوضحت أننا سنشاهد فيلم "الحياة وفقا لاجفا"، هذا الفيلم الذي لا يشاهده سوى اليساريون مثلها، وأنه يمكننا أن نجلس سويا في السينما متشابكي الأيدي، وعلى ألا أخاف أحدا.

وبثت الحياة الجديدة في نفسي الحماس، وتفهمت أن السينما لا يرتادها الأشرار فقط، وإنما يرتادها البالغون من الرجال والنساء، وأنها مكان جميل ومنظم وأن كراسيها وثيرة ومريحة. وسعدت للغاية حينما لاحظت أن بالفيلم عاملان عربيان كانا يثيران الضحك. وأذكر أني أعجبت للغاية بعازف البيانو في المطعم، وقالت نعمي إن هذا العازف مغني معروف اسمه "داني ليطاني"، غير أنه لم يكن لديها في غرفتها أية أغاني له. وكانت تسمع دائما في غرفتها أغنية لشخص كان يردد دائما في أغانيه عبارة "لتخرجوا من الأراضي". ولم أصدق حينها أنه يمكن أن يغني يهودي مثل هذه العبارات.

وكانت نعمي عضوة في حزب راتس اليساري، فكانت ترتدي دائما حلة الحزب الخضراء، وكانت كثيرا ما تتحدث عن الإنسان بوصفه إنسانا، وعن أنه ليست هناك أية فروق بين الشعوب، وأنه من الواجب ألا نتعامل مع شعب من الشعوب بوصفه كتلة واحدة، وكانت تقول دوما أنه يوجد في كل شعب الطيبون والأشرار. غير أني لم أتفهم قط عما تتحدث، ومع هذا تعاملت مع ما تقول بكل جدية.

وتفهمت حينما كنت في الصف الثاني عشر وللمرة الأولى في حياتي ما المقصود بحرب "48" التي يسمونها حرب التحرير، وتفهمت في ذات المرحلة أن لفظة "صهيوني" ليست سبة، خاصة أن هذه اللفظة كنا نتنابذ بها في المدرسة في الطيرة. وكنت أتصور في طفولتي أن الصهيوني هو شخص بدين كالدب، غير أني تفهمت فيما بعد أن الصهيونية أيديولوجية. وأدركت من خلال دروس مقررى المواطنة وتاريخ شعب إسرائيل أن عمتي المقيمة في طولكرم لاجئة وأن العرب المقيمين في إسرائيل يشكلون أقلية. وتفهمت في المرحلة الثانوية أن المشكلة جد خطيرة وتفهمت أيضا ما المقصود بمفهومي وطن قومي والعداء

للسامية، فسمعت في هذه المرحلة وللمرة الأولى في حياتي تعبيرات ألفى عام من الشتات ونضال اليهود ضد العرب والبريطانيين. وكان للدروس التي تلقيتها في مادة العهد القديم دور كبير في معرفتي بأن إبراهيم هو والد إسحاق وأن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل.

وفي المرحلة الثانوية كان كل أصدقائي من تلاميذ الفصل الدراسي يتلقون تدريباتهم العسكرية استعدادا للالتحاق بالجيش وتوزيعهم على كل المنشآت. أما أنا فكنت أحصل من المدرسة على تذكرة لركوب الحافلة وأخرى لدخول متحف إسرائيل. وكان يظهر في المدرسة في بعض الأحيان جنود يرتدون البزة العسكرية، وكانوا يلقون محاضراتهم أمام التلاميذ. ولم يكن يتم السماح لي بحضور هذه المحاضرات. وكان معلم الفصل يبدي دائما أسفه لي عما يحدث فلم يكن من اللائق أن يخبرني أن هذه المحاضرات ليست مخصصة لمن هم مثلي. وتفهمت لحظتها فقط أني لن أصبح طيارا حتى لو حلمت بذلك، وأنه ليس لهذا الحلم أية علاقة بكفاءاتي أو درجاتي العلمية. وكم تضاحكت حينئذ على والدي.

9- نهج تربوي

أخذ والداي في نفس اليوم أجازة من العمل، وارتديا أجمل ثيابهما واستقلا السيارة قبل موعد اللقاء بساعة ونصف، ولم يكن من الجائز البتة أن يتأخرا عن الموعد، فعليهما أن يظهرا مثل الآباء الملتزمين. وقد أتيا بالأمس ليأخذاني من المستشفى التي أصبحت أحد نزلائها بعد ذاك الألم الشديد الذي حل بي والذي دفع مستشارة المدرسة لأخذي لغرفة الطوارئ بمستشفى "شعرى تسيدك". واذكر أني توسلت إليها صارخا ألا

تطلب من والداى المجئ، فقد أحسست أني تسببت لهما ولنفسي في حرج بالغ. والآن سأكره نفسي بشدة.

وصليت طوال الوقت ألا يعرف والداى، وألا يعرف والدي بالذات ما ألم بي، غير أنهما عرفا الآن كل شيء بعد أن أتيا إلى المستشفى ورأيا الأطباء يجرون لي عملية غسيل معدة. وبعد أن تحدثا مع مستشارة المدرسة أعادوني إلى المنزل بالقرية. ورأيت هناك باسم صديق والدي الذي كان يلعب الشطرنج مع والدي عند تلقيه مكالمة من مستشارة المدرسة.

وأتذكر الآن أن باسم كان يقف جوار سريري بالمستشفى مصراً على أن يعرف من والدي ماذا ألم بي، وأجابه والدي "كل هذا بسبب الكلبة العاهرة اليهودية".

وكنت منهكاً ومرهقاً طيلة الفترة الماضية، فكنت أعجز عن النوم أكثر من ساعتين، وكان الصداع يطاردني على مدى بضعة شهور. ولهذا لم أنجح في التركيز في أى شيء البتة أو في التفكير أو حتى في الجلوس هادئاً. وكان ثمة طنين يتردد في أذني دون توقف، ولم تنجح أقراص الدواء في القضاء على الصداع، بل ولم تكشف الأشعات التي أجريتها عن شيء البتة. كما كانت نتائج الكشوف العصبية على ما يرام.

حينما عدت إلى المنزل في إحدى عطلات نهاية الأسبوع أخذتني أمي إلى جارتها "آمنه" صديقة جدتي، وقالت إنها ترغب في أن تقوم بنتها التي تعمل بالتمريض بقياس ضغط دمي، وقامت بنتها التي كانت درست بالفعل التمريض بقياس ضغط الدم وأخبرتني أن ضغطي مرتفع.

وبدأت "آمنه" عندئذ في نشاطها، فأحضرت منديلاً وربطت في أحد طرفيه كومة ملح وقرأت بعض التعاويذ وفي لف المنديل حول رأسي.

وقالت إن كل ما يحدث لي بسبب الحسد الذي سيزول بمشيئة الله. وقالت إنها واثقة مما تقول بدليل أنها تثاءبت عند لف المنديل فضلاً عن أن الملح ذاب في المنديل.

ومع هذا استمر الألم، كما أن أدوية الضغط لم تجد. ومع مضى شهر على هذا الألم ومع زيارتي للقرية في إحدى الأجازات قال والدي إنه يعتقد أن لدى مشكلة في الإبصار وأن استذكاري لدروسي طوال الوقت واستخدام الحاسوب هما السبب فيما أشعر به من آلام ، واستدل على صحة ما يقول بأن أحد أصدقائه في الطيبة طبيب عيون، وأنه فسر سبب الألم على هذا النحو. وطلب مني أن نتوجه لدكتور ماجد في عيادته، ووافقت على الذهاب معه خاصة أنه قد راقت لي فكرة أن ارتدي نظارة مثل جون لينين.

وفي الطريق حاولت أن أغفو قليلا على المقعد الخلفي للسيارة فلم أرد أن ترى نعمي عيوني منتفخة. وفي الحقيقة فقد كان د. ماجد أخصائيا نفسيا، ومديرا لمركز الصحة العامة في الطيبة. وكان قد دعانا إلى المركز بعد الظهيرة أي في الوقت الذي لا يتردد فيه كثير من المرضى على العيادة. وعند دخولنا لم نجد سوى امرأة كانت تجلس متململة على إحدى الكراسي. وقد أدخلها د. ماجد وأذن لها بالاستمرار في صرف الدواء، وبعد ذلك دعانا للدخول. وكان معه بالحجرة شاب صغير كما يبدو كان موظفا اجتماعيا.

استفسر مني د. ماجد عن صحتي فأجبته أني لست على ما يرام، وحينما سألني عما إذا كانت لدى أية مشكلات في المدرسة أجبته أن كل درجاتي مميزة. وواصل د. ماجد حديثه قائلا إنه سمع من والدي أني أدرس في الصف الثالث بإحدى المدارس الداخلية وأني اقترب من شهادة الثانوية العامة، وأني لا أستطيع التركيز في دروسي وفي الاختبارات بسبب

الصداع. وقال ماجد إني أعاني من إحباط وأوصاني بتناول قرص واحد من دواء "دوكسفين 10" كل يوم.

وبدأت في تناول الدواء مما ساعدني على النوم بعض الشيء غير أنه جعلني اشعر دائما بحالة من الإعياء والثقل، كما تسبب في تورم وجهي بعض الشيء غير أني أحسست أنه مريح بعض الشيء. وأصبحت أتناول هذا الدواء بانتظام، وكنت اشتري الدواء بنفسي خاصة أنه ليس غاليا، وسرعان ما أصبحت أتناول قرصين يومياً. وبعد قليل أصبحت أتناول جرعة أكبر من الدواء، فأصبحت أتناول "دوكسفين25" بل كنت أتناوله كلما أحسست أن حالة الاكتئاب تراودني عن نفسي. وأصبحت أسير تائها غير أن أحدا لم يسألني البتة ماذا بك، ودخلت في حالة أصبح فيها من الأفضل للجميع عدم الاقتراب مني.

ومع هذا كانت نعمي تواصل زيارتي، وأخبرتني في إحدى اللقاءات أنها ترغب في أن تتخصص في علم النفس وأن تصبح على قوة الجيش الإسرائيلي، ولهذا عليها أن تبذل كل ما في وسعها في اختبارات الثانوية العامة. ومع انتهاء اختبارات الثانوية العامة انفصلنا عن بعضنا البعض، وكان هذا الأمر شديد الوضوح لي فقد كنت أعلم أن والدتها كانت تخبرها دوما أن المدرسة الداخلية أشبه ببيت زجاجي وأنها لا تهتم كثيرا بأن يكون لبنتها صديقا عربياً. وكانت قد أخبرتها أنها لا تتحفظ على شخصي البتة غير أنه من المؤسف بالفعل ان اسمي ليس حاييم.

وابتلعت بالأمس وقبل يوم واحد على أداء اختبار الثانوية العامة في اللغة العربية وقبل يومين من أداء اختبار الرياضيات علبة كاملة من دواء "دوكسفين 25"، فأخذت عشرة أقراص دفعة واحدة لأني كنت أريد النوم. وأتت "نعمي" في تلك الليلة إلى الغرفة وطرقت الباب غير أني لم اسمعه. ولما كانت متأكدة من أني بالغرفة بادرت بفتح الباب محاولةً أن

توقظني. لقد سمعتها وشاهدتها واستيقظت غير أنها تصورت لسبب ما أني لازلت نائما. وشاهدتها تجري مندفعة للخارج وتعود مع مستشارة المدرسة التي لا أدري لماذا ظلت بالمدرسة حتى هذه الساعة المتأخرة؟

وتقرر أن أرى اليوم الأخصائي النفسي المسئول عن الشباب في "كيريات يوفال"، وكان على والداي الحضور إلى اللقاء. وبادرني أبي فور أن شاهدني بسيل من الأسئلة مثل "عما حدثتهم؟ ل حكيت شيئا للمستشارة؟ ماذا قلت لهم عني؟". وأخبرني أن باسم يعرف عني كل شيء ويعرف أني أسير مع الفتيات وأني أهملت دراستي، وأهملت كل شيء بسبب فتاة يهودية.

وطمأنت والدي بأني لم أحدثهم بشيء، فاكتست ملامحه في التو بقدر كبير من الهدوء والسكينة، فهو لا يريد أن يتهمه أحد أو أن يلقي عليه مسئولية حالتي. أما أمي فحاولت أن تهدئني بقولها إن كل الأمور ستكون على ما يرام، ويجب أن أفكر مليا في أداء اختبارات الثانوية العامة، وأنها لا تتفهم كيف وصلت إلى مثل هذه الحالة، وقالت " كنا نعرف أنك تواجه صعوبات كثيرة لكننا لم نتخيل أنها لهذا الحد".

وواصلت الاستماع إليهم وهم يتحدثون غير أن حديثهم كان يزعج خلوتي وأنا في المقعد الخلوي، كما كان يزعج تفكيري في أنه لم يتبق لي سوى يوم واحد أشاهد فيه نعمي، وكنت منهمكاً في تخيل قبلات الوداع.

أما أبي فبدأ في حالة من المونولوج الداخلي ولكن بصوت مسموع، فأخذ يقول إن كل ما فعله في حياته كان من أجلي ومن أجل تعليمي، ثم وجه حديثه لي قائلاً" أتعلم أنه لازال يسمح في انجلترا بإنزال العقاب البدني بالتلاميذ؟ إنه نهج تربوي".

وقلت له "إني على معرفة بكل ما يقول وأتفهمه ولكنني أقسم أني لم أحدث أحدا عن أي شيء البتة". وسرعان ما عاوده الهدوء والتزم الصمت.

وعندئذ تذكرت ما فعله حينما عدت إلى القرية في عيد الأضحى الماضي، فلم يتوقف عن ترديد إن ولده مريض نفسي. وتفجر كل هذا الانفعال لأني رفضت زيارة عماتي مثلما كنت أفعل كل عيد. وأحسست لحظتها بأن حريقا يشتعل في وجنتي اليسرى وكأني تلقيت صفعة منه، فوضعت وجهي على زجاج النافذة حتى يبرد إحساسي بالألم.

لازلت أذكر اليوم الذي وضعت "نعمي" فيه رأسها على كتفي للمرة الأولى، وقد حدث هذا قبل أن تفصح عن حبها لي وقبل أن نصبح أصدقاء. ويصعب على استرجاع هذا الإحساس. نعم إنه يمكن للإنسان التذكر ولكن يصعب عليه استرداد الإحساس.

وحينما وضعت رأسي على صدرها منذ أسبوع داعبت شعري وقالت"علينا ألا نعاود الاتصال، إن ما حدث يكفينا، وإلا ستطردني والدتي من البيت"، وحكت لي إن والدتها قالت لها إنها تفضل أن تمارس بنتها السحاق عن أن تصادق عربيا.

وأدركت فجأة أني لا أدري ماذا سأفعل في اختبار الرياضيات بالثانوية العامة، وتذكرت أيضا أني طلبت إلغاء اختبار مادة الفيزياء بالثانوية العامة بعد أن عانيت في هذه المادة ثلاث سنوات كاملة. وأدركت لحظتها أن مصيري الفشل وأني لست واثقا من حصولي على شهادة الثانوية العامة. ولاشك أن والداى سيفقدان صوابهما ولن يعرف أبي كيف يداري خجله. إن أبي صادق في كل ما يقوله عن أني دمرت مستقبلي بسبب عاهرة يهودية.

ومع هذا لست غاضبا منها بـل لازلـت أحبهـا. إن مـا حـدث وقـع نتيجة لموقف أمها ومذا يمكن لنعمي أن تفعل، ولـو كـان الأمـر مرتبطـا بها ما كانت علاقتنا ستنتهي. وكيف يمكن أن ينتهي الحب فجأة.

ولازلت أذكر كم كنت أصرخ في غرفة الطوارئ بالمستشفى محـاولا الهـرب غـير أن مستشـارة المدرسـة أمسـكت بي بيـديها بقـوة، وحيـنما حاولت التخلص منها وقعت أرضا غير أنها واصلـت الإمسـاك بي قائلـة " لست طفلا صغيرا توقف عن البكاء وانظر إلى ما تفعله بذاتك". . واذكر أن الكثيرين كانوا ينظرون إلينا، وأتي الحارس غير أنه لم يفعل شيئا البتة، وانتحى جانبا مكتفيا بالنظر إلى بكائي وصراخي. ولم أتوقـف عـن البكـاء والصراخ إلا بعد مجيء والداى مع باسم.

وكان آخر شيئ سمعته حديث والدي لصديقه عن فتاتي التي كـان يصفها بأنها عاهرة يهودية، وأحسست لحظتهـا بكراهيتـي المفرطـة لـه، ولمستشارة المدرسة التي نصحني بالتوقف عن حـب نعمـي وأن أكتفـي بحب زميلتي العربية سلوى بالمدرسة لاسيما أنها جميلة وحكيمة.

والآن وبينما كنت متوجها مع والداى في الطريق إلى القدس اتصـل بهم مسئولو المدرسة قـائلين إنـه يتعـين علينـا المجـيء، وأنـه لا يمكننـي معاودة الدراسة دون المجـيء مـع والـداى للالتقـاء بالأخصـائي الـنفسي المسئول عن الشباب. ولم يكن متبقيا على اختبار الثانويـة العامـة سـوى يـوم واحـد غـير أن مستشـارة المدرسـة قالـت إنـه لا يمكـنهم تحمـل مسئوليتي دون الحصول على موافقة من الأخصائي النفسي.

وقال الأخصائي النفسي إني على ما يرام وإنني لم أرغـب في الانتحـار وأن الحبوب التي تناولتها لم تكن مضرة إلى هذا الحد. وصـدقني حيـنما أخبرته أني كنت قد قرأته التعليمات الطبية للدواء التي جاء بها أنه مـن الممكن تناول ثلاثمائة مليجرام من الدواء. وأكـد الأخصـائي الـنفسي عـلى

صحة المعلومات، وهكذا أكد أني لم أرغب في الانتحار. وأخذ مني الدواء وقدمه لمستشارة المدرسة حتى تقدم لي قرصا واحدا في اليوم لأني أعاني من إحباط.

وكان على أن أعود إلى المدرسة الداخلية فلم يتبق لي سوى يوم واحد فيها.

ولم نتحدث في طريق العودة، واستقليت السيارة مع أبي الذي بحث خلال قيادته عن موجة إذاعة الشبكة الثانية بالمذياع الإسرائيلي، واخذ يلعن القدس التي لا يصل إليها بث الشبكة الثانية. وفي الطريق توقف والدي لدى احدى المحال واقتنت والدتي دجاجا، واقتنى والدي حمص وبيرة. أما أنا فلم أرغب في تناول شيء البتة. وكنت أرغب فقط في الوصول إلى المدرسة الداخلية لرؤية نعمي، وأحسست أنه لا يمكنني إضاعة هذه الفرصة. وحدق والدي النظر في وقال " ليست لديك أية فرصة".

الجزء الرابع
تقلص عضلي في الصدر

1- تقلص عضلي في الصدر

قطعت الطريق المؤدي من البيت إلى المسجد، وسرت طيلة الطريق مطأطئ رأسي آملاً أن يكون كل المارة بالطريق قد نسوني، وكنت آمل أن أكون قد تغيرت على نحو لا يجعلهم يتذكرونني، وحرصت عند السير بجوارهم ألا ألقي عليهم السلام أو حتى أن أقول السلام عليكم. . وكنت أنقل حقيبة الملابس الثقيلة طيلة سيري من يدي اليمين إلى اليسرى، وكانت تعيق سيري في الطريق المؤدي إلى محطة سيارات الأجرة. وكان أبي يصطحبني دائما إلى محطة الحافلات، وكان في أحيان أخرى يصطحبني إلى كفر سابا بل وفي أحيان أخرى إلى القدس. غير أن أبي الآن لم يعد في البيت، وأصبح نزيل أحد المستشفيات.

حينما عادت أمي إلى المنزل استيقظت من غفوتي، وأخبرتني أن أبي أحس الليلة الماضية أنه ليس على ما يرام، فاصطحبوه إلى المستشفى. وبالرغم من أن الأطباء لم يجدوا لديه شيئا إلا أنهم قرروا إبقاءه بالمستشفى تحت الملاحظة. وقالوا إنه ليس لديه شيئا وأنه سيخرج من المستشفى قريبا. وقالت أمي لولا أن لديها عملا في الساعة الثامنة صباحا لكانت بقت في المستشفى معه وعادت معه إلى المنزل. واقترحت على أن نزوره ونحن في طريقنا إلى القدس حتى نلقي عليه السلام. وحينما أخبرتها أني متوجه إلى كفر سابا طلبت مني أن أجلس معه خمس دقائق فهي تحاول دائما تحسين العلاقات بيني وبينه وأن تتوسط فيما بيننا.

مضى ما يقرب من نصف عام على انتهائي من الدراسة، لم أزر البيت خلالها. حاول أبي في البداية أن يتظاهر بأنه لا يبالي بما حدث لي، غير أنه حينما كان يتذكر العار الذي جلبته كان يفقد أعصابه ويصرخ قائلا "إنك أملنا ألا تخجل من نفسك. إن الجميع يسألني في القرية عما فعلت وكيف يمكنني أن أخبرهم أنك لم تحصل حتى على شهادة الثانوية العامة". إن كل العائلات تبارك لبعضها البعض لالتحاق أبنائها بكليات الطب والهندسة والحقوق. وكان أبي يكتفي بقول إن اليهود لم يقرروا بعد ماذا يمكنهم أن يفعلوا معي، بل وقال لهم إن اليهود يخشون قيام دولة أخرى بخطفي لاستغلال قدراتي.

لم يتبق لي شيء في البيت، بعد أن وضع أخي سريري بجوار سريره ليستخدمهما كسرير واحد. وكانت أمي تقوم دائما عند عودتي إلى البيت بفصل السريرين عن بعضهما البعض حتى تتيح لي فرصة الاستلقاء على سرير منفصل غير أنها لم تفعل ما كانت تفعله سابقا، بل إنها لم تخل لي مكانا بالدولاب. وأبقيت الملابس في داخل الحقيبة ونمت لدى جدتي على فراش بسيط وليس على سريرها. وفي الصباح أخذت الحقيبة

وتوجهت إلى القدس بحثا عن عمل. وقررت في المساء أن أقضي الليل لدى عادل الذي يدرس في كلية الحقوق ويقيم في غرفة مستقلة بمسكن الطلاب.

كانت أمي قد اتصلت بي هاتفيا منذ أربعة أيام، لتخبرني أن ابن عمي قتل، وقالت " يجب أن تشارك في الجنازة وتقضي أيام الحداد الثلاثة بالقرية". وقالت إنه كان يلعب مع أصدقائه كرة القدم أمام المنزل مما أثار غضب جيراننا الذين أدمنوا المخدرات. وحينما سقطت الكرة في منزلهم خرجوا يحملون السكاكين، وأخذوا في طعن الصبية فتوفى علي وأصيب الآخرون. وقالت أمي إن والده أصيب بجرح نافذ في الصدر بعد أن خرج من داره دفاعا عن الصبية وابنه، وأنه نقل إلى المستشفى لإجراء جراحه بالصدر وأنه على ما يرام حاليا غير أنهم لم يخبروه بعد أن ولده توفي، واكتفوا بقول إن علي يرقد في إحدى مستشفيات بتاح تكفا. وفعلوا هذا الأمر بناء على نصيحة الأطباء الذين قالوا إن إخباره بنبأ مصرع أبنه قد يؤثر سلبا عليه. وسافر والداى مساء أمس لزيارته بالمستشفى. وأحس والدي خلال زيارته بارتفاع في الضغط فتوجه إلى طبيب اكتفى بإجراء بعض الفحوصات التي أظهرت أن كل شيء على ما يرام. وتقول أمي إن ضغطه ارتفع نتيجة للإرهاق.

لم أتحدث مع أبي طيلة أيام الحداد التي كان فيها منشغلا للغاية، وكان أمس هو يوم الحداد الثالث. وقد جلست النساء في منزل عمتي. أما الرجال المعزون فأتوا إلى المنزل. وقضى أقارب الأسرة الذين قدموا من رام الله وباقة الحطب الليل في منزلنا، واستقبلوا معنا المعزين. وكان حدث الوفاة أشبه بالمأساة الحقيقية، فتحدثوا عنها في نشرة الأخبار العربية بالإذاعة. وكان لزام على أن أقف عند مدخل خيمة العزاء، فوقفت حاملاً كؤوس القهوة وبرادا نحاسيا كبيرا لصب القهوة لكل من

يدخل للعزاء. وجلس أبي طيلة الوقت بالخيمة بل وبكى في جنازة علي، وسمعت فيما بعد أنها كانت المرة الأولى التي يبكي فيها أبي لوفاة أحد الأقارب.

وعند ذهابي إلى المستشفى صعدت إلى الطابق الخامس، متوجهاً إلى قسم القلب للبحث عن الغرفة رقم 12، وقررت عند دخولي أنه إذا سألني أبي عن أحوالي سأخبره أني أذاكر بانتظام واعتزم الانتهاء من شهادة الثانوية العامة. وبالفعل فإني أدرس بجدية وإذا سارت الأمور على ما يرام سأنجح في الالتحاق بالجامعة خلال العام القادم. ولن ألتحق غالباً بأي قسم مرموق حيث إن درجاتي لن تؤهلني للالتحاق به فالمهم على الأقل أن أحصل على شهادة جامعية.

وعند دخولي الغرفة وجدته جالساً يشرب القهوة على السرير المجاور للباب، وفاجئني بإلقاء السلام فشعرت أنه سعيد لرؤيتي. وسألني عما إذا كنت سأعود إلى القدس، وقال إنه يرغب في تدخين سيجارة. وطلب مني فيما بعد النزول لاقتناء جريدة الصباح من الكشك الواقع أسفل المستشفى، وان نبحث معا عن مكان يمكنه فيه التدخين وقراءة الجريدة.

وكان يبدو على أكمل وجه بالرغم من وجود ذلك الجهاز الذي كانت تمتد منه الخراطيم إلى صدره لتسجل شيئ ما. وقررت أن أقتني الجريدة وأسرع بمغادرة المكان خاصة أن لدى ما أفعله خلال هذا اليوم. فضلاً عن أني كنت أريد أن أترك هذا الجو وأن أخلص من الصداع.

وكانت هذه الأيام الثلاثة من أصعب الأيام التي مررت بها، فكانت هذه هى المرة الأولى التي أشاهد فيها جثة، وعند رؤية جثة علي التي كانت عارية أدركت أنه كان قد كبر بعض الشيء، فشاربه الصغير كان

لونه قد بدأ يسود. وكان يوجد بجثته جرح ظاهر يمتد من بطنه حتى رقبته، ومغطى بخيط أسود سميك. وحينما نفدت المياه لدى من قاموا بتغسيل الجثة أعطوني إناءا وطلبوا مني أن أسرع بتعبئته. ولم استطع فيما بعد البقاء هناك وفررت إلى المنزل وأخبرتهم بأني ذاهب لتقديم المساعدة في إعداد الكراسي وتجهيز القهوة.

وبعد الجنازة تجمع كل رجال الأسرة لدينا في المنزل وبدءوا في التخطيط للانتقام، وكان الأقارب الذين قدموا من الآراضي مستعدين لفعل أي شيء، ولكن لم يكن هناك من يمكن قتله حيث إن الشرطة اعتقلت الأخوة الثلاثة المدمنين، فضلا عن إخلائها لأبناء أسرتهم إلى قرية أخرى. وبقى معظم أفراد العائلة من المسنين على مقاعدهم أما الشباب منهم فانتحوا جانبا في إحدى الزوايا وتحدثوا همسا، وانضم أبي إليهم. وكان من الواضح أنهم يخططون لشيء ما.

وفي هذه الأثناء وصلت عمتي فاتن ودخلت إلى خيمة الرجال، وكان من المقبول دخولها إلى هذا المكان خاصة أنها أرملة فضلا عن كونها امرأة قوية الشكيمة تتسم بالحكمة. ووقفت بين الرجال وقالت بصوت عال " لن يكون من بينكم أى رجل إذا لم تقوموا بشيء يهدئ من روع أم علي ".

وكان المعزون يتدفقون على الخيمة بدون توقف، فقمت مع أخي الأكبر بتبادل الأدوار إذ كان يقوم بصب القهوة في الوقت الذي كنت أقوم فيه بغسل الأواني. أما أبي فكان منشغلا طوال الوقت غير أنه لم يجلس قط في الخيمة فكان يدخل ويخرج من البيت عبر الباب الخلفي بل واستقل في بعض الأحيان سيارته. وفي حوالي الثامنة مساء عاد إلى الخيمة. وفي غضون بضعة ثواني من عودته سمعنا صوت انفجار قوي. ولم تمض سوى دقيقتان حتى ظهر فتى قوى اقترب من والدي وهمس

له بشيء ما في أذنيه. وغادر أبي مرة أخرى الخيمة مستقلا سيارته ورجع في خلال خمسة دقائق مع طبيبين من أقارب الأسرة. وتبين عندئذ أن أحد الأقارب أصيب وأنه لم يكن من الممكن حمله إلى المستشفى.

ودخلت معهم إلى البيت، ولم أكن على معرفة بالمصاب غير أني رأيته يرتدي حذاء أبي الرياضي، وتبين لي أن ساقه جرحت حينما حاول أن يقفز من النافذة. وسرت همهمة بين المعزين الذين حاول كل منهم أن يتبين ما حدث، غير أنه سرعان ما تبين للجميع أن منزل القتلة تم تفجيره بأنابيب الغاز.

ورجعت مع الجريدة ووجدت أبي مستلقيا على سريره، وحينما رآني رفع ظهره وأنزل ساقيه من على السرير مستعدا للقيام. وفجأة التفت إلى بعينين متسعتين متوسلتين ملؤهما الخوف، وفجأة كسي العرق جبهته. وبدأ الجهاز المتصل بجسده في إصدار صفير مدوي.

وصرخت في كل أرجاء المكان مناديا طاقم التمريض، وفي غضون بضعة ثوان أتى فريق كامل سارع بتوصيل الأوكسجين إليه، وسحبوه إلى غرفة العناية المركزة. وسرت خلفهم محاولا رؤية وجه أبي غير أني لم انجح في دخول المصعد معهم ، فاندفعت إلى قسم العناية المركزية عبر الدرج ووصلت إليه قبل وصول المصعد. وكنت متأكداً أن المنية وافته فبدأت في البكاء، وذهبت إلى الهاتف الواقع بجوار المصاعد لأخبر أفراد العائلة بما يحدث. وفكرت لحظتها أنه إذا لم يمت فإني سأجلس بجواره في المستشفى حتى تقضى عليه الأزمة القلبية القادمة.

ووصلت في غضون دقائق كل الأسرة والعمات وأطفالهن، وكانت أمي تضع بالطبع غطاء الرأس التقليدي وكانت عيناها منتفختين من البكاء، وسارعت الدخول إلى غرفة العناية المركزة، وكان من المستحيل بالفعل أن يعيقها أحد. وطلب بعض الرجال في الأسرة التحدث إلى أى

طبيب أو مع أى شخص من غرفة العناية المركزة ليشرح لهم ما يحدث. وكان الجميع في حالة من الانفعال إذ ترك الجميع محلاهم وأطفالهم وأشغالهم وأتوا. وكان الجميع يشعر أنه لن يحتمل أية كارثة أخرى.

وقال الطبيب إن والدي سيكون على ما يرام غير أني لم أصدقه، حيث إن أبي كان يتصبب عرقا كما أن عيناه كانتا تخبراني بأنه أصبح في مكان آخر غير عالمنا وأنه لن يعود. وأصر الأطباء على أنه بخير غير أني أحسست أنه لن يدوم طويلا على هذه الحالة. وقال الطبيب إنه لا يعاني من أزمة قلبية وإنما أصيب بتقلص في عضلات الصدر، وأنهم سيبقون عليه في غرفة العناية المركزة لإتمام الفحوصات. ونظرت إليه فوجدته خائفا عاجزا عن فهم ما تعرض له. ونظر إلى، وأدار بصره إلى أمي فأدركت أني السبب فيما ألم به.

2- العرب سموني مستوطناً

أسماني العرب مستوطناً، وكثيرا ما تستخدم لفظة " مستوطن" في سكن الطلاب للإشارة إلى كل من ترى الإدارة أنه يقيم بشكل غير شرعي. وكانت رسوم الإقامة توزع بالتساوي على الطلاب المقيمين في الغرفة والذين كان عددهم ثلاثة. وكان معظم الطلاب من المدن وبخاصة من الناصرة.

وكان المستوطنون عامة من الطلاب الذين تأخروا في التسجيل للإقامة في سكن الطلاب أو ممن تأخروا في دراساتهم أكثر مما ينبغي ومن هنا لم يعد يحق لهم السكن في غرفة مستقلة. وكان يوجد في كل غرفة سريران فقط، ومن هنا كان المستوطن ينام عادة على اى كنبة. أما أنا فكنت المستوطن الوحيد المقيم في سكن الطلاب دون أن تكون له

علاقة بالدراسة. وكان سكن الطلاب محاطا بعدد كبير من جنود الشرطة سواء من اليهود أو الدروز، ومن هنا كان الدخول إليه يستلزم إبراز بطاقة الهوية. وتطوع عادل بإعطائي بطاقته وادعى أمام سكرتارية سكن الطلاب أنه فقد هويته، وسددت له الغرامة المقررة، وأعطيته المال اللازم لاستخراج صورة جواز سفر جديدة.

وفي غضون أسبوع من إقامتي بالسكن عثرت على عمل، ولم أواجه مشكلة في هذا الأمر فتوجد في القدس الكثير من المؤسسات العلاجية التي تحتاج دائما إلى أشخاص يتولون مهمة رعاية المرضى. ويفضل اليهود تشغيل العرب ممن يحملون بطاقات هوية زرقاء خاصة أنهم يستطيعون التحرك حتى في الأوقات التي يتم فيها وضع الحواجز وفرض الحصار، وهذا على خلاف العرب المقيمين في الأراضي والذين لديهم بطاقات هوية صفراء. وقد اشتغلت في إحدى هذه المؤسسات قبل نهاية الانتفاضة الأولى، أي في الفترة التي تغيب فيها عرب الأراضي كثيرا عن العمل في داخل إسرائيل.

وبدأت في العمل في مسكن من يعانون من الإعاقة، وكنت مسئولاً في الوردية عن ستة أطفال كان بعضهم يعاني من التخلف العقلي، وبعضهم الآخر يعاني من أمراض أخرى. ولم يحبني هؤلاء الأطفال ولم أحببهم. وكنت أصحبهم إلى دورات المياه، حيث كنت أحميهم بالفرشاة، وكنت حريصا على نظافتهم. أما الفتيات فكنت ألقى عليهن عن بعد المياه خاصة في فترات دورتهن الشهرية. وكنت آخذهن إلى غرفة الطعام وإلى ورش الأنشطة وإلى حديقة الألعاب المهجورة. وفي بعض الأحيان كنت أسير معهن في الطرقات اللاتي كانت تمتلئ بالقاذورات، غير أني مع مضى الوقت وبشكل ما اعتدت على المكان.

وكنت أعمل طيلة النهار، بل وكنت أعمل في ورديات مزدوجة في عطلات نهاية الأسبوع. وكان الأجر الذي كنت أتلقاه ضئيلا للغاية ومن هنا كنت أعمل ساعات إضافية حتى يمكنني الحصول على أجر جيد. وماعدا هذا العمل لم يكن لدى ما أفعله. ولم أعرف أحدا سوى عادل الذي لم أكن أراه كثيرا خاصة أنه كان منشغلا دائما بدراسته القانونية كما أني كنت منغمسا في عملي.

وحينما كنا نلتقي كنا نتوجه إلى أقرب محل ونشتري أرخص زجاجة خمر تحتوي على أعلى نسبة من الكحول، وكنا نشربها معاً في موقف سيارات سكن الطلاب. وكان يود دائما أن أحدثه عن طرق ممارسة الحب في حين كان يحدثني دوما عن الفتيات. وكانت سهرتنا تنتهي دائما بتقيؤ كل ما شربناه من نبيذ والعودة إلى الغرفة. وكنا ننام معا على سرير أي طالب غائب عن الغرفة.

وفي بعض الأحيان وحينما كنت أشعر بعدم الرغبة في العودة إلى سكن الطلاب كنت أتوجه إلى الجامعة وخاصة إلى قسم علم النفس، وكنت أقف خارجه في انتظار نعمي. وحاولت في البداية أن أحدثها وأخبرها عن أني أعمل الآن وأني قادر على دعوتها لأي مطعم. غير أنها كانت منشغلة عني دائما. وفي بعض الأحيان كنت أراقبها عن بعد محاولاً معرفة إذا ما كانت تعرفت إلى شخص غيري. وحاولت أن أعرف إذا ما كانت مكتئبة مثلي وأنها لازالت تبادلني الأشواق وأن هذا الفراق لم يحدث إلا بسبب موقف أمها تجاهي. غير أنها كانت تبدو سعيدة وتسير مع أصدقائها إلى الكافتيريا أو إلى المكتبة.

وكان العمل يعطيني بالإضافة إلى الراتب بطاقة تمكنني من أن أستقل الحافلات مجانا، فكنت أستقلها لساعات طوال أطل خلالها عبر النافذة على الأفراد والمحال والسيارات. وكنت أنزل من الحافلة وقتما

أشاء لأصعد حافلة أخرى، وكنت أحرص على ألا أركب نفس الحافلة خشية أن يلاحظ راكبوها أو سائقوها ترددي بكثرة عليها. وفي بعض الأحيان كان يغلبني النعاس فكنت أنام في الحافلة ولا أستيقظ إلا حينما يناديني السائق بأننا وصلنا إلى آخر محطة.

عرفت عن ظهر قلب مسارات كل الحافلات إلى الدرجة التي عرفت فيها إلى اين تتجه كل حافلة، والطرق التي تسلكها، ومسارات كل الطرق من مسكن الطلبة إلى العمل. وحفظت مواعيد مجيء الحافلات، وملامح السائقين. وبدأت في مرحلة ما أطأطأ رأسي كلما صعدت حافلة حيث كنت أشعر أني أعرف ملامح السائقين أكثر مما ينبغي. وكنت أعرف الأماكن التي توجد بها اختناقات مرورية ومتى يصعد العجائز والأطفال والمتدينون للحافلة، وأية حافلات يتواجد فيها العرب بكثرة.

في أحيان أخرى كنت أحاول أن أشغل نفسي بالتفكير إذا ما كان ركاب الحافلات متجهين إلى العمل أم إلى المدرسة أم إلى السوق أو إلى المستشفى. وفي بعض الأحيان كانت تعن إلى فكرة معرفة محل إقامة أحد الركاب فكنت أهبط من الحافلة وأتعقب خطاه عن بعد واضعاً سماعات الموسيقى في أذني. وفي أحيان أخرى كنت أتوجه إلى المحطة التي توجد بها المدرسة الداخلية وأعود في الحال.

وقد ساعدني عادل كثيرا في أداء اختبار الثانوية العامة في الرياضيات، واجتزت هذا الاختبار وتمكنت من الالتحاق بقسمين في الجامعة كانت شروط القبول فيهما منخفضة للغاية. وتناولت في بعض الأحيان وجبة "الشنيتسل" اليهودية والأرز في أحدى الكافيتريات في جيفعات رام. وفي هذه الأيام لم أفكر في الحرب قط.

3- نهضت في الصباح وأعددت القهوة وقررت الزواج

مضت أربع سنوات منذ أن تعرفت في محطة الحافلات القريبة من موقف سيارات سكن الطلاب على سامية، وهي من اللاجئين غير أنها تحمل بطاقة هوية زرقاء مما يعني أن قريتها أبيدت خلال الحرب، كما أن بعض أفراد أسرتها يقيم في الطيرة. ونعرف بعضنا البعض حيث درسنا معاً في المدرسة الابتدائية ولكن في فصول مختلفة. ولم نحدث بعضنا قط. وحينما صافحتها لأعرفها بنفسي ابتسمت وقالت إنها تعرفني. وأحسست أنها تبدو على ما يرام. وحينما صعدت الحافلة وجلست بالمقعد الخلفي وجدتها تحقق حلمي وتجلس بجواري. أحسست بسعادة طاغية لأني لم أجرؤ قط على الجلوس بجوار فتاة عربية.

وسألتني "أتعرف كيف الوصول إلى هداسا ؟" فأجبتها "نعم إن الحافلة ستتوجه إلى المحطة المركزية ومن هناك يمكننا استقلال الخط رقم 27، وسأرافقك".

كانت هذه هى المرة الأولى التي تتوجه فيها إلى القدس، وعرفت أنها في حاجة إلى مساعدتي خاصة أني على معرفة بوسائل النقل العام وأعرف أسماء الشوارع والأماكن في القدس. وأحسست أنه يمكنني أن أصحبها في جولة بالمدينة القديمة بالرغم من أني لا أحب السير هناك. ومع هذا سأصاحبها إلى اى مكان تشاء حتى لو كان الأقصى. وسأشترى لها هدية وسأقنعها بأني إنسان جيد رغم تعثري في الدراسة.

وستتفهم بالتأكيد أني واجهت الكثير من الصعوبات وأني مررت بإحباطات كثيرة، وربما تكون قد مرت بالإحباط أيضا، وهى تعرف أني من الطيرة وأني حكيم. وحينما أحست بالدهشة لمعرفتها أني أدرس بقسم الفلسفة، أوضحت لها أني التحقت بهذا القسم لحبي للفلسفة،

وأن سوق العمل يطلب خريجي هذا القسم الذين يعملون في المستشفيات ومكاتب المحاماة. . ومع هذا كنت أشعر أنها ستقع في غرام أحد طلاب كلية الطب، ولهذا قلت لها أني اعتزم أن أدرس الدكتوراه بعد انتهائي من الدراسة.

وبعد أن نزلنا من الحافلة اصطحبتها حتى محطة الخط رقم 27 وانتظرنا مجيء الحافلة فأنا على دراية بطبيعة السفر للمرة الأولى إلى القدس. وقبل أن نفترق أخبرتني برقم غرفتها، وأعطيتها رقم غرفتي. وحينما رجعت إلى سكن الطلاب بحثت في الحال عن غرفتها في الممرات الطويلة الضيقة غير أنها لم تكن فيها.

وراودني إحساس بالدهشة مما فعلت فسألت نفسي كيف يمكنني القيام بهذا الأمر وكيف أتورط في قصة حب جديدة، ولا يمكنني أن أنشغل بأي شيء آخر بعدما فشلت في الدراسة، وأنه لا يمكنني أن أضيع فرصة إثبات أني قادر على النجاح والحصول على درجات مميزة. وأنه يجب أن أتعلم من أخطائي السابقة.

وحينما عدت إلى غرفتي التقيتها على الدرج فقالت "بحثت عنك، وبحثت عن غرفتك ساعة كاملة".

مضت أربع سنوات على تعارفنا، ولازلنا معاً، وقررت ذات صباح عند شرب القهوة أن أوقظها وأن أخبرها أني عازم على الزواج بها. وكانت تسكن حتى الأمس فقط في سكن الطالبات في الوقت الذي كنت أسكن فيه مع شركائي اليهود. والآن وبعد أن انتقلت إلى حي عربي أصبح علينا الزواج خاصة إذا كنا سنواصل النوم معا. ومن المؤكد أن أصحاب البيت الذين يقطنون الطابق العلوي لن يسمحوا لنا بالنوم معا طالما أننا غير متزوجين. وأعلم أنها لن تتركني قط ولهذا فما الداعي لإرجاء الزواج؟

وفي هذه الفترة لم أعرف إذا ما كانت تتمسك بي لأنها تحبني أم لتوضح لي أنها لن تفارقني البتة، وكانت تخبرني دائما أني وعدتها بالزواج، ولم يكن من الممكن أن أخون هذا العهد خاصة أن خيانته من الممكن أن تدمرها. ويعلم كل من بالطيرة أننا نخرج معا. ولو كان الأمر متعلقا بها ما كانت سمحت لي أن نسير متشابكي الأيدي، وما كانت سمحي لي أن أضاجعها قط. وحدثتني أن سكان الطيرة يعيدون البنات غير العذارى إلى منزل الوالد في ليلة العرس، وأن عمتها أصيبت بذبحة صدرية بعد أن عادت بنتها إلى المنزل في ليلة العرس لتأخذ فرشاة الأسنان التي نستها في المنزل.

ولم أصدق أنها ستواتيها الشجاعة وستنام معي في أول ليلة أقضيها في أحد الأحياء العربية. وبعد أن قامت بتنظيف البيت، قدمنا أنفسنا أمام أصحاب الشقة بأننا عقدنا حفل الخطبة منذ فترة. وفي المقابل لم يكن من الضروري أن نتحدث عن هذا الأمر لو كنا سنقضي الليل لدى اليهود. وكانت سامية تزورني دائما وكانت تنام عندي كلما شاءت.

وقد أحبها شركائي في الغرفة من اليهود، وكانوا يتعاملون معها بشكل طبيعي، وهذا على خلاف الطلاب العرب المقيمين في سكن الطلاب الذين كانوا يروجون دائما الشائعات. وكان هذا الأمر يغضب سامية التي كانت تقول " إنك رجل ولن يحدث لك شيء".

ولم يتبق أمام سامية في هذه الفترة سوى تقديم بحث واحد فقط ، وكان عليها فيما بعد العودة إلى الطيرة خاصة أنه لم يكن لديها ما تقوم به في مدينة غريبة عنها فضلا عن أن والدها عثر لها على وظيفة في بلدة الطيرة. وكانت سامية تردد دائما إنه ليس لديها ما يمكنها القيام به في القدس، كما أن والداها كانا يرفضان حجة أن لديها بحثا عليها أن تقوم بإعداده وكانا يقولان إنه يمكنه أن تقوم بإعداده في البيت.

وكنت أحرص دائما على تأمل ملامحها وهي نائمة، فكنت أراها فاتنة شديدة الجمال وهي مستلقاة على جانبها ووجهها إلى الحائط. وأيقظتها فجأة من النوم قائلا "انهضي سنسافر الآن إلى المنزل لنتزوج"، فسألتني : " الآن ؟" وأسرعت بطلب أجازة من العمل ليومين وسافرت للزواج.

ولم يعارض أبي فكرة الزواج بل كان مرحبا بها، ولم يكن معنياً بأني أبلغ من العمر اثنتين وعشرين عاما فقط، فقال إنها من عائلة محترمة وكل أفرادها من الشيوعيين، وهم أصدقائي.

وكانت أمي سعيدة للغاية أيضا خاصة أن سامية تحمل مؤهلا عاليا، وكانت تري أن زواجي منها سيساعدني على العودة إلى الجامعة، وكانت تقول : "ألا تخجل من أن زوجتك تحمل مؤهلا أعلى منك، إني أحبها لأنها وافقت على الزواج منك".

ورحبت جدتي كذلك بالزواج بقولها إنها تعرف اللاجئين وإنها عملت معهم كثيرا في جمع الثمار، وأن نساءهم من أفضل نساء القرية، وقالت "لتحضرها وأحب أن أراها"، هذا بالرغم من أنها ترى بصعوبة بالغة.

ويقول أبي إنه لا يمكن لأحد أن يتزوج على هذا النحو في القرية، وإنه "لا يمكن أن يتم الزواج في يومين وإذا وافقنا على هذا فلن يوافق والداها بالتأكيد". وكان يبرر موقفه بقوله إننا لن ننجح في العثور على قاعة للعرس في يوم واحد ولن نستطيع دعوة كل الأقارب لكني أوضحت له إني لا أرغب في حضور أحد سوى المأذون غير أنه لم يكن من الممكن أن يقبل والداى أن يتفوه أحد عليهما بسوء. وكان أبي يردد دوما " ألا يكفي أن هذه المسكينة ستتزوج شخصا ليس له بيت وهل أنت واثق أن والداها سيوافقان؟"

ولم يكن أمام والدي سامية من خيار سوى الموافقة خاصة بعد أن فتكت الشائعات بهم، فسمعت والدتها ما لا يرضيها عن بنتها عند ذهابها لحضور سرادق العزاء في القرية، كما أن والدها كان يسمع ما لا يرضيه في خطبة الجمعة التي كان خطباء الجوامع يتحدثون فيها عن بنته. وبالرغم من أن الخطباء لم يذكروا اسمها صراحة إلا أنهم كانوا يتحدثون عن الآباء الذين يرسلون بناتهم للدراسة بالجامعة التي يتحولن فيها إلى عاهرات.

ولم يتنازل والداى عن موقفهما فقررا دعوة كل طرف لمائة فرد، وقرر أبي ترتيب كل شيء مع أصحاب احد المطاعم، كما اشترى والداى ذهب لتقديمه لسامية كما هو متبع مع كل الفتيات في الطيرة وأعطونا أموالا لشراء ملابس جديدة من تل أبيب. واقتنت سامية فستانا من شارع شينكين، أما أنا فاشتريت بدلة من مركز ديزنجوف التجاري. وحينما أتي المأذون وقعت له سبع مرات. وفي المقابل وقع والدها نيابة عنها كما هو متبع في الطيرة. والآن أصبحنا أزواجاً. ولم يتبق سوى انتهاء الحاضرين من تناول الحلويات حتى نذهب إلى بيتنا.

وغداة الزواج اتصلت والدتي بي لتخبرني أن زميلاتها اللائي لم تتم دعوتهن إلى العرس يقلن إنهن سمعن أننا أسرعنا في الزواج لأن سامية حامل وأننا تسرعنا تجنبا للخجل. وقالت سامية إن باقي أفراد أسرتها لم يتفهموا إذا ما كانت الدعوة مخصصة للخطوبة أم للزواج حيث إنه لا تقدم في حفل الخطوبة سوى قطع الكنافة فقط في حين أنه تم تقديم وجبة كاملة في المطعم، كما أنه في الوقت الذي ترتدي فيه العروس فستاناً أزرق فإنها ارتدت فستاناً عاديا اقتنته من محلات سينكين. وبكت سامية وقالت إن كل ما حدث بسببي لأني لا أفكر إلا في نفسي

ولأني غير مستعد لأن أقوم بأي شيء من أجلها وأن والديها يشعران بالإهانة لأن حفل زفافها لم يكن مثل سائر حفلات الزفاف.

وانفعل والدي أيضاً قائلاً " يجب أن تأتي خلال الأسبوع القادم مرة أخرى لنضع حداً للشائعات"، وهكذا تزوجنا مرة ثانية، فتمت دعوة ألف مدعو لأحد الفنادق في نتانيا. ولم أعرف أحداً من المدعوين الذين كانوا جميعهم ممن دعيوا من قبل والداى وسامية. وارتديت في حفل الزفاف حلة سوداء وحذاء أسود كما هو الحال في الأفلام العربية. وكان من الضروري أن أضع في إصبع سامية خاتم الزواج وأن أرقص معها بالرغم من أني لا أعرف شيئا عن رقصة الدبكة. وكان من الضروري أن أقطع التورتة وأن أقبل أشخاصا لا أعرف حتى أسماءهم. وكان من الضروري أن احتضن عماتي وعماتها وأن ابتسم عند التقاط الصور. وكان من الضروري أن أستمع إلى تلك الموسيقى الصاخبة التي تسبب لي صداعا. وكان من الضروري أن أتحمل كل هذا دون أن أتناول الخمر أو أدخن السجائر، فأنا ولد طيب خجول.

4- بيت صفافا

انتقلنا بعد مضى بضعة شهور على زواجنا إلى منطقة بيت صفافا التي كانت ذات مرة قرية صغيرة، غير أنها أصبحت الآن جزءا من القدس. وحقا ما أجمل أن تكون غريبا لا يتعقبك أحد، فنحن الآن لسنا محل اهتمام أحد فلا يهم صاحب البيت سوى أن نسدد الإيجار في الموعد المحدد. ورغم أننا نسكن لدى عرب إلا أننا لا نشعر بالانتماء إليهم، فليس لدينا أقارب هنا أو معارف وأصدقاء كما هو الحال في الطيرة.

ويقع بيتنا في منطقة احتلت عام 1967، تعرف باسم "جيفعات هماطوس"، نسبةً إلى الطائرة الإسرائيلية التي وقعت فيها في الحرب. وشهدت الفترة الواقعة بين عامي1948 و1967 تشييد جدار في منتصف القرية قسمها إلى جزأين، فلم يستطع سكان القرية عبر تسعة عشر عاما زيارة بعضهم البعض. وتروي صاحبة العقار أن الجنود الإسرائيليين والأردنيين كانوا يسمحون في الأعياد لسكان القرية بالاقتراب من الجدار ومصافحة بعضهم البعض، وأظهرت لنا صوراً من حفل عرس تم فيه زفاف العروسين على طرفي الجدار حيث أقام بعض أبناء الأسرة في الأردن وبعضهم الآخر في إسرائيل. وتقع القرية الآن بأكملها تحت سيطرة إسرائيل غير أن سكان الجزء الذي تم احتلاله في عام 1967 يحتفظون ببطاقة إقامة في حين أن من يقيمون في المنطقة التي تم احتلالها في عام 1948 يحتفظون ببطاقة مواطنة، ويتم النظر إليهم على أنهم ينتمون إلى مكانة أكثر سموا وأكثر إخلاصاً. وعلى الأقل فإن بيوتهم أكثر علوا من غيرها من البيوت.

أما أنا وزوجتي فمن المواطنين، ولهذا فإن صاحبة البيت تعاملنا باحترام خاصة أن لدينا تأمينا صحيا وقوميا كما أننا نجيد العبرية. وتتسم المنازل الواقعة في نصف القرية الذي أحتل في عام 1967 بأنها أرخص بكثير من غيرها حيث إنه لا يوجد بها صرف صحي، كما أنها تتلقى المياه والكهرباء من شركات عربية، فضلا عن أن خدمات المياه والكهرباء بها غير منتظمة. وحينما نشبت الحرب أصبح النصف الفلسطيني أكثر عرضة للتهديد فأصبحت الكهرباء تنقطع كلما قصفت إسرائيل بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور. وبالرغم من وجود مستعمرة ضخمة تفصل بيننا وبين مراكز التجمعات التي يتم قصفها إلا أننا لازلنا ننتمي إلى الفلسطينيين على الأقل في كل ما يتعلق بالمياه

والكهرباء. وقد أصبحت الحياة في ظل الانتفاضة بالغة الصعوبة فبدأ يراودني وزوجتي الإحساس بالأسف لأننا لم نستأجر منزلاً في النصف الإسرائيلي من القرية. نعم كان سيصبح إيجاره غاليا إلا أنه كان من الممكن أن نكتفي ببيت أصغر.

ومنذ أن وقعت الحرب أصبحت أعدادا متزايدة من الجنود الإسرائيليين تجوب الجزء الفلسطيني كما أن انقطاع الكهرباء على نحو مستمر جعل الشتاء أكثر صعوبة للطفلة كما كنا نسمع هنا دوي القذائف غير أنها لم تكن تصل إلينا. وكان الجانب الفلسطيني من قرية بيت صفافا ينعم بالهدوء خاصة أن سكانه كانوا يعلمون أن مشاركتهم في الانتفاضة تعني مغادرة المواطنين العرب لشقق الإيجار التي هي مصدر دخلهم الرئيسي. وكان الجزء الفلسطيني من بيت صفافا يشهد نشاطا ملموسا في بناء الشقق المخصصة للإيجار التي كان يستأجرها مواطنون مثلنا يفرون من قراهم إلى المدينة الكبيرة. وكان سكان هذه القرية يتعاطفون مع من يتعرضون للقصف على بعد بضعة مئات الأمتار منهم، وكانوا يجمعون المال ولعب الأطفال ويهدونها لأطفال مخيمات اللاجئين، غير أنهم لم يرموا ولو حجرا واحدا على الجنود اليهود الذين كانوا يملئون القرية. ومن المحير بالفعل تأمل ما يكون البشر على استعداد للقيام به من اجل الرزق.

وبيتنا صغير للغاية، فتنام طفلتنا معنا في غرفة النوم، كما أن المطبخ صغير للغاية ولا تختلف عنه دورة المياه. وحينما كان يلقى أحد اليهود مصرعه في الحرب كانت صاحبة البيت تعد البسبوسة وتحضرها لنا على طبق صغير، وكانت تنزل حجابها من على رأسها وتضعه على فمها حتى لا يسمع احد زغاريد إحساسها بالفرح.

وصاحبة المنزل لاجئة فلسطينية من قرية مالحه، وتصعد في بعض الأحيان إلى السقف لتشاهد بيتها الذي لازال واقعا هناك على بعد مترين فقط من المسجد. وكانت قد فرت في عام 1948 للجزء الجنوبي من بيت صفافا الذي أصبح أردنيا، وتعمل منذ عام 1967 في الجامعة، فهي مديرة قسم، ومسئولة عن الخدمات التي تقدم لكلية الحقوق. وحينما وقعت الحرب لقى أخوها مصرعه وهو في طريقه إلى المسجد الأقصى. وكان أخوها يعمل سباكاً وكانت لديه سيارة فيات صغيرة، وكانت أخته تستدعيه كلما واجهتنا مشكلة في الشقة. وكان قد زارنا في منزلنا مع زوجته حينما أنجبنا بنتنا ، وأحضر أطفاله هدية لنا.

5- قناة الأزياء

كنت أحاول وأنا مستلقي على الأريكة أن أشغل نفسي بمتابعة قناة الموضة، وبفساتين العرائس التي تتراءى أمامي، وكنت أحاول تذكر حفل زفافي غير أني لم أكن أقوى على التذكر. ولا أذكر الآن سوى أن أخ صاحب البيت عقد قرانه دون أن يوجه الدعوة إلى عدد مبالغ فيه من الضيوف، ودون حفلات موسيقية أو تقديم الطعام. واقتصر حفل الزفاف على نصف ساعة جلست فيها عائلته وعائلتها.

ولازالت الطلقات تدوي في الجو، ولازال انقطاع الكهرباء يوقظ زوجتي من مرقدها، ولا أتفهم لماذا تستيقظ كلما عم الهدوء وكلما عم الظلام. وكلما تستيقظ تناديني بصوت تحاول أن تجعله قوياً لأسمعه وإن كانت تحرص على ألا يوقظ الطفلة لتخبرني أن الشمعة على التلفزيون.

وفي الصيف تسمع الطلقات والقذائف بشكل أوضح، وفي الليل نسمعها بشكل أفضل، ونحاول في هذا الظلام تخيل المكان الذي تتساقط فيه القذائف، والمواقع التي تدنو منها الطائرات العمودية باحثةً عن أهدافها. ولا مانع أيضا من تخيل الطيارين الذين هم بالتأكيد في سني غير أنهم بالطبع مختلفون عني فأجسادهم بالتأكيد قوية ووجوههم جميلة. ولا شك أنهم سيفرغون من مهمتهم الليلة وسيهبطون بعدها من طائراتهم ليخلعوا فيما بعد خوذاتهم، ويرتبوا تسريحة شعورهم ذهبية اللون بحركة توحي بالثقة.

وبعد قليل تواصل صوت الطلقات، فنهضت زوجتي من مرقدها، ولا أدري كيف أثار ظلها الذي ارتسم على الحائط في نفسي الرعب. وتثاءبت زوجتي قائلة " كما يبدو أننا غير منتمين. إننا نكتفي بمشاهدة ما يحدث فقط من الجانب مثل الأجانب. ولا نفعل شيئا".

وبادرتها قائلا "سأتصل غدا بشركة الكهرباء، فلا يمكن لهذا الوضع أن يستمر، وسأوبخهم لانقطاع الكهرباء المستمر".

سأوبخ والدي أيضاً لأنه زرع في قلبي الأمل، إنه خدعني حينما علمني أن أنشد أغنية "خرجنا إلى الشوارع ورفعنا الأعلام، وغنينا لبلادنا أغاني جميلة". وسأوبخه لأنه قال لي خلال الحرب اللبنانية إن هذا الظلام الدامس سيعقبه فجر ساطع. وأضحك الآن عليه كلما اسمعه يقول عند قصف غزة ورام الله " هذه هي نهايتهم".

وأتذكر الآن كم غنينا للحرية والوحدة والقومية، وأتذكر أن أبي كان يحرص دائما على رفع صوته كلما غنينا أغنية" الثورة الشعبية طريقنا للنصر". لن أغفر له لأنه علمنا أنه من الممكن أن نهزم العدو بحرق الإطارات وإلقاء الحجارة.

لم يعد في قلبي أي أمل وامتلأ الآن بالكراهية. إني أكره أبي فبسببه لا أستطيع مغادرة الأرض، ولأنه علمني أنه ليس لي مكان آخر، وأنه من الأفضل أن أموت على ثراها، وأنه ليس من الممكن التنازل عنها. وحينما أراه أخبره صراحة أنه لولا كل هذه الآمال الواهية التي جعلتنا نتمسك بها لكنت تركت المكان منذ أمد بعيد. وبالرغم من أنه فقد الاتزان مثلي إلا أن الأمل في الأرض لا يزال يراوده، ولاشك أن المنية ستوافيه في التو لو تخلى عن الأمل الذي لازال الجميع يشعر به بالرغم من انه يخفت تدريجيا. وحتى عندما تلح عليه الرغبة في البكاء حينما يهاجمون الناصرة فإنه يردد من بين نحيبه أن هذه الأزمة تبشر بالخلاص. إنه لازال يردد ما سبق له أن قاله حينما كان في المعتقل.

ولا أذكر متى شاركت في آخر مظاهرة، ولا أذكر أكانت هذه المظاهرة من أجل الاحتفال بيوم الأرض أم من أجل يوم النكبة أم من أجل مجموعة من العمال العرب لقيت مصرعها صدفةً عند أحد الحواجز. واذكر أن أبي ورفاقه جلسوا في احدى الليالي التي سبقت احدي المظاهرات يكتبون شعارات احدي المظاهرات، واذكر أني أحضرت لهم الألوان التي طلبها والدي لكتابة الشعارات. وقد رأيت من بين الحضور معلم مادة الرياضيات بالمدرسة غير أنه تصرف على نحو يوحي بأنه لا يعرفني. وكان من بين الشعارات التي كتبوها " يا بيرس يا شارون هذه أرضنا"، و "أرنب الجولان أسد في لبنان" وكتبوا أيضا" اسعدي يا أم الشهيد فكل الأطفال أطفالك". ورسم أبي ورفاقه أعلام فلسطين، وطلبوا مني ومن أخواني تلوين الأعلام بالأخضر والأسود والأحمر والأبيض. وكنت قد تعلمت آنذاك رسم العلم غير أننا اختلفنا حول إذا ما كان الأخضر هو الذي يأتي في بداية العلم أم الأسود. وقال أبي إن هذا الخلاف لا يغير من الأمر شيئا والأساس هو النية.

وفي الغد لم أتذكر ما هى النية، وقال أبي إن الأساس هـو المشـاركة في التظاهرة. وخرج أبي من المنزل مـع رفاقـه حـاملين مكـبرات الصـوت وخرجت مع أصدقائي خلفهـم حـاملين اللافتـات. وتبينـت مـن أصـوات مكـبرات الصـوت صـوت أبي، وبـدأ السـكان في الانضـمام للموكـب. وأحسست أن الجميـع متواجـد في المسـيرة، ومـع مضى الوقـت تحولـت التظاهرة إلى مسيرة عملاقة. وحاولت مع أخـواني الاحتفـاظ بأماكننـا في المسيرة بالقرب من السـيارة التـي تحمـل أبي. وحيـنما عـاودت السـيارة المـرور بجـوار البيـت رأيـت أمـي وجـدتي تحمـلان الميـاه لتقـديمها للمتظاهرين. وقالت أمي من بين دموعهـا " الله يبـارك لهـم"، وأوقفـت السيارة وقدمت لوالدي المياه المثلجة التي يحبها.

تساءلت زوجتي بمرقدها أهى الحرب؟ ! وأدركت في التـو أنـه مـن الضروري أن تعـود إلى سريرهـا بعـد أن بـدأت أميـز سرب الطـائرات، وسـمعت في الحـي ضـجيج اليهـود وسـمعتهم يتجمعـون ويكـثرون ويسيرون في الطرق. وكـان البيـت الـذي اسـتأجرناه منعـزلا عـن الحـى، وقريبا لليهود. وطرق صاحب البيت بـاب الشـقة، وكـان يحمـل في يـده فانوسا، وكان وجهه يفيض بالذعر، وقال "إن اليهود يهاجمون البيت".

وكـان صـوت اليهـود آخـذ في التزايـد، ورأيـتهم مـن تحـت ضـوء الفوانيس يتدفقون نحـو بيتنـا. حقـا إن البقـاء هنـا لم يعـد آمنـاً، ومـن الأفضل الاستجابة لدعوة صاحب البيت بالتوجه إلى بيت والديه القـديم الواقع في منتصف القرية حتى نكون أكثر أمانا.

وبـدأت زوجتـي في البكـاء، فأخبرتهـا "إننـا مسـافرون إلى أرضـنا"، ورفعـت الطفلـة مـن سريرهـا، غـير أنهـا صرخـت، فأسرعـت بتغطيتهـا ببطانية، وبدأنا السفر. وكنت آمل ألا يكونوا أغلقوا ممرات الخروج غـير أني إذا لقيت دوريات الشرطـة المتنقلـة سـأخبر الجنـود أني مـواطن وأني

استأجر شقة هنا، وسأظهر لهم بطاقة الهوية التي استخرجتها من وزارة الداخلية الإسرائيلية في نتانيا. وسأخبرهم أني لست فلسطينيا بالفعل، وأن الطفلة مريضة.

وانزاحت الغمة بعد أن وصلنا إلى الجزء المضيء من المدينة، فلم يعرفني أحد، واعتمد بالفعل على أني أبدو يهوديا، غير أن المشكلة تبدو بالفعل في زوجتي، وأتساءل في مثل هذه المواقف ألم استطع أن أجد زوجة لون بشرتها أكثر بياضا؟ وقد حاولت زوجتي أن تهدئ الطفلة باللغة العربية غير أني كنت أنهرها دائما وأطالبها بالتزام الصمت إذا كانت تريد البقاء على قيد الحياة. لم يكن اليهود وصلوا بعد إلى مدخل المدينة. أما هؤلاء الذين كنا نلقاهم فكانوا يحدقون بأعين يملؤها الشك في السيارة، هذا الشك الذي كان يتبدد حينما كانوا يروني. يتعين علينا الفرار من هنا، ومن حسن الحظ أني لست ممن يضعون المسبحة على مرآة السيارة أو أية كتابة باللغة العربية. إن سيارتي السوبارو كل ما بها يهودي ومن حسن الطالع أنه ليست لي سيارة بيجو أو اوبل قديمة. لقد عرفت دائما أن أتخفى.

وحرصت طيلة سيري بالسيارة ألا أتوقف عند محطات الإذاعة العربية بالمذياع، وكنت أحرص في المقابل على الاستماع لإذاعة الجيش الإسرائيلي، ورفع صوت المذياع حتى خروجي من المدينة التي كانوا يحرقون فيها المساجد ويطلقون النار على القرى والمدن. وهاجمني ألم غريب في مفاصل اليدين والقدمين حتى وهنت للغاية وكادت تتوقف عن العمل.

وخرجت من القدس مسرعا أكثر من أى وقت مضى، ولم أسافر مع طفلتي الصغيرة طيلة حياتي بهذه السرعة ، وكنت خائفاً من أن تتحطم السيارة عند النقاط التي كان الطريق ينحرف فيها بشدة. وكانت الطرق

تقطعها دائما الشاحنات التي تحمل على ظهرها الدبابات المغطاة بالشبك والقماش الأخضر. وكنت أسير بسرعة ضخمة غير أنه كان ينبغي على أن أحذر من جنود الشرطة الذين كان من الممكن أن يكونوا في مثل هذه اللحظات أكثر خطرا. ولم أكن مستعدا في مثل هذه اللحظة للوقوف أمام أى جندي يطلب مني بطاقة الهوية ويعرف من خلالها من أنا.

6- في أيام العمليات الفدائية

تقول زوجتي عند وقوع العمليات الفدائية علينا أن ندخر بعض الشيء، ولسنا في حاجة للاشتراك في القنوات الفضائية، ويمكننا أن نستخدم ما ندفعه كل شهر من أموال لمشاهدة التلفاز في اقتناء أشياء جديدة، ويمكننا أن نستبدل الصالون، خاصة أنه ليست لدينا سوى مجموعة من الأرائك. وترى أنه علينا أن نقتني موقدا جديدا وجهاز ميكرو ويف لتسخين الطعام للطفلة. ولا تريد أرائك باهظة الثمن وإنما تريد أرائك مقبولة الشكل فقط. مثل تلك التي رأتها في محل " جولان للأثاث "، وتصر على أننا لسنا في حاجة لأثاث غال خاصة أننا ننتقل من شقة إلى أخرى كل عام أو عامين مما يحطم ما لدينا من أثاث، فكسر العمال مقبض الثلاجة ولم ينجحوا في إعادة ترتيب دولاب الملابس حينما انتقلنا في المرة الأخيرة إلى شقتنا الحالية.

وتقول زوجتي إنه من الممكن أن نقتني أثاثاً أنيقاً عند الانتقال إلى بيتنا في الطيرة خاصة أننا انتهينا من وضع أساس المنزل في الطيرة، ويمكننا الانتهاء في غضون عام من بنائه وبمساعدة الوالدين. وسيساعدنا والدها في اقتناء الأجهزة الكهربائية، وهكذا فإن الرجل يبني، وتقوم المرأة بتوصيل الكهرباء. وكان والد زوجتي قد اقتني لأختها الصغيرة

أجهزة جيدة وغالية. وبالرغم من أنه بخيل إلا أنه يرى أنه من الضروري أن يترك انطباعا جيداً لدى الغرباء مثلي.

وفي حالة عدم عودتي الآن للطيرة فإن كل الأموال التي ادخرها والداى لي ستذهب إلى أخي الصغير الذي أنهى دراسته وعاد للقرية، وسينضم إلى أخي الكبير الذي تزوج منذ نصف عام ويسكن حاليا في بيت يقع خلف منزل والداى، وبيته كبير وجميل تحيطه حديقة ضخمة. ويقع بجوار بيته بيتان أحدهما لي والآخر لأخي الصغير وإن كانا لم يجهزا بعد. ولا تتفهم زوجتي لماذا تروق لي الإقامة في بيت صفافا التي يحيطها اليهود المخيفون من كل حدب وصوب. وترى أن الطيرة أفضل في كل شيء فلا نسمع فيها على الأقل أصوات الطائرات العمودية وأصوات الأسلحة، كما أنهم لا يقطعون الكهرباء عن الطيرة كلما وقع هجوم على بيت جالا. وتصر زوجتي على العمل في المجلس البلدي في الطيرة خاصة أنها لم تعد تحتمل الذهاب إلى العمل في بيت صفافا حيث يقاطعها الجميع في العمل كلما وقعت عملية فدائية. وتعلم زوجتي أنهم يحتاجون في الطيرة إلى كثير من الموظفات لمواجهة المشكلات.

وقبل أن يتقدم أخي الصغير لخطبة صديقته سألني عما إذا كنت أعتزم العودة إلى المنزل، وأنه يفضل أخذ بيتي في حال عدم عودتي. ويرغب أخي في إتمام زواجه بسرعة من صديقته التي أهلها من قرية عاره والتي درست معه. وقلت له إنه يمكنه الحصول على بيتي فأنا لن أعود إلى الطيرة البتة.

ولم أتفهم كيف تمكن أبي من تدبير المال اللازم لبناء ثلاثة بيوت، لقد كنت واثقا انه ليس لديه ما يكفيه من المال خاصة أنه كان دائم الشكوى من مصاريفي الدراسية، وكان يقول إنه لو كنت أدرس مواداً

مفيدة لما كان تململ ولكنـي أضيع وقتـي. وقـد بـدأت في العمـل منـذ التحاقي بالجامعة، ولم أكن أرغب في الإقامة في المدينة الجامعيـة، وقـال أبي إني إذا كنت مصرا على استئجار شقة فعلى أن أبحث عن عمل.

وقالت زوجتي علينا أن نوفر مثلما وفر والـداك، وإلا كيـف تعتقـد أنهم أتوا بالمال، وتحسب زوجتي في بعض الأحيان قيمة الأثاث والمنـازل والأرض التي يقيم عليها الوالدان، وتـرى أن قيمتهـا لا تقـل عـن مليـون دولار. وتقول على ألا أكون ساذجا، وأن والداى وفرا بلا شك منـذ زفـاف أخي الأكبر وفي أقل من عام ما لا يقل عن خمسـين ألـف دولار. وقالـت إذا استمررت هكذا فلن أحصل عـلى شيء مـنهم، ولـن يتطـوع والـداى بإعطائي شيء البتة.

ولا اشعر بصدق زوجتي إلا عندما أرى طائرة عمودية تحلـق فـوق البيت وعندئـذ اشـعر أنـه آن الأوان للعـودة إلى الطـيرة، والخـلاص مـن القدس، والبدء في شيء جديد، وأنه إذا لم أعد الآن سيصبح على الانتظار حتى ينتهي والداى من تأثيث بيت أخي الأصغر استعدادا للـزواج. لقـد حانت الفرصة. إن الحياة هناك أفضل وأكثر وضوحا. وتقول زوجتي إنـه لم يعد لدى ما أخفيـه أو التسـتر عليـه فوالـداي يعلـمان الآن أني اشرب الخمر وأدخن السجائر. إن زوجتي لا تتفهم البتة كيف يمكن لرجل بلغ الخامسة والعشرين من العمر أن يتخوف من معرفة أهله بأنـه يـدخن. ولم أجرؤ على أن اطلب من والدي سيجارة إلا بعـد أن أنجبـت زوجتـي بنتنا.

أما عن الخمر فيمكنني اخفاءه عن والدي كـما تقـول زوجتـي، ولا غضاضة في الخمر الـذي يتجرعـه والـدي كثـيرا والـذي يخفيـه في غرفـة النوم. ومع هذا لا أجرؤ على أن استعير الخمر منه. وحينما كانت جـدتي تتحكم في كل شيء كانت تفتش عن زجاجـات الخمـر وتحطمهـا خـارج

المنزل، وكانت تستنهض كل الحى بصراخها وعويلها لقيام أبي بتبذير أمواله على الخمر بدلا من توفير المال لأطفاله لتعليمهم بالجامعة. وكانت تصرخ حتى كان وجهها يحمر للغاية ويختنق صوتها. وكانت جدتي تحمل أمي مسئولية سلوكيات أبي الخاطئة فكانت تتهمهما بأنها تسعد عند الجلوس مع والدي وهو يتجرع الخمر ولا تهتم بالأطفال، وتنفق كل شيء على الملابس والمطاعم وكانت ترى أنه من الأجدى شراء شيء نافع للأطفال بدلا من إنفاق المال على الخمر والملابس.

7- عاشقة عربية

كلما أدخل المطبخ أقرر أني في حاجة إلى عشيقة، وتعلم زوجتي أن هذه الرغبة تراودني غير أنها تقول حاليا وبعد أن أنجبت طفلتنا أن هذا الأمر لا يعنيها كثيرا، وأني يمكنني إحضارها إلى البيت، فالإسلام يبيح لي ما يسمى بزواج المتعة.

وتقول زوجتي منذ بضعة أشهر أني لم أعد احتملها وأصدق على ما تقول بأني لم احتملها قط وأني لم أعد احتملها البتة مؤخرا. وحينما تسألني في بعض الأحيان ماذا تغير لا أبالي بالإجابة غير أني أصبحت فيما بعد أقول لم يتغير شيء البتة سوى أنها أصبحت حساسة للغاية منذ أن أصبحت أما.

وابحث عن عشيقة عربية تتفهمني، ومن الأفضل أن تكون متزوجة، ومن الممكن أن تكون مطلقة أو عزباء مرت بتجارب كثيرة في الحياة. وفكرت في نشر إعلان بالجريدة أعلن فيه عن رغبتي في البحث عن عشيقة غير أني تخوفت أن أجد في نهاية الأمر امرأة قبيحة أو أن يحاول بعض الرجال العرب التطفل لمعرفة أى مخبول هذا. ومن الممكن

أن يرسلوا خطابا وصورة إلى صندوق البريد لتحديد موعد للقاء في أي مقهى وعندئذ يدخل أحد الجيران. ولحظتها سأتحول إلى قصة في كل بيت في بيت صفافا.

حقا أصبحت قصة للفشل تتردد على كل لسان، فحدثني سائق سيارة أجرة كنت قد استقليتها في طريقي إلى البيت وبعد أن تبين شخصيتي " نعم إنك من تعود إلى بيتك مخمورا كل ليلة". وأرى أن الكثيرين من سائقي سيارات الأجرة الذين يقودون سياراتهم بالليل يرمقونني بنظراتهم عند توجهي من الخمارة إلى السيارة، وبدأت في حمل أكياس القمامة معي رغم أني لست ملزما بحملها حتى يعرف سائقو سيارات الأجرة أني أعمل ولست أضيع وقتي.

وتخليت بكل أسف عن فكرة العثور على عشيقة في بيت صفافا، بعد أن حدثتني حماتي عند زيارتنا للطيرة عن أن بعض سكان القرية عثروا على امرأة متزوجة مع أحد الجيران أو مع رجل غريب. وتتملكني الدهشة بالفعل كلما سمعت عن خيانة النساء العربيات اللاتي تكون نهايتهن دائما تراجيدية بعد أن يتم القبض عليهن عند ارتكابهن للفاحشة في أحد البساتين سواء الواقعة في تل موند او في " رمات هكوفيش". وقد سمعت في طفولتي كثيرا عن الجرائم التي ترتكب في البيارات بدء من إشعال النار في السيارات المسروقة وقتل الفتيات. وإذا كان هذا الأمر يحدث في الطيرة فمن المؤكد أنه يحدث في بيت صفافا غير أننا غرباء هنا ولا نعرف حقيقة النفوس فيها فضلا عن أني لم أعرف بعد الأماكن التي ترتكب فيها مثل هذه الأمور غير أنه من الوارد أنها تحدث في حديقة الحيوانات التوراتية الواقعة هنا.

وعند عثوري على العشيقة لا أدري أين يمكنني ارتكاب الفاحشة معها، فكل الأماكن التي فكرت فيها تبدو خطيرة للغاية كما أنها

مكشوفة للغاية، ولا يمكن أن آخذها بالطبع إلى المقاهي أو الحانات التي لا يكف العرب عن ارتيادها. ومع هذا فإذا واتتني الشجاعة اللازمة سأصاحبها إلى الغابة في القدس. وهناك يمكننا العثور على زاوية ما يمكنني فيها أن أوقف السيارة وأن أنزل منها مع العشيقة حتى نتحدث ونجلس سوية متأملين الطبيعة. وحينما ينزل الليل يمكننا أن نتبادل القبلات والأحضان في السيارة، وعلى أن أجرب القبلات في السيارة. وقد تأتي بسيارة زوجها التي ربما تكون بي ام دبليو أو فولفو. غير أني لن أسافر إلى الغابة فإذا سرقت السيارة سيصبح علينا السير خمس ساعات متواصلة حتى المدينة. ولو قتلنا احد العرب لن يشعر أحد من العرب أو من غيرهم بالأسى علينا وسيرون ان عقاب السماء هو الذي حل علينا. وأفضل الموت شنقا في أحدى بيارات تل موند عن أن ألقى مصرعي بموجب القوانين اليهودية.

ولست بالتأكيد قبيحا، فتقول زوجتي أني أبدو على ما يرام، وليست لها أية ملاحظات سوى أنها تقول دائما إن رقبتي قصيرة للغاية وأن رأسي أضخم مما ينبغي، وأنه من الواجب أن أسير منتصب القامة عسى أن أطول خمسة سنتيمترات. وكانت اقتنت لي جهازاً قالت أنه سيقوي ظهري غير أني لم استخدمه. ولست بدينا إلى هذا الحد غير أن خدودي كبيرة بعض الشيء، كما أن لدى كرشا ضخم يجب أن أسيطر عليه. وتبدو هذه الكتل مقززة بعض الشيء ولا سبيل لإنقاصها مهما فعلت. وأحاول ألا أفرط في تناول الطعام بل وأحرص في بعض الأحيان على التقيؤ قدر الإمكان قبل الخروج من المنزل. ومع هذا تقول زوجتي إن جسدي غير متناسب فجسدي نحيف ورأسي ضخم.

إني في حاجة ماسة إلى عشيقة، ولا أدري حتى متى يمكنني البقاء مع ذات الفتاة؟ ولست مسئولا عن هذا الارتباك ألا يتحدثون طيلة

الوقت في التلفاز عن أن الحب مكون كيميائي يبطل مفعوله بعد مضى أربع سنوات على البقاء مع نفس الزوج. ولو صحت هذه المعلومات فهذا يعني أن مفعول هذه المادة قد بطل مفعوله منذ عامين ونصف. وأظن أن هذا هو سبب حالة القيء المستمر التي تسيطر علي.

أما زوجتي فتقول إني لن أجد عشيقة إذا بقيت على ذات الحال، وتتهمني زوجتي بأني شخص كسول للغاية وأني لا أهتم حتى بتنظيف مطفأة السجائر، وأن انشغالي بذاتي يفوق بكثير اهتمامي بأي شخص آخر. وتقول زوجتي " يجب أن أهتم عاطفيا بالآخرين وأني لست مؤهلا للحب، وأنك ترحب فقط بما يجيء لك غير أنك لست مؤهلا لأي شيء، وإذا وجدت عشيقة فإنها ستعرف على الأقل حقيقتك وستساعدني مع الطفلة وفي شؤون المنزل".

وتقول في أحيان أخرى إن لي قلبا يتسم بالنقاء وأني أفضل إنسان في العالم. ومع هذا سرعان ما تقول إني إنسان شرير من نسل أسرة لا تعرف معنى الحب، وأن أفضل شيء لي هو أن أبقى مخمورا. وتتذكر زوجتي الآن أنها كانت معجبة للغاية بي في البدء وأني كنت أتوجه أيام العطلة إلى السوق لشراء احتياجات المنزل وأني كنت أساعدها في الطهي غير أنها تتضاحك لأنها صدقت ذات مرة أني مختلف.

8- لست مؤهلا للحب

يقول أبي إنه لا توجد في قلبي أية مساحة للحب، وإني لست مؤهلا لحب أحد وتشاركه زوجتي الرأي بقولها إنها لم تلتق قط بشخص لا يبالي بأحد مثلي. وحقا لست مؤهلا لمشاهدة الآخرين، فأرى دوما أني مركز كل شيء وان الكون يتمركز حولي. وتقول إنها تكرهني وإني لا

أتصور كم تمقتني. وتتمنى أن يكتشف الأطباء أني مصاب بداء عضال كالسرطان حتى أموت سريعا. ولم تعد تستطيع مشاهدتي وترى دائما أني أعكر صفو حياتها، إنها تتمنى موتي. ولا يساورني الشك في أنها سرعان ما ستتزوج بعد موتي. إنها نسيت السعادة بسببي. لقد حطمتها وحولتها إلى عجوز وهي في العشرين من عمرها. وتتمنى أن يقع لي حادث سيارة يودي بحياتي. ولا تتمنى زوجتي أن أخرج معاقا من مثل هذا الحادث وإنما تتمنى أن أموت في الحال. ولن تهتم زوجتي كثيرا بأن يدوم احتضاري ليومين بل ستسعد إذا ما عانيت قبل موتي. وفي مثل هذه الحالة وعند توافد الزائرين لرؤيتي في المستشفى فإنها لن تتواني عن الإمساك بيدي بل ومن الوارد أن تذرف بعض الدمع غير أنها بلا شك وبعد انصرافهم ستبتسم وستعرب عن سعادتها، وستكون على دراية بأني أعرف أنها سعيدة لرؤيتي في مثل هذا الحال. وستتضاحك أمامي وستقول لي هامسةً " إني سعيدة لرؤيتك هكذا".

ولا زلت أذكر كم ذرفت من الدمع حينما ضاجعتها للمرة الأولى، ولا زلت اذكر أن ملآة السرير امتلأت بدم بكارتها. وجلست لحظتها على السرير وثنت ركبتيها ووضعت عليهما رأسها التي أخفتها بين ذراعيها. وكنت واثقا أنها ستبكي حتى الموت، وظننت ساعتها أن شيئا مروعا على وشك الحدوث غير أني لم أكن قادرا على فعل شيء البتة. واكتفيت بالجلوس أمامها عاجزا خائفا، وحدثتها همسا أني راغب في الزواج منها إذا كانت تقبلني زوجاً، وعليها ألا تبالي بأن سني لم يتعد التاسعة عشر عاما، وليس من الممكن أن يحول سني دون الزواج.

ولم يكن بمقدورها مغادرتي الآن، فكيف يمكنها أن تسير دون غشاء بكارة. إن هذا الأمر يعني أنهم سيقتلونها وسيقتلونني وأنه لن يتزوجها أحد. وإذا ما تزوجت شخصا آخر فإن هذا يعني أنها سترجع إلى منزلها

في ذات الليلة وأنها ستتعرض إلى ضرب مبرح، وأنها ستكون أشبه بسلعة فاسدة على الجميع التخلص منها. أما أنا فلن أتخلى عنها البتة ولن أدعها تعاني بسببي، وسأتحمل المسئولية.

وتقول زوجتي " كان هذا يوم أسود. . . لقد كنت ساذجة وملعونة. إن الظروف هى التي أجبرتني على البقاء معك. إنك أسوأ من الحيوانات. أتمنى الخلاص منك، فلا مبرر لحبك". وتعاود زوجتي سب والديها وأسرتها لأنها لا تستطيع التخلص مني بسهولة. وتقول دوما إنها لو كانت تملك القوة لكانت خنقتني وقتلتني أو كانت أمسكت برأسي وضربتها في الحائط حتى تتحطم، وإنني لا أتخيل كم تكرهني وإنها لم تعد تستطيع مشاهدتي. وتقول دائماً " أكرهك يا حيوان ".

وأفكر في بعض الأحيان في وضع كل ملابسي في السيارة وأن أصطحب معي كل الكتب التي قرأتها منذ وقت طويل والتي أحببتها والتي غابت عن ذهني بلا سبب، وأفكر في إصلاح مذياع السيارة وأرحل عن المكان ولبضعة أيام إلى إيلات التي لم أزرها قط، ولو كانت لدي الشجاعة لكنت اجتزت الحدود متوجها إلى سيناء. ولولا الطفلة لما كنت عدت البتة إلى زوجتي.

وحينما كبرت فهمت أنها خدعتني وأن غشاء البكارة ليس على هذا القدر من الأهمية لدى العرب كما أوضحوا لي. إنها خدعتني طيلة هذه السنوات، مستغلة حقيقة أني لست على دراية كافية بمثل هذه الأمور، فزرعت في نفسي وهم الشرف أو الموت. لقد عشت سنوات من الخوف، ومرت على ليال كاملة دون أن تغفل عيني فكنت واثقا من أنهم سيعثرون على، وستكون هذه النهاية. وحرصت طيلة الوقت خلال جلوسي في البيت على ألا أترك الباب مفتوحا أو شرفة المنزل دون أن

تغلق. وكنت أفعل هذا حتى أخبر أى أحد تسول له نفسه مهاجمتي قول " إني مستعد للزواج منها الآن".

ولن اخبر زوجتي قط " ليتك تموتين"، وإن كنت رأيتها ميتة عدة مرات. وأعرف أني لن استطيع تحمل الفقدان، وأعلم أني لن أحبها إلا بعد اختفائها، وعندئذ سيقتلني الحنين إليها، وسأتفهم كم أخطأت في حقها. وإذا تعرضت إلى أى سوء سأحمل نفسي كل المسئولية، وسيطاردني موتها في كل الأماكن، وسأشعر لحظتها أن كل ما تعرضت إليه كان بسبب أني تمنيت الشر لها، وأعتقد أن كل أمنياتي تتحقق دائما في نهاية الأمر.

وإذا ماتت لن أتوقف عن زيارة قبرها الذي لن أكتفي بزيارته في الأعياد مثلما يفعل أهل القرية. وسأزور قبرها في البداية مرة كل أسبوع على الأقل وسأبكي عليه وسأحدثها طالبا الصفح. وسأبكي بكل قلبي. وسأري نفسي جالسا في أيام المطر والعواصف لدى قبرها محتملا البرد والمطر وسأتدثر عند قبرها بمعطف اسود طويل. ولن أخشى الذهاب إلى قبرها في الليالي، وأظن أن ذقني ستكون طويلة مما سيضفي على مشهدا حزينا. وسأنوح لدى قبرها، وسيسمع الناس أنيني الذي سيهز كل بيت في الطيرة.

٩- الدرجة الدنيا

أعتقد أنني وصلت إلى أسفل الدرك. فلقد خالفت تقريباً جميع الأعراف والأخلاقيات التي تخطر ببالي. سوف أذهب الآن إلى البيت، لأنام. كان بودي أن أنام على صدى أنغام المذياع. ولكن ليس لدي مذياع. لقد تعطّل الجهاز منذ مدة طويلة، ومجرد التفكير بالتوجّه إلى

محل لإصلاحه وفي المال اللازم للإصلاح يشكل عبئاً علي. كان بودي الذهاب للنوم، دون أن تراودني الأفكار السيئة.

أحياناً يخيل لي أنني أعرف معنى الراحة النفسية. أستطيع أن أرسمها في ذهني. وأعرف إلى أين أطمح. كان بودي الاستلقاء على السرير مع كتاب. مجرد كتاب، ربما كتاب نكات أو نوادر جحا. كان بودي أن أقرأ بمتعة، وأن ترتسم البسمة على شفتاي. كان بودي أن يتهاوى الكتاب من بين يديّ رويداً رويداً، وأن يسقط على السرير دون أن أشعر. كان بودي أن أكون مغطىً جيداً، وأن تكون حرارة جسدي تماماً كما يجب. وأن لا يكون بارداً أو حاراً أكثر مما يجب. كان بودي النوم بالوضعية المنضبطة تماماً، وأن تكون الوسائد بالإرتفاع السليم، وأن لا تؤلمني رقبتي، وأن لا أضطر إلى التحرك. لا ضجيج يقرع في أذني، ورأسي لا يؤلمني. وأن أجد الراحة الحقيقية.

كان بودي أن تكون زوجتي معي هناك، وأن تشاركني النوم والسكينة. وأن تنساب أجسادنا. بحيث يكون بإمكانها أن تضع رأسها على صدري. دون أن تتلوى برقبتها، ودون أن يمسّ شعرها أعيني او يدخل فمي. وعندها سيكون بإمكاني أن أحضنها، وأن أضع يدي تحت رأسها، دون أن تؤلمني يدي أو تصاب بالخدر. كان بودي أن أضع رجلاً واحدة فوق وركيها دون أن أثقل عليها كثيراً. على العكس، فان رجلي ستكون مريحة لها، تمنحها شعوراً بالدفئ، وبالتكامل. سوف تكون وركيها النحيفة والنضرة مسنداً مريحاً لي. سوف تبتسم في وجهي، وتقول من اعماقها "أنا أحبك"، وتقبلني. سوف أشعر كيف تدخلني القبلة إلى حلم طفولي رائع. سوف أبتسم وأنا نائم، فيما سترد عليّ زوجتي بابتسامة وتغط بالسبات.

سوف تنام الصغيرة، وتعرف أن لديها والدان محبان، والدان يمكنها الاعتماد عليهم دائماً. سوف ترتسم على وجهها ابتسامة ملائكية وسوف يكون حفّاظها جافاً. سوف تتشوق للحديث، ليكون بوسعها أن تخبرنا كم نحن رائعون، وكم تحبنا. لن يكون لديها حساسية في الجلد، ولا التهاب بالاعين، ولن تبكي أبداً. لن تشعر بالملل أبداً. سيكون احساسها رائعاً، وتفرح بأنها إبنة الحياة. ستنام حتى الصباح، وتوقظنا في اللحظة المناسبة تماماً بضحكات صغيرة وبكلمتها الأولى. ربما "بابا". زوجتي ستمتدحني، ستحتضنني، وستقول إنها عرفت دائماً أن الصغيرة ستنطق أولاً اسمي، لأنني أعاملها بلطف شديد. وألفها بالمحبة.

سوف أتوقف عن الشرب. ربما كأساً من النبيذ مساء يوم السبت. سوف أشتري قنينة نبيذ معتق في حانوت للمشروبات، وليس في السوق. حانوت في حيٍّ محترم. حانوت، لا يرتاده العمال الرومانيون، حانوت لا يبيع "جولدستار". سيكون لدينا طقم كؤوس نبيذ أهدانا إياها والدا زوجتي. القنينة ستكون أكثر من اللازم لأثنين، لذلك سندعو زوجاً من الأصدقاء لمشاركتنا. سنأكل وجبة طيّبة المذاق، سوف نشبع دون أن تؤلمنا بطوننا. لن يشعر أي أحد بالحاجة لدخول الحمامات. سنأكل تماماً كما يجب ولن تبرز لنا كروش. النبيذ سيلاءم الطعام. وربما أيضاً كعكة خفيفة، تضيف إلى متعتنا. تذوب في الفم. لا تلتصق بالحلق وتهضم بسرعة، دون تأنيب ضمير.

لن أفكر بالنساء بعد اليوم، لن أنظر إلى مؤخرة فتاة. سوف أتعامل مع النساء باحترام وسوف أصغي لما يقلن دون أن تراودني أفكار خبيثة. سوف أتوقف عن ممارسة العادة السرية، ولن أبحث عن النهود والمضاجعات في التلفزيون. فإذا حدث ذلك خلال فيلم من النوعية الراقية، سوف أتعامل مع الأمر على أنه فن. ولن يغريني ذلك. يداي

ستبقى في مكانها. لأنني مرتاح مع زوجتي. وهي تعرف ماذا أحب. أنا أحبها، واشعر بالانجذاب فقط نحوها. إلى عنقها الطويلة، بوجهها الجميل وبقوامها المتكامل. سوف نفهم الواحد الآخر، ونهتم بمشاعر كل واحد منا، وسوف نصل إلى النشوة معاً، وسيكون لنا دائماً رغبة بمعاودة ممارسة الحب. سوف تكون ليال لن ننام فيها أبداً وسنمارس الحب حتى الصباح. هي لن تخجل، وأنا لن أخيب آمالها.

سوف أذهب إلى البيت الآن. سأسافر على مهل، بالغيار السليم. لن أثقل على المحرك. عليّ أن أكون هادئاً على أعلى قدر. أتمنى أن أحداً من الجيران لن يكون في طريقه إلى صلاة الفجر. أتمنى أن الوقت ما زال مبكراً، وأن العمال لا ينتظرون عند المفرق في مدخل البلد. سوف أركن رأسي. ولن أدخن سيجارة، لن أسمع الموسيقى. سوف أخلد إلى النوم الآن، وغداً سوف يكون يوماً أخراً. سوف أثبت ذلك للجميع.

غداً سوف أبدأ بالصلاة. لقد نسيت كيفية الوضوء قبل الصلاة، وماذا يجب أن أقول. إنني لا أتذكر الترتيب الصحيح، ولا اتذكر عدد الصلاوات. غداً سأشتري كتاب إرشاد مع الصور، كالذي كان لدي عندما كنت في المرحلة الابتدائية. من المؤكد أنني لم أكن لأصل إلى هذا الحال لو أنني واظبت على الصلاة. أنظروا إليّ، أنظروا إلى أي حال وصلت. أنا الذي كنت أعتبر مرة قصة نجاح باهرة. كيف تدهورت. عليّ أن أثبت لنفسي أنني انسان جيّد، وعندها سأعود إلى البيت، إلى الطيرة.

ليس لديّ أي فكرة ماذا سأفعل هناك. لن أستطيع أن أكون "ساقي" بالتأكيد، لأنهم لا يبيعون الخمور هناك أبداً. والدي يقول إنه عليّ أن أكون عامل إجتماعي، لأنه يوجد نقص في القرية. يمكنني أن أسافر كل صباح مع زوجتي إلى نفس مكان العمل، وأن أعود معها إلى البيت. ربما أكون مدرساً. فإذا بدأت بالصلاة غداً، لدي فرصة لأكون

مدرساً لموضوع الدين. ربما يقبلونني لجامعة "الشريعة" في الخليل. من السهل القبول، وهم بحاجة إلى الكثير من مدرسي الدين. سأكون مدرساً جيداً. فقد مررت بالكثير من التجارب في الحياة، وبإمكاني إعادة الطلاب إلى الدرب القويم. سوف أحافظ عليهم من السقوط مثلي، سوف أحذرهم سلفاً، ولكنني لن أكشف لهم إلى أي وضع وصلت. سوف يكون لي أسم يثير الإحترام. سوف يأتي الناس للتشاور معي في قضايا شرعية. وسيصغون إلى ما أقوله لهم، سوق يقدرونني، ويأخذوا بنصائحي. والدي سيكون فخوراً بي، وهو أيضاً سوف يبدأ بالصلاة. ربما نسافر للحج في مكة المكرمة سوية.

رويداً رويداً سوف أنخرط في السياسة المحلية، وعندما ينهي تلامذي المرحلة الثانوية سوف يحصلون على حق الاقتراع، وسوف يرشحوني ضمن قائمة إسلامية. وسوف يبذلوا قصارى جهدهم لأترأسها، وفي الانتخابات التي تليها سيتم انتخابي لرئاسة البلدية.

وسأحظى بتأييد الجميع، وسأكون أول عضو كنيست، وستحبني أجهزة الإعلام غير أنها لن تصدق أن عضو كنيست مسلم يتحدث على هذا النحو وليس بتطرف وإنما يتحدث برقة بل وبدون أية لكنة. وسأعبر عن نفسي جيدا وسأعبر عن موقف قطاع عريض من الجمهور كما سيرى اليهود أني إنسان مباشر. وسأرتب أموري جيدا مع الأحزاب اليمينية والحريدية، وسأكون رئيسا للوزراء، وستكون المرة الأولى التي يفوز فيها ممثل عن الحركة الإسلامية بمنصب رئيس الوزراء. وسأحقق السلام والحب للمنطقة، وسيزدهر الاقتصاد، ولن يخيم خطر الحرب في المنطقة، وسأحول الشرق الأوسط إلى قوة عظمى. وسأكون رئيس اتحاد دول آسيا وستسوق إسرائيل المقلوبة وزعتر في المراكز التجارية الفخمة

في نيويورك. ولن تصدق الفتاة التي تركتها عارية أنها ضاجعت أهم زعيم في العالم.

10- ليل عيد البوريم

أقول لشاديه التي تقف معي خلف البار وعند مشاهدتنا لشابين عربيين يرقصان في ساحة الرقص عشية عيد المساخر "يجب أن يمنع العرب من الرقص"، وتضاحكت وأبدت موافقتها قائلة " إن في بلدتها نجيدات يغتصبون مثل هؤلاء الأفراد، إنهم يفعلون بهم الفاحشة بعد الإمساك بهم". ويبدو هؤلاء شديدي القبح وخاصة ذاك الفتى القصير ذي الشارب الذي كان يحرك مؤخرته المكتظة بحركات مستديرة لا تثير ضحكي فحسب وإنما ضحك كل من يرقص بجواره وضحك كل البار وشادية. ولو كان لديه ذرة من الذكاء والفهم ما كان أقدم على الرقص. ولماذا يرقص مثله من العرب في محافل الرقص. إنهم لا يتنبهون لمدى اختلافهم وأن هذا الرقص لا يناسبهم، وألا يدركون مدى قبحهم خاصة ذلك القصير ذو الشارب الذي لا يتوقف عن تحريك مؤخرته. ولا يساوره أدنى شك في أنه نموذج للراقصين كما أنه على اقتناع كامل أن كل من ترقص بجواره لا تعدو عن كونها عاهرة. وكان هذا القزم القبيح كلما طلب البيرة كان يشير إلى احدى الفتيات بقوله " روسية أليس كذلك؟".

وقالت شادية " إن هذه الوردية هيورديتي الأخيرة، ولم أعد أحتمل مشاهدة هذا المكان، ولم أعد قادرة على مشاهدة المزيد من العرب. لقد دمروا المكان بعد أن جعلوا أفاضل الناس يفرون منه. إن من يأتون إلى هنا هم حثالة من يقيمون في القدس والذين يرون أنفسهم من الالهة. وأقسم بالله أنه قد خطر لي أن أدعو بعض الناس

من نجيدات ليدمروا المكان ومن فيه وخاصة هذا الشاب ذو الشارب". وتضاحكت وأخفت فمها بظهر يدها.

وكانت شادية أول فتاة عربية أعرفها وأجدها مهتمة بالمغني والممثل الأمريكي توم فايتس، وكانت قد جلست بجواري بالصدفة البحتة في إحدى محاضرات قسم الفلسفة منذ سبع سنوات. وحينما كنت أغير إحدى شرائط الموسيقى في مسجلي الصغير وجدتها تعرف هذا المغني. وغير هذا الأمر من رؤيتي لكل العرب، وتفهمت بفضلها أنه يوجد نوع آخر من العرب. ولم أعرف أحدا سواها من العرب يحب نوعية الموسيقى التي أحبها.

وكانت تسكن في المدينة القديمة بالقدس، وتعود إلى نجيدات في الأعياد فقط، وتقول إنه لا يحدثها أحد البتة في منزلها، وأنها تسافر إلى منزلها كل مرة حاملة في قلبها آمالاً واهية في جو أسري بديع غير أنها لا تعود محملة إلا بالإحباط. وكانت قد وضعت رواية وبعثت بها إلى عدة دور نشر مصرية غير أنها لم تتلق ردا منهم. وتعتقد أنهم لن يقبلوا ما تكتبه لأن كتابتها صعبة. ولم يحب نتاجها الأدبي سوى فردان توفي الأول منهم. والثاني هو الشاعر محمود درويش. وتقول إنها أرادت دائما أن تكتب عن طفولتها في نجيدات التي نشأت فيها غير أن المشكلة أن حديث الناس في نجيدات ينتهي دائما بعبارة الحمد لله. وتتضاحك شادية قائلة "كم مرة يمكنني أن أذكر عبارة الحمد لله في رواية واحدة ". "وحينما قضيت عاما كاملا في الكتابة توقفت كل طفولتي في أربعين صفحة فقط"

وستترك شادية العمل في البار، وربما ستسافر إلى نيوزيلاندا فيمكنها التعايش مع الأغنام، وفي المقابل فليست لديها أية فرصة هنا ولا يمكنها النجاح هنا. وقد عملت لفترة ما في الإدارة المالية لمتحف فنون مرموق

في رام الله غير أن العمل توقف بعد نشوب الحرب. ويزعجها العمل في البار وخاصة من قبل العرب الذين يتصورون أنهم أذكياء حينما يطالبونها بمساعدتهم في الوصول إلى ذروة النشوة الجنسية.

ولم تعد تحتمل نظرات الجميع إليها، هذه النظرات التي تشعرها أنها عاهرة. ومن هنا فحينما يتفوه أحد بأية كلمة فإنها سرعان ما تثير ضجة عارمة في المكان. إنها من نجيدات ولا تحتمل بالطبع أن تصل إلى قريتها شائعات لا أساس لها من الصحة عنها. كما أنه حينما يتفوه أحد بأية كلمة لها في المدينة القديمة فإنها تعود إليه وتذبحه بصراخها.

وتحمل شادية مطواة في جيبها، وكانت قد سرقتها حينما كانت في الصف الأول بالمدرسة، وتخفيها في احد جيوب بلوزتها. وتفتح السكين بضغطة على أحد أزرارها، وهي ليست مثل مطواتي التي توجد بها قصاصة أظافر، ومقبض صغير. وتضحك شادية حينما أحدثها عن مطواتي، وتقول إنه يمكنها أن تكتب عن هذا الموضوع قصة عن رجل اشكنازي مسكين دخل إلى عالم الجريمة. . وقد درس معها في ذات الفصل فتى عربي كان اسمه حسنى. وقد سرق حسني ذات مرة بنكا. ولم تصدق شادية هذا الخبر عند سماعها به خاصة أنه لم يكن حتى قادرا على سرقة ممحاة. وقد أطلق شخص يهودي النار عليه حينما خرج من البنك بالفلوس، ولم يلق أحد القبض عليه.

إن هذه الوردية هي ورديتها الأخيرة، ولا تستطيع أن تواصل العمل على هذا النحو، فهذه الليلة هي ليلة عيد المساخر وكل شيء يبدو شديد القبح، ولا يوجد في الحانة شخص واحد جميل. وحينما يدخل الزبائن الذين كانوا يرتادون دوما هذا المكان فإنهم سرعان ما يخرجون. واتفهمهم، ولم يكن من الممكن أن أدخل إلى مكان يرقص فيه أشخاص بكل هذا القبح. أما أنا وشاديه فلا نرقص مثلهم ولا نبدو

مثلهم، وكلانا أتى محمل بإحساس بأننا سنواجه وضعا غير مريح. وهـذه هى المرة الأولى التي أسير فيهـا مـع شـخص يحمـل في جيبـه شـيئا مـن الممكن أن يتحول إلى سكين.

وقالت شادية " يتعين على صاحب المكان أن يدفع قليلا مـن المـال لأحد الفتوات لطرد هؤلاء الهمج من هنا "، واكتفيت بالهمهمة، وقالـت شادية " لن أعود إلى هنا ثانية ولست معنية بأن أسدد ثمـن المشروبـات الكحولية. هل ستبقى هنا؟"

ونظرت إلى البار متأملا بقـع البـيرة والليمـون وقشر الـترمس الـذي يملأ الطفايات. ومن الواضح أننا لن ننظفها اليـوم. وكـان يجلـس أمـامي بالبار رجل يرتدي بدلة يبدو وأنه تجاوز الخمسين من عمـره. ويتحـدث في بعض الأحيان عن أنه محام وفي أحيان أخرى يذكر أنه درس الطب في فرانكفورت. وطلب كأسـا مـن النبيـذ الأبـيض، وحيـنما رفـع الكـأس إلى شفتيه الغليظتـين فقـد كشـف تجرعـه للكـأس عـن تجاعيـد عميقـة في وجهه بدت أشبه بالحفر العميقة التي تحـدث في الصحراء بعـد وقـوع الزلزال. ووضعه نظارته ليسجل رقم هاتفه لفتاة كانت تجلـس بجـواره. وكانت أجنبيـة تعمـل كمتطوعـة في إحـدى المـنظمات المدنيـة، وكانـت قصيرة وبدينة تبحث دائما طيلة الوقـت عـن الرجـال بغـض النظـر عـن هويتهم.

وليس من الممكن أن أبدو مثلهم غير أنه إذا تصرفت مثلما يتصرف العـرب الجالسـون أمـامي فـإني سـأواجه مشـكلة حقيقيـة، ولـيس مـن الممكن ان يحدث مثل هذا الأمر فالناس لا يخافوني ولا يشمئزون منـي. وربما يكونون على هـذا النحـو ولكـنهم ينجحـون في إخفـاء مشـاعرهم. ومن المؤكد أن فتيات كثيرات تصورن خطأ أني أرغب في الحديث الـيهن، وبالتأكيد فإني أثير اشمئزازهن مثل الآخرين، ولكني لا أصدق هذا الأمر.

وكلما تناقضت طرق حياتنا كنت أنجح أنا وشادية في الحفاظ على صداقتنا، وتحدثني دوماً عن إحساسها بالعزلة والأسى، ومع هذا ورغم كل آلامها فإنها تنجح في إضحاكي، وهي من القلائل الذين ينجحون في دفعي للانفجار في الضحك وليس مجرد الابتسام. ولفرط إحساسها بالوحدة اقتنت عصفورا وضعته في قفص في وسط البيت. وفي القفص عصاتان، وكان العصفور لا يكف عن التنقل بينهما طيلة اليوم. وكان هذا العصفور يواسي شادية بعض الشيء غير أنها كانت فكرت في إطلاق سراحه قبل أن يموت من فرط إحساسه بالأسى.

وحينما نشبت الحرب نجحت في الفرار من الحصار المفروض على رام الله ووصلت على القدس. وقد أخلت الشقة قبل مغادرتها وأعطت أثاثها للجيران، وأعطت أصدقاءها التلفاز والفيديو والمغسلة. وتردد أن كل ما لديها الآن يمكنها وضعه في حقيبتين، وترى أن ما فعلته هو الصواب حتى لا تجد صعوبة فيما بعد في الرحيل.

وستختفي بعد قليل عن المشهد، وإذا تركت العمل في الحانة فليست لدى فرصة لمشاهدتها عما قريب. وحينما تهرب فإنها تهرب لفترات طويلة وتعود دوماً لتتحدث عن أن الفترة التي اختفت فيها قضتها في إنتاج فيلم عن قبيلة نجيدات في الأردن أو عن كتابة سيناريو لفيلم نمساوي. ودائما ما تتعرض إلى الخداع فإما لا يدفعون لها المقابل المادي لما قامت به أو لا يبثون ما أعدته من أفلام. ودائما ما يحدث لها شيء ما يدفعها للهرب.

وأغبطها بالفعل، فهي لا تحمل معها سوى عصفورها وحقيبتين. إنها فتاة جميلة وكثيرا ما يأتي الزبائن إلى الحانة من لمشاهدة شعرها الأسود المجعد وملامحها الرقيقة. وكثيرا ما يجادلها العرب في السحاب وكثيرا ما تتخلى عن حقها في مقابل أن يغادروا المكان. وكانت هذه هي

ورديتها الأخيرة وكانت تشعر أنه لم يعد بمقدورها مشاهدتهم. ولم يتبـق في الحانة سوى محام أو طبيب يرتدي بذلة، وكان لا يكف عـن التحـرك ذات اليمين وذات اليسار، باحثا عن المال.

وأحسد شادية كما أنها تحسدني فلدى زوجة وطفلـة واعلـم أيـن بيتي الذي أعود إليه كل مساء ولست مثلها حيث إنـه يتعـين عليهـا أن تفتش في الأطلس بحثا عن بيت يأويها. حقا نحن فلاحـون سـذج لازلنـا نتمسك بالأرض، ولا يمكنها أن تكون مثلي.

الجزء الخامس
الطريق إلى الطيرة

1- عيد الميلاد

يعمل أبي موظفا في البلدية، ويقتصر عمله على إصدار بطاقات الهوية وجوازات السفر، وقسائم الزواج، وشهادات الميلاد والوفاة، ويقع مكتبه في قبو صغير في مبنى البلدية، وتوجد بمكتبه نافذة صغيرة، ودرفة شباك لا تغلق. يعمل أبي في هذه المهنة منذ أربعة عشر عاما، يقوم دائما خلالها بإصدار بطاقات الهوية لسكان الطيرة. وكان سكان الطيرة فيما مضى يتوجهون إلى مكاتب وزارة الداخلية في نتانيا لاستخراج أية شهادة أو جواز سفر غير أنهم أصبحوا يتوجهون إلى والدي في القرية.

يعمل والدي يوميا من الثامنة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر في هذا المكتب الذي يقال عن كل العاملين فيه أنهم مرتشون وأنهم يعملون فيه بسبب معرفتهم برئيس البلدية وأنهم يتلقون أجورهم في مقابل لا شيء. ويكره أبي هذه الوظيفة، ويؤكد دائما أنه لم يقبلها إلا تحت إلحاح جدتي وأمي، خاصة انهما كانتا تريدان أن يبقى في القرية وألا يبتعد عنهما. وقد ابتاع أبي كل شيء في مقابل الحصول على هذه الوظيفة التي حصل عليها بعد أن أيد أحد الخونة العرب الذين نافسوا على منصب رئيس البلدية، وأنه حصل في المقابل على فرصة العمل في الدولة. ويقول جميع من في القرية أن أبي من الخونة وأن هذا يفسر كيف حصل على هذه الوظيفة بعد أن سبق اعتقاله لأسباب أمنية.

ويضمر جميع من في الطيرة الكراهية لأبي، غير أن جدتي تقول إن هذه الكراهية نشأت نتيجة لغيرة الجميع منه، وليس لأبي أية أصدقاء سوى باسم الذي عمل معه في إحدى مصانع التعبئة. ولم يعد باسم الآن قادرا على النهوض من الفراش بعد أن أنهكه العمل، وكثيرا ما يدخل المستشفى لإجراء بعض العمليات، ويقوم أبي دائما بزيارته. ويأخذ أبي خلال زيارته لباسم لوحة للشطرنج ويلعب معه.

لا أذكر أن أبي كان له أية صداقات مع أحد من المفكرين فلم يكن له أى صديق من الأطباء أو المحامين والمهندسين والمدرسين. وكان يبدو لي في بعض الأحيان أنه يتوارى خجلا منهم، وأنه يشعر بالدونية من فرط جلوسه في هذا القبو.

كان أبي يغادر البيت بصعوبة بالغة متوجها إلى عمله، وحينما كان يرجع منه كان يسارع بالدخول إلى فراشه مستمعا إلى المذياع، وكان يغادر غرفته في بعض الأحيان إلى غرفة الصالون لمشاهدة التلفاز، وفي أحيان أخرى كان يكتفي بالجلوس على فراشه حتى صباح اليوم التالي.

ولم يكن لديه ما يفعله في مكتبه، فكانت تمضي أسابيع بأكملها دون أن يطلب أحد في الطيره منه التوسط لدى وزارة الداخلية. وفي بعض الأحيان ومن فرط السام كان يجدد لنا جميع الشهادات وجوازات السفر مدعيا أنها لم تعد سارية المفعول، وكان يردد أنه لا مبرر للتجول ببطاقات هوية قديمة في الوقت الذي يمكنه استخراج شهادات جديدة حاملة توقيع وزير الداخلية الجديد.

وكان أبي يجدد بطاقته أسبوعيا، وقد فكر في أن يغير اسمه، وراقت له هذه الفكرة، فحدث بياناته وجعلها مواطن إسرائيلي عربي متزوج وأب لأربعة، وجعل من تاريخ الميلاد عام 1947 دون ان يحدد اليوم أو الشهر حيث إن جدتي لم تكن تذكر تاريخ ميلاده. وتذكر أمي أنه حينما أتى اليهود فقد ذهبت لتسجله غير أنها لم تذكر اليوم ولم تذكر سوى أن هذه الفترة تشهد موسم جني الصبار. وتقول جدتي إنه لم يهتم أحد في هذه الفترة بالتاريخ إذ كان الجميع منشغلا بالحرب.

تغير الوضع كلية بعد وفاة عمتي كاملة التي كانت تقيم في مخيم نور شمس للاجئين في طولكرم، وكان أبي قد زارها في المستشفى في نابلس. وكان ابنها إبراهيم قد أطلق سراحه من السجن بعد دخول الفلسطينيين إلى الضفة، وقامت السلطة بتعيينه في وزارة الداخلية في طولكرم تكريما له لما قام به من اجل الدولة، وبالرغم من أن مرتبه كان أقل من مرتب أبي إلا انه كان يشعر بالزهو لعمله في وزارة الداخلية. وكان إبراهيم يسير مزهوا في المستشفى بمسدسه، وكان الأطباء ينظرون إليه بكل تقدير. ونظرا لمكانته الرفيعة فقد سمح الأطباء لعمتي بالجلوس في غرفة مستقلة في المستشفى بنابلس.

وأذكر أني نمت بجوارها كثيرا في طفولتي، وكانت تنير المنازل في المساء آنذاك أضواء المشاعل، وكانت كاملة تروي لي أن هذه المشاعل

خاصة بالجيش. وفي هذه الفترة عرفت أن ولدها إبراهيم من الأبطال غير أني لم أكن قد رأيته قط.

وبعد وفاة عمتي أخذ إبراهيم والدي في جولة بوزارة الداخلية الفلسطينية في طولكرم أطلعا خلالها على وثائق بالغة القدم يعود تاريخها إلى فترة الانتداب البريطاني، وفجأة ومن بين الركام الهائل للوثائق وجد أبي تاريخ ميلاده الدقيق وهو 14-5-1948. وفرح والدي للغاية لمعرفته بتاريخ ميلاده واحتفل مع كل العمات بل وأخرج باسم من فراشه لمشاركته الاحتفال.

وفيما بعد اكتشف والدي تواريخ ميلاد كل العمات وكل أقارب الأسرة الذين ولدوا قبل الحرب، وبدأ الجميع في الاحتفال بأعياد الميلاد، بل ووصلت الفرحة بعمتي فاتن إلى الدرجة التي أحضرت فيها فرقة موسيقية للاحتفال بعيد ميلادها وقالت إن هذا يعد تعويضا عن كل السنين التي لم تحتفل فيها بعيد ميلادها.

وانتشر الخبر في كل القرية، وبدأ الجميع يتحدث عن أن والدي ليس عميلا للإسرائيليين وإلا كيف يمكن للمرء أن يتخيل قبول الفلسطينيين بالسماح له بالإطلاع على الوثائق السرية، وقد كان رئيس الطيرة هو أول من طلب من والدي أن يكشف له عن تاريخ ميلاده. وقد احتفل رئيس البلدية بتاريخ ميلاده في ملعب كرة القدم في البلدية ووجه خلال كلمته الشكر لوالدي لمساعدته في الكشف عن تاريخ ميلاده.

ولم يتمكن والدي فيما بعد من أن ينعم بالهدوء، فكان يطرق على الباب دوما كل من يرغب في لقائه للحصول على بطاقة ميلاد، وكان الجميع يعلم أن ما يقوم به لا يمت بصلة لعمله في وزارة الداخلية الإسرائيلية، وكان الجميع يأتي محملا بالهدايا فكان البعض يأتي بالكباش

أو الساعات أو اللحم المفروم وأجولة من الأرز والسكر. وكان البعض يعرض على أبي تقديم مبالغ مالية غير أنه كان يرفض، وكان يصر على أنه لا يتلقى سوى المبالغ اللازمة لشراء الطوابع من طولكرم، وكان يقدم للجميع في المقابل إيصالا مختوما من قبل السلطة الفلسطينية. أما إبراهيم فلم تكن لديه أية مشكلة في استخراج الطوابع والإيصالات الرسمية من المطبعة التي كان يعمل بها في الماضي والتي كان يطبع فيها شعارات مقاومة السلطات. وكان أبي ينقل كل الأموال لإبراهيم، ولم يمس أي جزء من الأموال، وكان يردد دائما أن إبراهيم في حاجة إلى تشييد منزل والزواج من امرأة طيبة، وأنه مسكين بعد أن قضى عشرين عاما في السجون.

وانتقلت أخبار والدي من الطيرة إلى كل القرى المجاورة وفيما بعد إلى الجليل، فأخذ الجميع يتدفقون على منزلنا لزيارة والدي طالبين منه استخراج شهادات الميلاد. وأصبح والدي من الشخصيات ذائعة الصيت في القرية، ولم يتذمر قط مما يقوم به بل كان يبدي دائما سعادته بما يقوم به، وبلغت شهرته إلى الدرجة التي كان البعض يقسم فيها بأنه رأى في المنام والدي يتناول الغداء مع عرفات، بل وتحدث البعض عن أن عرفات هو الذي طلب من والدي تأييد رئيس البلدة المتعاون مع الإسرائيليين، وأن عمل والدي في وزارة الداخلية الإسرائيلية كان جزء من مناورة فلسطينية شديدة الذكاء. وبلغ حب البعض لوالدي إلى الدرجة التي تحدثت فيها بعض الإعلانات بالصحف الفلسطينية عن والدي البطل ابن الشهيد محرر الأراضي. أما أبي فلم يعلق البتة على أي شيء من هذه الأمور، فكان يتوجه في الصباح إلى وزارة الداخلية الإسرائيلية، وكان يتوجه بعد الظهيرة إلى طولكرم. أما المساء فكان يقضيه في تلبية دعوات من فازوا أخيرا بشهادة ميلاد.

2- زيـارة الـوالـديـن

قالـت زوجتـي " أتى والـداك"، قالتهـا وهـى تـوقظني مـن قيلولـة الظهيرة بيوم الجمعة، كنت قد نسيت أن أمي اتصلت بي هاتفيا لتخبرني أنها سـتأتي مـع والـدي لزيارتنـا خاصـة أنهـا تشـعر أنهـا لا بـد أن تـرى حفيدتها. وحيتنما أتت والدتي أمسـكت بحفيـدتها في الصـالون وأخـذت تصـدر مختلـف الأصـوات لمـداعبتها منتظـرة أى رد فعـل منهـا غـير أن الحفيدة أخذت توزع نظراتها بين أمي وسلسلة المفاتيح بيـد أبي، وأخـي الذي كان يصفر أمام وجههـا. وسرعـان مـا انتقلـت الحفيـدة مـن حالـة النظرات المتشككة إلى بكاء مستمر، فقالت أمـي إننـا مخطئـون لأننـا لا نزورهم وأن الطفلة لا تستطيع التمييز بين الجد والجدة.

حملـت زوجتـي الطفلـة عـلى كتفيهـا محاولـةً تهـدئتها اسـتعدادا للجولة القادمة مع الجـدة، وقالـت زوجتـي إن أمـي لا تـتفهم شيئا في التعامل مع الرضع وأنها لا تجعلهم يشعرون الـدفء بـل ورأت أن هـذا هو سبب اهتزاز شخصيتي.

كنت قد صافحت والداى بشـدة، وقبلنـا بعضـنا الـبعض غـير أني لا أحب تبادل القبلات مع أحد، هـذه القـبلات التـي تجعلنـي أحـس بـأني غريب ومصطنع خاصة حينما أقوم بهذا مع والـدي. وحيـنما أقبلـه فـلا أضع شفاهي على وجنتيه وأكتفي بتوجيه رأسي نحو شفتيه.

وبادرني أبي فور دخوله بالسؤال كيف تنام حتى الآن فأجبته ظللت أعمل في المساء فسألني ثانية في المطعـم؟ رغـم أنـه يعلـم أني أعمـل في احدي الحانات غير أن أبي يحرص دائما على تحسين صورة الأمور.

وبالرغم من أن زوجتي تحرص دائما على تنظيف المنزل خاصة قبل مجيء الضيوف إلا أنهـا لم تسـتطع بـالأمس فعـل شيء فكانـت تجلـس

بمفردها في المنزل مع الطفلة، ومع هذا فقد حاولت قدر الإمكان ترتيب غرفة الصالون. ولا تحتمل زوجتي عدم النظام أو القذارة ولكن الذنب ذنبي فأنا لا أساعدها البتة سواء في أعمال المنزل أو مع الطفلة. وتقول زوجتي دائما إني إنسان بدائي همجي، واتفق معها.

أخذ والداي في الاستفسار عن أحوالنا في العمل وعن الطفلة، وقالت والدتي إن الطفلة نحيفة بعض الشيء غير أن والدي رأى أنها سمينة للغاية. وأشعل والدي سيجارة، وأشعلت سيجارة أيضا، فقال والدي وبالرغم من أني أدخن منذ ثماني سنوات إنه لا يصدق أني بدأت في التدخين، وأخذ في الحديث عن مدى معاناته من التدخين وأنه يكره نفسه حقا لأنه لا يستطيع الإقلاع عنها، وواصل حديثه قائلاً:" يمكنك الإقلاع عنها فأنت تدخن ما يتراوح بين سيجارتين أو ثلاثة يومياً".

لا يقوم والداى بزيارتنا كثيرا، فلم يزورونا البتة قبل ولادة طفلتي الأولى، ومع هذا فلم تستغرق زيارتهم سوى ربع ساعة عادوا بعدها مسرعين إلى المنزل. وقبل أن يغادرون المنزل طلبت والدتي من والدي أن يمكثا قليلا حتى تنعم بالجلوس إلى الطفلة. وحينما طلبت منه ذات مرة البقاء لدينا لمدة ساعة وافق أبي غير أنه اشترط أن يصطحب معه صديقته فاطمة التي كان تعرف إليها خلال الفترة التي أقام فيها في القدس. وقد اتصل بها وهو في طريقه إلى القدس، ودعاها إلى منزلنا في بيت صفافا. ووافقت أمي على هذا الشرط غير أنها اشترطت أيضا أن يسمح لها بالبقاء لها كما تشاء مع الحفيدة.

تكره أمي فاطمة كراهية الموت، وتكره حتى ذكر اسمها، بل وسرعان ما تفقد أعصابها عند ذكر جدتي أو إحدى عماتي لاسمها، وتعلق على أى ذكر لها بأنها عاهرة. غير أني لا أعرف عن فاطمة سوى أنها

كانت تغازل والدي، وتقول جدتي إنها وجدت ذات مرة كومة من الخطابات التي أرسلتها فاطمة إلى والدي وأنها أحرقتها.

ورن الهاتف في المنزل، غير أني قبل أن ارفع سماعة الهاتف ذكر والدي " إنها بالتأكيد فاطمة ولتشرح لها طريقة الوصول". وكان صوت المتحدثة صوت امرأة عجوز، وقالت إن صوتي شبيه بصوت أبي، وقالت إنها لدى الكوافير، وتحدثت بلهجة أبناء الطبقة الوسطى التي تتسللها مفردات اجنبية. وتقطن فاطمة في منطقة رأس العامود غير أن محل الكوافير التي تذهب إليه يقع في شارع "هاأومين". ولم تهتم فاطمة كثيرا وصف الطريق إلى البيت واكتفت بالسؤال عن صاحب البيت إذ يوجد لدي محل الكوافير عامل من منطقة " بيت صفافا"، وهو يعلم كل الطرق.

أخذتني زوجتي جانبا، وقالت إنه لا يوجد أي شيء يمكننا تقديمه إلى الضيوف، وقالت إنه لا يمكنني الخروج إلى الشارع على هذا النحو خاصة أني لم أغسل وجهي أو أسناني وأن عيوني لازالت منتفخة من كثرة النوم. وقالت إنها ستذهب إلى محل البقالة مع أخي حتى يساعدها في حمل المشتريات، فضلا عن أن أخي شديد التعاون مع الجميع.

وطلبت زوجتي من أمي حمل الطفلة التي عاودها البكاء، وانهمكت أمي في تهدئة الطفلة والسير بها من غرفة الغسيل إلى الصالون غير ان كل جهودها ذهبت هباءً. وأشعل أبي سيجارة، فأشعلت سيجارة اخرى. وبالرغم من أني لا أدخن في وجود الطفلة إلا أني أحسست أن تدخين والدي لسيجارة لن يجعل سيجارتي تضر الطفلة، فضلا عن أنه كان يدخن أمامي وأمام أخوتي ولم يلحق أحدا منا أي أذى.

وذهبت لفتح الباب، فوجدت فاطمة مرتدية فستانا اسود طويل، ووجدتها طويلة بعض الشيء مثل أبي، وكانت تغطي كتفيها بغطاء أحمر، وكان شعرها مصبوغاً وتبدو متصابية. وحينما دخلت أحسست أنها جاوزت الخمسين من العمر. ولم أحاول التفكير فيما إذا كانت أكثر جمالا من أمي. وكانت تبدو مثل نساء المجتمع اللاتي يظهرن في قنوات التلفزيون الأردنية أو المصرية، فلم تكن تبدو عليها أية تجاعيد غير أنه من الممكن معرفة عمرها من خلال المناطق المحيطة بالفم والعينين. وكانت جفونها ثقيلة، وكانت تحركها ببطء كمن يجد صعوبة في رفعها.

وصافحتني بهدوء ورسمت على وجهها ابتسامة هادئة، وسألتني عما إذا كنت أعرفها وقالت إنها رأتني حينما كنت صغيرا غير أن أبي سارع قائلا إن من رأته كان أخي الأكبر. أما أمي فصافحت فاطمة ونظرت إليها متفحصة ملامحها التي كانت تبدو أكثر رشاقة منها. وصافحتها فاطمة بابتسامتها المعهودة، ووضعت يدها الأخرى على شعر الطفلة التي سرعان ما تزايد صراخها، فتساءلت فاطمة ماذا ألم بهذه الطفلة الجميلة.

أما أبي فاكتفى بالجلوس على اريكته مدخنا سيجارته، وقال لها إنك لم تتغيري البتة، فأجابته إن الشيب غزا كل رأسه وأنه أصبح سمينا للغاية للدرجة التي لم يكن فيها من الممكن أن تتعرف عليه لو كانت قابلته في الشارع.

وأصر أبي على أنه ليس سمينا، وتوجه إلى الحمام ليشاهد نفسه في المرآه وعاد ليؤكد أنه ليس سمينا ونقل نظره إلى أمي ليحصل على موافقتها.

في أثناء ذلك عادت زوجتي من الخارج وكان أخي يحمل معها اكياسا كثيرة، وبدت على ملامح زوجتي خيبة الأمل إذ كانت تريد أن

تكون على رأس مستقبلي فاطمة، فضلا عن أنها كانت تريد ألا تشعر فاطمة أنها اشترت زجاجة الكوكاكولا خصيصا لها. وقالت فاطمة " لماذا كل هذا العناء. لا أريد شيئا، ولا أشرب الكوكاكولا. وصافحت أخي قائلة أنه وسيم مثل أبي.

وأخرجت زوجتي الأكواب وصبت الكولا للضيوف ووضعت على المنضدة الموز وحبات الفستق. وقالت فاطمة إن بنتك جميلة مثلك، غير أن زوجتي أصرت على أن هذا الرأى غير صائب.

وامتلأت كل الأرائك بالكامل، وجلس أبي وفاطمة على مقعدين مستقلين، وجلست أنا وزوجتي على مقعدين آخرين. وظلت والدتي واقفة مع الطفلة، وخرجت قليلا من الغرفة لأحضر كرسي وجلست أمام والدي وفاطمة اللذان كانا يحاولان ألا ينظرا إلى بعضهما البعض. وسألتهما "كيف تعارفتما؟"

ونظر الجميع الى وكأنني سألت سؤالا لا يحق لأحد أن يسألأة، وفي أسرتنا نحن خبراء في إخفاء التفاصيل.

ورددت فاطمة السؤال على مسامع الجميع قائلة " متى تعارفنا؟ سأخبرك بهذا"، وتظاهر والدي بشفط بطنه والتشاغل بتسوية رابطة عنقه والاهتمام بها. وقالت فاطمة : " حينما كنت صغيرة عملت مدرسة في إحدى المدارس في حى الطور. وبعد انتهاء حرب 1967 اخذوا المدرسين لزيارة الجامعة العبرية التي تعرفت فيها إلى الوالد".

وواصلت حديثي متسائلا "وكيف تعرفتم؟"وبينما كنت أساءلها كانت أمي تقول إنها لن تصوت في الانتخابات القادمة في الوقت الذي كان يقول فيه أبي أنه اقتنع أنه من الواجب أن يشارك العرب في التصويت. وواصل أبي حديثه قائلا ليس لفاطمة حق التصويت، فهى

ليسـت مواطنـة، لـو كانـت مواطنـه مـا كانـت سـتذهب للتصـويت في الانتخابات.

وكانت فاطمة تعـيش مـع أسرتهـا التـي يعمـل جميـع أفرادهـا في مجال السياحة التي تدر عليهم مبالغ طائلة. وقد اشـترت أسرتهـا خـلال هذا الأسبوع منـزلا ضخما لأحـد أبنـاء الأخـوة. وتفضـل فاطمـة اقتنـاء ملابسها من أفخم المحلات في لندن. ولديها مـا يكفيهـا مـن المـال، فهـى تعمل معاونة لمـديرة إحـدى المـدارس في الطـور، وتـدر عليهـا الوظيفـة الكثير من المال. وليس لديها ما تفعله. إنهـا تعمـل منـذ اثنتـين وثلاثـين عاما أى أكثر من فترة عمل والدتي بسنتين.

وعاودت السؤال "كيف تعارفتم؟" محاولا استغلال الفرصة لمعرفـة أى شيء عن فاطمة وعن خطاباتها. فقال أبي " كنـت مـن أجمـل شـباب الجامعة "، فتغيرت ملامح أمي، وواصل حديثـه قـائلا إنـه وفاطمـة كانـا يرغبان في الزواج فقاطعته فاطمة قائلة إنه مـن حسـن الطـالع أن هـذا الأمر لم يحدث خاصة أنك أصبحت سمينا للغاية. وحاولت ان تتودد إلى باقي أفراد الأسرة فسألت أمي " كيف تسمحين له أن يصـبح عـلى هـذا النحو ؟". ولم يكن لدى أمي ما تقول غير أنها اكتفت بهز رأسها.

وقال أبي إنهما لم يتزوجا لأنه قضى بضعة سـنوات في المعتقـل وأنـه تحددت فيما بعد إقامته الجبرية لسنوات عدة لم يغادر خلالهـا القريـة. وقاطعت والدتي حديثه قائلة بصوت عال إنها لم تفرغ من الطهى بعـد، وأنها لا تريد الجلوس أكثر مما ينبغى مع الطفلة، وأنها تأسف لموافقتهـا على شرط أبي وترغب في العودة إلى المنزل فضلا عن أن الطفلـه يغالبهـا النعاس. وتفهم الجميع أنه قد حـان وقـت الرحيـل، فقالـت فاطمـة إن اليوم هو يوم الجمعة وأن المحـلات تغلـق فيـه في وقـت مبكـر وعليهـا التوجه لشراء بعض الهدايا لبنت أخيها التي يحل عيد ميلادها غدا.

ونامت الطفلة بالفعل، وذهبت لأدخن سيجارة حتى أنام بعدها بقليل لكى أتمكن من الذهاب إلى البار الذي أعمل فيه. سألت زوجتي عن قداحة السجائر غير أنها أجابت إني السبب في أننا ظهرنا على هذا النحو غير اللائق فقد ظهرنا وكأننا شديدي البخل، وواصلت حديثها قائلة إن البيت كان متسخا للغاية كما أنني لم أهتم حتى بغسل وجهي أو تغيير ملابس النوم. وصمتت برهة وقالت إن فاطمة تبدو جميلة الفعل وما حكاية علاقتها بأبيك فأجبتها متسائلا أين قداحة السجائر.

3- السعودية

لم يعد بي شيئا لم يتحطم، فتحطمت أحلامي في أن أكون أكاديميا عربيا، وتحطمت أحلامي في أن أعمل جامع قمامة حتى أتمكن من رمي القاذورات في كل أنحاء الدولة، ولم أنجح حتى في الانتهاء من تعليمي الجامعي، ومع هذا فالحقيقة هى أن الحرفة التي امتهنها ليست سيئة إلى هذا الحد، ولا أعاني منها. كنت أتمنى أشياء كثيرة كأن أعمل في غسل الصحون بالمطابخ أو أن أنجح في صلاتي بالمسجد، أو حتى أن أكون فقيرا راضياً. وليس سراً أني كنت أتمنى أن تملأ مياه الصرف الصحي كل أركان المطبخ، وأن يملأ البيت بصراخ الأطفال الحفاة وأن ترحل زوجتي.

وكان كل من بقريتي يعرف طريق التوبة والطريق إلى الله، ولم يخرج من هذا الاستثناء سوى أبي. أما جدتي فكانت تعلن في رمضان من كل عام عن غضبها من الكفار وكانت تلزم ابي بالصيام غير أنه كثيرا ما كان يحنث بوعده. وحينما كنا صغارا كانت جدتي تفتح علبه سجائره لمعرفة إذا ما كان دخن خلال النهار. وحينما كان لا يلتزم بالصيام كانت ترفض الجلوس معنا إلى مائدة الفطور. وكانت جدتي تحاول كل رمضان إقناعه بأهمية الصيام غير أنه كان يرفض الامتثال لما تقول، وتروي جدتي

إنه كان حريصاً في طفولته على الاغتسال والصلاة بل والذهاب إلى صلاة الجمعة. وترى جدتي أن والدتي هي السبب في كل ما اعترى سلوك والدي من تحولات فتري أن أمي لا تتفهم أن الحجاب سيجعلها أكثر جمالاً وفتنة.

وأصبحت خلال الآونة الأخيرة دائم التفكير في الله خاصة أن كل سكان القرية عرفوا طريق التوبة فضلا عن أن التوبة لدى المسلمين تختلف كثيرا عن طريق التوبة لدى اليهود، فمن الممكن وفقا للإسلام أن يتوب المرء وأن يواصل السكن في نفس الدار والا يبتعد عن الأسرة، بل ومن الجائز أن يقيم الإمام والداعر في نفس البيت، وأن التوبة لا تستغرق سوى الاغتسال والصلاة.

غير أنني نسيت كيفية الصلاة، رغم أني اعتدت في طفولتي التوجه إلى المسجد الذي كان الإمام يغدق فيه علينا بالحلوى. وتوقفت عن ارتياد المساجد بعد أن سرق مني حذائي بعد إحدى الصلوات، ولا زلت أذكر كيف وقفت أمام باب المسجد أبحث عن حذائي. وحينما تبين لي أني فقدته وقفت أبكي فحاول بعض المصلين إعطائي شبشبا بلاستيكيا غير أني رفضت استخدامه وعدت إلى البيت حافيا.

أما عادل فعرف التوبة، ولم يحدث هذا التحول إلا بعد أن عصفت "البريسترويكا" بكل شيء، فلم يعد يعتنق الفكر الشيوعي وعاد رويدا رويدا إلى الدين. وقد بقى في القدس بعد الانتهاء من دراسته التي تعرف خلالها على فتاة يهودية. ومع هذا فقد تركها بعد أن تولى جورباتشوف السلطة قائلاً إن اليهودي سيظل يهودياً وأنه لن يهتم بالدفاع عنها في حالة نشوب الحرب. وقرر في نهاية الأمر الزواج من فتاة مسيحية كان اسمها سوزي. ولم يقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن اقتنع كلية بأن من يهدى أحداً إلى الإسلام فإن مثواه الجنة. وكانت هذه

الفتاة شديدة الإخلاص للمسيحية فكانت لا تكف عن حمل الصليب أينما كانت في الجامعة، وقد اعترض والداها على فكرة زواجها من فلاح مسلم، ولم يتزوج عادل سوزي إلا بعد وفاة والدها.

وتتسم حياة عادل حاليا بالاستقرار فيعمل بالمحاماة كما أن له سيارة فارهة، وقد أنجب ثلاثة أبناء. وقد توافقت زوجتي مع زوجته وهكذا فقد حافظنا على صداقتنا، وقد توقف عن احتساء الخمر بل إنه ينتظم في صلواته. وحينما نلتقي يحدثني عن عظمة الإسلام وكيف أنه بمقدور الصلاة أن تساعد المرء على التغلب على كل الصعاب، ويدعو الله أن يزرع في قلبي الإيمان. وبالرغم من أنه يعرف أني احتسي الخمر ولا أصوم رمضان فإنه يدعوني مع زوجته لوجبة الإفطار في رمضان. وقد اعتنقت سوزي الإسلام وتقول إنها مقتنعة بالإسلام وبأن محمد آخر الأنبياء، وهكذا فإنها تؤدي الصلاة بانتظام وتصوم رمضان وتحتفل بالأعياد الإسلامية فقط، ولا تصدق أنها كانت مسيحية ذات يوم.

ويتحدث عادل منذ أن أعلن توبته بشكل مختلف بل ويبدو أكثر هدوء، ويعلق على كل ما يحدث بقوله الحمد لله، وأغبطه بالفعل. ويعلن تأييده للحركة الإسلامية وشعارها " الإسلام هو الحل". ويؤمن عادل بأن المهدي سيأتي في نهاية التاريخ كما يعد الإسلام، وأنه سيوحد المسلمين، وأن الإمبراطورية الإسلامية ستصبح أقوى إمبراطورية في العالم مثلما كان الحال عليه في عهد عمر بن الخطاب. ويقول عادل أنه كلما واصلت إسرائيل قتلها للفلسطينيين فإن مجيء المهدي يقترب وأنه كلما ازداد الوضع سوء فإن ساعة الخلاص تقترب.

ويقول عادل إن اليهود والأمريكيين يتفوقون تكنولوجيا غير أن الحرب الأخيرة الحاسمة ستدور بالحراب والأيدي كما جاء بالقرآن، ويردد عادل ما يقوله الشيخ في المسجد عن أن الله سيرسل على الكفار

موجة صقيع عارمة ستجمد طائراتهم وأسلحتهم. لهذا اشترى عادل لأطفاله سيوفا بلاستيكية حتى يتعلموا استخدامها، بل توقف عن اخذ أطفاله إلى الطبيب واقتناء الأدوية اللازمة لهم. ويعلل ما يفعله بأنه ستأتي فترة لن تتواجد فيها المضادات الحيوية، وأنه على الأطفال تعلم كيفية التغلب على الأمراض دون أدوية.

وحينما نشبت الحرب تحدث الشيخ الصوفي الذي يحضر عادل مجلسه إلى أتباعه بأنه التقى بالمهدي في المسجد الأقصى. ويرى عادل أن النهاية حلت بالفعل، ويقول "إن المهدي الآن في مكة وبالتأكيد سيحرر القدس وسيهزم اليهود والأمريكيين". وأخبرني عادل أنه عازم على السفر إلى مكه في انتظار المهدي وأنه يرغب في أن يكون واحدا من جنوده وأن يسير وراءه من مكه إلى المدينة، خاصة أنه جاء بالقرآن أن من يسير خلفه مأواه الجنة. وأخبرني عادل أنه على استعداد لأن يسدد لي ثمن السفر إلى مكة خاصة أنه لا يريد أن يذهب بمفرده وأن ينام في غرفة زوجية في مكة مع مسلم غريب من أفغانستان لا يفهم العربية. وقد سجل عادل اسمي في قائمة الحج.

ولكن كيف يمكنني الذهاب إلى مكان لا يبتاعون فيه البيرة، فلا وجود للبيرة في السعودية أو حتى السوداء منها بل إن النساء هناك يغطين أجسادهن من رأسهن حتى أخمص قدميها، ويرتدين ملابس سوداء، ويغطين أعينهن بقطعة بيضاء من القماش، ويعتقدن أنه حينما يتشددن على هذا النحو فإنهن يخففن من العقاب يوم القيامة. ولا يتوقف عادل عن الصلاة. وبعد أن أمضينا أربع وعشرين ساعة في الباص في الطريق إلى السعودية أسرع عادل في الهبوط منه قائلا إننا سنمكث أسبوعين فقط وعلينا أن نقضيهما في الصلاة قدر الإمكان. وتوجد زاوية هناك في المسجد النبوي يستغرق الوصول إليها ساعات

طوال من فرط الزحام حيث إن الصلاة هناك تساوي أجر مليـون صـلاة، وهذه هى الزاوية التي كان يجلس فيها النبـي محمـد ليصـلي ولقـراءة القرآن، ويقول كل من يصل إلى تلك الزاوية إنه يشعر أنه في أرفع مرتبة في الجنة.

وتنقسم الجنة كما أخبرني عادل إلى درجات وأن المرتبة الدنيا منهـا بالغة الرفعة، وأنها تمتلىء بالحدائق الخضراء التي تتدفق فيها أنهار مـن العسل والخمر، وأن النفس تتلقى فيها كل ما تشـتهيه، وأنـه كلـما فكـر المرء في ثمرة بعينها فسرعان ما تأتيـه في التـو. وفي الجنـة يجلـس الـبشر على العشب طيلة اليوم وكأنهم يجلسـون في متنـزه ضـخم، بـل وتأتيـك النساء في تو اللحظة التي تفكر فيهن غير انه ليس من الـوارد أن تكـون نساء الجنـة كنسـاء السـعودية، فنسـاء الجنـة أصـغر وأجمـل ويرتـدين الملابس البيضـاء. ولا وجـود في الجنـة للمنـازل أو للخيـام فـلا وجـود في الجنة للمواد الصناعية، ولا وجود فيها للسيارات أو الطائرات.

ويقول عادل إن هذه الفرصة هى الفرصة الأخيرة للتوبة، ومن هنـا فإنه دعاني لزيارة قبر النبي، وحينما رايته أخبرت عادل أنه لا يوجد شيء بداخله وأني لم أر به سـوى سـجادة خضراء مدونـة عليهـا بعـض الآيـات القرآنية، فبدأ عادل في البكاء والصراخ. وظل يومين على هذا الحال وقرر في النهاية أن يتركني وشأني خاصة بعد أن اقتنع إني ذاهـب إلى جهـنم لا محالة في هذا الأمر، وبدا يصلي بمفرده.

وتنقسم جهنم أيضا إلى عدة أجـزاء، ولا يمكـن للمـرء ان يتصـورها فكلما يموت المرء فغنه يبعـث مـن جديـد مليـون مـرة في اليـوم لتلقـي العذاب والمعاناة، وتحرقك نـار لا يمكـن تصـور قوتهـا بـل إنهـا تحرقـك وتذيبك أكثر من مرة ن ويوجد بجهـنم أنـاس ضـخام لا يبتسـمون قـط،

ويحرقون جلدك بمعادن شديدة الالتهاب، ومن يدخل جهنم لا يجد فرصة للفرار منها.

وفي يوم القيامة فإن الأرض ستنفجر، وسيغطي سحاب سميك كل مظاهر الحياة فيها، وسننتقل جميعا إلى مكان آخر، ويقف كل البشر هناك صفا واحدا على خيط رفيع للغاية، وسيقف في هذا الصف كل من عاش في أي وقت من الأوقات، وسيضم هذا الصف من عاشوا على القنص قبل بدء التاريخ وأطباء مستشفى هداسا، وسيبحث الملائكة أعمال كل واحد. وفي هذا اليوم فلا يعرف أحد الآخر فلا يعرف أحد والديه أو أصدقاءه، وينشغل كل واحد بحياته. وسيظهر أمام المرء كل ما فعله في حياته منذ ميلاده وحتى مماته. وسيحصي الملاك الذي يقف على الكتف اليمين للمرء أعماله الشريرة في حين أن الملاك الذي سيقف على الكتف الأيسر الأعمال الجيدة أو العكس.

وحاولت حقا أن أؤمن بالإله وأن أكون جزء من هذه الدائرة الضخمة من الأفراد الذين يرتدون ملابس بيضاء الذين يطوفون حول الحجر الأسود. وحاولت أن أكون جزء من هذا البحر البشري الهائل الذي يتحرك نحو المساجد، وتذكرت كيف كنت أصلي في صباى، وحاولت أن استعيد كل ما درسته عن الدين في المرحلة الابتدائية، وبدأت في البكاء. أما عادل فقد ظل يصلي بالمسجد، ولم أتوقف عن التفكير في زوجتي وطفلتي. وحينما كان يحل الليل كان يخف الزحام فكنت أضع القبعة على راسي وأتجول في الطرقات لشراء بعض الهدايا للعائلة، وكنت اصطدم في الشوارع بالأطفال الصغار الذين كانوا يقضون الليل في الطريق. وكان عادل قد استأجر لنا غرفة في إحدى الفنادق الفخمة في مكة والقريبة للغاية من الكعبة، فكنت أرى من نافذة الغرفة البشر وهم يتدافعون لتقبيل الحجر الأسود، هذا الحجر الذي

نجح عادل في الوصول إليه وتقبيله، وحدثني عادل قبل خلوده للنوم أن رائحته هي رائحة عطر الجنة.

ومضى الأسبوعان اللذان قضيناهما هناك، وكانت رحلة العودة في الحافلة بالغة المشقة، فكانت مكتظة بكل أنواع الهدايا التي اشتراها الحجاج من هناك لرخص أسعارها وجودتها. وقال مرشدنا الأردني الذي احتفظ بجوازات السفر الاسرائيلية والذي كان يحصينا عددا كل ليلة إنه يسمح لكل حاج بشراء بطانيتين فقط غير أن كثيرا من النسوة اشترين أضعاف هذا العدد. وكنت أنا وعادل من اصغر المسافرين في الحافلة ولهذا اضطررنا للوقوف كثيرا فيها ولم نتبادل الحديث معا. حاول عادل خلال الطريق أن يهبط من الحافلة في وسط الصحراء والهرب من المرشد الأردني والعودة إلى مكة فكان واثقا أن المهدي أتى إليها وكان يخشى من إضاعة الفرصة. وحينما وصلنا إلى الأردن قال إن المهدي في القدس غير أن الجنود الإسرائيليين الذين التقينا بهم على الحدود والذين حدثونا بأدب جم أكدوا لعادل أن المهدي لم يأت بعد.

4- ابن اخ فيطجنشطاين

راودت زوجتي بعض الآلام في عيد الاستقلال، فأخذتها إلى المستشفى التي شهدت في لحظة واحدة تحطم كل جهودي في التخفي. ولم تتحطم هذه الجهود إلا في اللحظة التي طلب فيها الجنود مني عند مدخل القرية التوقف جانبا بسيارتي. وفي تو اللحظة تساءلت أيعقل ان يعتقلونني بعد أن تمكنت من نطق الباء الثقيلة، وبعد أن نجحت في التحدث بالعبرية بدون أية لكنة. وتساءلت كيف يمكنهم اعتقالي بعد أن أطلت ذقني مثلهم وبعد أن أصبحت ارتدي نظارات شمس مثلهم. لقد أصبحت يهوديا للدرجة التي يظن فيها بعض العرب أني يهودي. ولا

أكف عن التحدث بالعبرية حتى مع عمال النظافة العرب. نعم إن زوجتي هي التي تبدو عربية بعض الشيء، وحينما أذهب معها إلى أى مركز تجاري فإني آمل أن يظن البعض أنها يهودية مغربية او عراقية، واني مجرد يهودي اشكنازي يحب النساء الشرقيات.

وقطع الجندي تفكيري وأمرني بإظهار بطاقات الهوية، فأخذت أحدثه عن أنه كانت لي صديقة يهودية وأني درست في مدارس يهودية وأن كل أصدقائي من اليهود، وأني أتحدث العبرية بطلاقة واعرف اختصاراتها ورموزها. ولكنه أمرني بالتوقف عن الحديث فأعطيته رخص السيارة ورخصة القيادة. ووقفت منزويا بجانب السيارات التي كانت تمر بجواري متأملا وجوه من يشفقون علي في مثل هذا الموقف، وقد أحسست لحظتها بمدى سذاجتي المفرطة مع هذه اللحية والنظارة. وأحسست بالحماقة لأني تصورت أني بذلت كل ما في وسعى حتى لا أبدو شخصا مريبا.

وأسرعت فيما بعد بالخروج من منطقة الحواجز، فأغلقت مذياع السيارة، وبدأت أوجه كل أنواع السباب للشرطة واليهود والدولة والطيرة وزوجتي. غير أني قررت أن أتمالك أعصابي أمامها، فهى مسكينة مثلي، ومن المؤكد أن ما حدث يؤلمها، فقررت أن التزم الهدؤ، فسألتها عن حالها وأجابت مهمهمة أنها بخير.

وفي غرفة الاستقبال بالمستشفى وجدت مجموعة من النساء العربيات اللائي كانت ملامحهن تعطين سنا أكبر من سنهن، وكن يغطين شعورهن بغطاء رأس، ويستخدمن شباشب بلاستيكية، ، ورأيتهن يسرن بخطى متثاقلة في ممرات المستشفى. وكان بعضهن يقضمن في جلوسهن أطراف غطاء الرأس. حقا إنهن بائسات لا يعرفن إلى أين

يمكنهن الذهاب. ولماذا يتعين عليهن أن يظهرن على هذا النحـو؟ ولمـاذا يخرجن من بيوتهن بهذه الطريقة؟

وآمل فقـط ألا يعتقـدوا أني مـثلهم، وآمـل ألا ينـادوا عـلى زوجتـي حينما يحل دورها في الكشف. وفي مثل هـذه المواقـف وحيـنما ينـادون على فإني لا أقوم في التـو وكـأن هـذا الاسـم لـيس اسـمي أو أن الأمـر لا يعدو عن كونه تشابها في الأسماء إلى الدرجة التي تجـاوزوا فيهـا حـدود الدين والقومية

أما زوجتي فلا تتفهم مثل هذه الأمور، ولا تنشـغل بهـا البتـة مـما يذهلني بل ويزعجني، فأراها لا تجد غضاضة في التحدث باللغة العربية في داخـل المصـعد أو في المراكـز التجاريـة حتـى حيـنما يقـوم الحـراس بتفتيش الـداخلين إليهـا، بـل وتتحـدث مـع الطفلـة باللغـة العربيـة في الأماكن العامة، ولا أتفهـم لمـاذا تصر عـلى الحـديث باللغـة العربيـة في الوقت الذي لا تفهم فيه الطفلة العربية أو العبرية.

وحينا دخلـت زوجتـي للكشـف جلسـت بعيـدا عـلى طـرف أحـد مقاعد الانتظار، وأمسكت بكتاب عبري احتفظ به لمثـل هـذه المواقـف، وسرعان ما أخذت أقلب صفحاته، وهو كتاب " ابن عم فيطجنشطاين"، وهو ليس مجرد كتاب، وكنت أحرص على أن أمسك الصـفحات الأخـيرة من الكتاب حتى لا يتصور طبيب عابر بممر المستشـفى اني بـدأت للتـو في قراءته. . وكنت أمسك بالكتاب ليس مـن أجـل إخفـاء هـويتي وإنمـا لتجنب نظرات الآخرين.

وكنت أتمنى في هذه اللحظات ألا ألتقي بشخص أكـون قـد زاملتـه في المدرسة خشية أن يأتي ليقبلني أمام الآخرين، ولهذا كنت أحرص على أن أطأطأ رأسي أمام أى أحد أكون قد صادفته من قبل، وأن أضـع قـدما على قدم، وأن أقلب صفحات الكتاب.

وفجأة توجهت إلى امرأة بدينة بعض الشيء تقف خلفها امرأتان، وكن جميعهن يظهرن بنفس الشكل فكلهن كن يلبس ملابس طويلة، وقالت " إن زوجتك في حالة ولادة الآن ". ولم أعرف لحظتها كيف يمكنني أن أختفي عن عيون الآخرين.

ولم أعرف ماذا أقول لهن، وفكرت في أن أحدثهن بالعبرية، وهذا ما أقوم به في بعض الأحيان حينما يحدثني أحد العرب بالعبرية، ولم أعرف كيف يمكنني التأكد من أن أنهم عرب؟ ولكن هذه المرة فمن المؤكد أن هؤلاء النسوة عربيات من أخمص أقدامهن حتى رؤوسهن، وفكرت في أن اصدر حركة بكتفي تنم عن أنه ليست لي دراية عما يقصدن بالضبط، فلم أكن أدري لماذا توجهن لي بالذات، ولم أعرف لماذا لم يلحظن أني أمسك كتاب عبري.

وتحدثت بصوت خفيض إليهن وهمست بالعربية أنه من الضروري أن يتوجهن إلى إحدى الممرضات، وفجأة تحدثت إحداهن بالعبرية قائلة " إن زوجتك في حالة ولادة ".

وأحسست لحظتها بأن وجهي يحترق، وحاولت أن أخفيه بالكتاب، وحدثت نفسي بأني لن أتردد في قتل زوجتي التي تتسبب في مواجهتي لمثل هذه المواقف. وأخبرت نفسي أني سأظهر لها مدى غضبي عند خروجها من المستشفي حتى لا تضعني ثانية في مثل هذه المواقف.

5- الطريق إلى الطيرة

يقع الطريق المؤدي إلى الطيرة بين صفين من أشجار الصنوبر الكثيفة المتماسكة التي تجاور بعضها البعض، غير أن هذه الأشجار اختفت فجأة، واختفت الحقول، وظهرت من خلفها صفوف متفرقة من

البيوت العقيمة المخيفة، ومجموعات متناثرة من المخابز والمطاعم ومحلات الخضروات ومحلات قطع الغيار والساعات، وبدا كل شيء رخيصا وفارغاً.

وكان اليهود يعبرون هذا الطريق حينما كانوا يتوجهون إلى "تسور يجآل" و" كوخاف يائير"، ولكنهم لم يعودوا يسيرون على هذا الطريق للشراء حيث إن الحرب أصبحت تلقي في نفوسهم الرعب أو تلقي في نفوسهم الرغبة في إنزال العقاب. ولم يعد يراهم أحد حتى في أيام السبت أي يوم العطلة، ولم يعد يرى أحد نساء اليهود اللاتي يرتدين البناطيل القصيرة أو بناتهم ذات البطون العارية وكان أصحاب المحال هم الذين يخرجون فقط في عطلات نهاية الأسبوع. وكان اليهود يحتلون القرية كل يوم سبت للدرجة التي كان يصعب معها التحرك، فكانت القرية تمتلأ عن آخرها بالصبية الذين كانوا يخرجون إلى الشوارع لرؤية اليهوديات، وكنت أقوم أيضا بهذه الأفعال. أما الآن فاختفي اليهود من المشهد كلية، ولم يعد أحد يسمع صراخهم أو يرى بطونهم المنتفخة، وسياراتهم الفارهة. والآن لم يعد بالطيرة أي زحام.

ولم يعد أحد بالطيرة في حاجة إليهم، فقد اغتنى أهل القرية، وسينجحون في تجاوز هذه الحرب دون أن يموتوا جوعاً، وأصبحوا يشيدون طابقا تلو الطابق، ويشترون سيارات فارهة ويشترون لأولادهم حواسب آلية، بل ويقوم بعضهم بإرسال أبنائهم إلى الأقسام التي يدرس بها اليهود، ووصل الثراء بالبعض إلى الدرجة التي قام فيها أحد سكان القرية ببناء حمام سباحة في البيت، وشراء سيارة فراري بسقف مفتوح لولده الصغير. وتحققت كل هذه المكاسب من مبيعات يوم السبت، فقد كان البعض يعمل ولم يعد يأتي للقرية من اليهود سوى مدمني المخدرات وتجار المخدرات لشراء ما يحتاجون.

ومع هذا لازالت الكتب الدراسية العبرية تتحدث عن وجود قرية صغيرة اسمها الطيرة، وتتضمن هذه الكتب سؤالاً عن عمل سكان القرية، ولازالت الإجابة الصحيحة بهذه الكتب هى أن السكان يعملون بالزراعة.

ولازال سكان الطيرة يتزوجون وينجبون، فأخي الكبير سام زوجته حامل، كما أن أخي الذي يصغرني بعامين سيتزوج في غضون عام، ويعمل حاليا على الانتهاء من عش الزوجية خاصة بعد أن اشترى السيراميك اللازم للحمام. و بنى الوالدان ثلاثة منازل لنا بالرغم من أننا أربعة، واكتفوا بالثلاثة لعلمهم بأن الرابع سيقيم في منزلهم، ومع هذا فإنهم يعلمون أن واحدا منا لن يرجع ويتخوفون الآن من أن أخي الأصغر الذي يصغرني بست سنوات قد يبقى في تل أبيب التي يدرس بها ويعمل بها كأخصائي مشرف على أصحاب الأمراض المزمنة بأحد المستشفيات. وقد انفصل عنا كليةً وأطال شعره وأصبح يضع حلقان في أذنيه ويرتدي بشكل مختلف ويسمع موسيقى أخرى. ونتحدث في بعض الأحيان بالهاتف، فتحدثنا في المرة الماضية عن ضرورة الالتقاء في الطيرة، وقال إنه سيأتي بالتأكيد لمشاهدة الطفلة الصغيرة غير أنه لم يأت، واكتفي بالاتصال هاتفيا وطلب منا أن نضع سماعة الهاتف على أذنيها حتى تتعرف على صوته.

وعلاقتي بأخي الصغير طيبة غير أنه يراودني في بعض الأحيان إحساس بأنه يكرهني بسبب بعض المشاحنات التي كانت بيننا في مرحلة الصبا، وحينما يلح على هذا الإحساس أسارع بالاتصال به، وأطلب منه الصفح مستفسرا منه عما إذا كان يكرهني غير أنه يقول دائما أنه يحبني أكثر من أي شيء آخر بالعالم.

أكبره بست سنوات غير أنه إذا سبقني في العودة إلى القرية فسيكون البيت الذي بناه والداى من نصيبه، وسأقيم في منزل الوالدين القديم الذي لا يناسبني. وبالإضافة إلى البيت الذي سيورثه الوالدان فإنهما سيورثان قطعة أرض كبيرة. ويقول أبي دائما " لا أخشى سوى أن يحدث نزاع بينكم". ويشعر بهذا الخوف لأن الجميع يتقاتل هناك منذ خمسين عاما على الأرض فالأخوان وأبناء العمومة يقاتلون بعضهم بعضا على الأرض، هذا القتال الذي أسفر عن سقوط القتلى، واستمرار الثأر. أما أغنياء القرية الآن فنجحوا في الاستيلاء على أمتار قليلة من الأرض في سوق السبت. ولهذا أصبح الجميع مسلحا، وقد اشترى والدي بندقية صيد بألف شيقل لأغراض الدفاع عن الأرض.

تردد أمي دائما عليكم بالسيطرة على أيوب الصغير ابن الجيران، واذكر دائما أن أيوب هذا كان ولدا خجولا في طفولته غير أن أمي تؤكد أنه أصبح من تجار السلاح وأن قوات الشرطة هاجمت القرية خلال الأسبوع الماضي وأغلقت الطرق واقتحمت المنزل مفتشةً كل جزء فيه. وكان والداي على دراية بأن أيوب يتاجر في السلاح غير أنهم تصوروا أنه يعمل مع الدولة وبالتالي لن يعتقلوه. وتقول أمي " إنه كان يمتلك مدفع رشاش من طراز عوز الإسرائيلي ". وقد عثرت قوات الشرطة لديه على خمسين مسدسا، وأن هذه القوات فتشت كل ركن من أركان المنزل، ودخلت أرضنا مع الكلاب وأجهزة الكشف عن المعادن غير أنهم لم يعثروا على شيء البتة. وتقول أمي أن الجنود اعتلوا أسطح المنازل بل ودخلوا المنزل الذي شيده أبي لي، وأنهت حديثها متسائلة " متى ستعود؟ ".

6- نلسون مانديلا

توجد في منزل والدي أرائك ضخمة وردية اللون في الصالون، وكثيرا ما أتمدد على إحداها مشعلا سيجارة من علبة سجائر والدي التي يتركها على الطاولة. جلست أحاول أن أنفث الدخان في كل الاتجاهات، وجلست أتأمل بيتنا فوجدته قميئا تبرز سلوك الكهرباء على جدرانه، وتوجد به جرس لم يرن قط، وبجواره ساعة حائط بلاستيكية مذهبة. وبجوار الساعة معلق رأس جدي من البلاستيك أيضا. . وكانت توجد ذات حين سيوف صغيرة غير أنها تحطمت مع مضى الوقت، وتوجد أمامي على الحائط ثلاثة رفوف خشبية بنية اللون مكتوب عليها الله بحروف سوداء. وتوجد على الحائط من جهة اليسار صورة للفنان إسماعيل شموط ومكتوب عليها عودة، وبجوارها صورة أم مع طفل رضيع ترفرف فوقهما سرب من الغراب الأسود.

وكانت أمي قد طرزت قماشا من الصوف القبيح في الصالون، وكانت تبدو عليه فتاتان يابانيتان يرتدين الزي الياباني التقليدي، يجلسن على شاطئ بحيرة زرقاء يسبح بها الإوز. وكانت أمي قد أعدت هذه اللوحة حينما كانت تدرس في كلية المعلمين في حيفا، وتقول دائما إنها كانت أول امرأة تخرج من القرية للدراسة، ولهذا فهى من أكبر معلمات القرية الآن.

حينما درست بالجامعة دعوت صديقي يوسي لتناول وجبة الغداء لدى والداى، وكان يوسي هو أول صديق يهودي تعرفت إليه بعد أن أنهيت الدراسة في المدرسة الداخلية. ويمثل يوسي بداية مرحلة جديدة في حياتي، فأثبت لي أنه لا يتعين على ان أعيش بقية حياتي مع العرب. وبعد أن انتهينا من تناول الغداء ضحك عند رؤية مغسلة الملابس بالصالون غير أنه ابتسم عند رؤية كرة قدم بداخل إحدى العلب

الزجاجية. وبعد أن تعرفنا على بعضنا البعض ذكر لي صراحة أنه لا يستطيع أن ينطق كلمة عربي لأنها تبدو له أنها احدي ألفاظ السباب، وفيما بعد أصبحنا أصدقاء.

واستراح أبي على أحدى الأرائك، وكان يمسك بيده سيجارة، في حين كان يضع إصبعه في أنفه. وكانت أمي تقف في المطبخ. ودخل أخي الأكبر وزوجته وجلسا على مقعدين متجاورين. وكانت زوجته حاملا في شهرها الخامس، ولم يكونوا يعرفون بعد إذا ما كانت ستنجب ولدا أم بنتا. وكان أخي الأصغر يتحدث مع خطيبته بتليفونه المحمول.

حينما بث التلفاز نشرة الأخبار نهض أبي من جلسته وأخرج أصبعه من أنفه، وأطفأ السيجارة وأشعل أخرى، وقامت أمي بوضع الطبق المليء بحبات التوت على المنضدة، وجلست على السجادة بجوار قدمي أبي، فلم يكن هناك مكان على الأرائك بعد أن شغلها أبي. وحينما نشاهد التلفاز يعلق والدي على الأحداث بصوت عال والويل لنا إن لم نفهم ما يقول، وتقول أمي كلما شاهدت التلفاز الويل، وفي أحيان أخرى تكتفي بقول إنهم مجرمون. أما أبي فيقول:" لم يعد هناك رجالا في الخليل ولو كانوا رجالا لكانوا طردوا المستوطنين. وحتى لو قتلوا مائة ألف فإنهم سيطردون، وهل يعقل أن يزرع خمسة مجانين الخوف في مدينة بأكملها. إنهم حثالة".

حينما حل الاحتفال بيوم الأرض توجهت زوجتي ووالداها إلى قريتهم في ميسكة الواقعة بجوار " سديه فاربورج"، واستأجروا باصا وسافروا معا. ويقومون دائما بهذه المهمة عند الاحتفال بيوم الأرض وبيوم الاستقلال. في هذا اليوم من كل عام يرتدي الرجال والنساء والأطفال أجمل الملابس ويأخذون معهم ما يحتاجونه من طعام وشراب ويسافرون إلى القرية. ولازالت هناك بقايا مدرسة وبقايا مسجد.

وتبحث النساء في حقول القرى عن الزعتر في حين أن الرجال يجلسون في الأماكن المهدمة من المسجد ويلعبون النرد. ويجلس الشباب في أروقة المدرسة المتهدمة لتدخين السجائر.

يقول أبي إنه لا يتفهم البتة لماذا يسافر هؤلاء إلى هناك، ولو كانوا يعشقون القرية إلى هذا الحد فلماذا فروا منها، وأن هؤلاء الجبناء هم الذين تسببوا في كل هذه المشكلات، وأنه من الأفضل الموت على الأرض عن التنازل عنها، ولماذا باعوا أراضيهم هناك؟ ويردد دائما إن من يبيعون أراضيهم المصادرة إلى اليهود يقومون بتصفية الأراضي وإنهم ليسوا من الرجال في شيء.

وفي المساء انضم إلى زوجتي وطفلتها في بيت والديها بعد عودتهم من "ميسكه"، وحينما توجهت إلى المنزل صادفت أخي الأكبر الذي أعطاني مفاتيح سيارته. وأحب حقا السفر بسيارته خاصة أن مذياعها يعمل. وبالرغم من أن الطريق إلى "ميسكه" قصير إلا أنها فرصة نادرة للاستماع إلى الموسيقى في الطيرة. ومع هذا كنت آمل أن يكون مذياعه موجها لموجات إذاعة الجيش الإسرائيلي خاصة أني لا أجيد ضبط موجة المذياع. وفتحت المذياع للاستماع إلى ما يبثه. إن أخي لا يحسن الحفاظ على سيارته، فهو لا يعرف أصول القيادة. وكثيرا ما تشاجرت معه عند جلوسي إلى جواره وهو يقود السيارة.

وبث المذياع أغنية " أبو الخليل "، ولم أصدق أنه لازال من الممكن الاستماع إلى هذه الأغنية القديمة التي كنا نستمع إليها في سيارة والدي حينما كنا نتوجه لجمع الزعتر من الجبال. وعرفت ذات مرة كلمات الأغنية واكتشفت أني لازلت أتذكرها على نحو لا باس به، فأخذت أرددت كلماتها وكأنني لم أتوقف قط عن سماع كلمات " يا عمنا يا بو الخليل افتح لنا بوابات يافا ليدخل رجالنا ". وسمعت فيما بعد في نفس

المذياع أغنية أحببتها تتحدث عن التخلص من العار واسترداد الكرامة بالحجارة والدم، وعن الأطفال الذين لا يخافون. وأضحك الآن عن نوعية الشريط ونوعية الموسيقى.

خفضت صوت الشريط الموسيقى، وسرت في الطرقات المؤدية إلى الطيرة، وبالرغم من أن الوقت كان متأخرا إلا أن الطرقات كانت مزدحمة بالبشر سواء الذين يستقلون سياراتهم أو الذين يسيرون منهم. وتساءلت أين يذهب هؤلاء الرجال في حين أن الاحتفالات بيوم الأرض ستبدأ في المساء الذي سيشهد إضرابا عاما. غير أن المحلات كانت مفتوحة قبيل الظهيرة. ولا غرابة في هذا حيث إنه ليس من الممكن أن يتخلى التجار عن مكاسبهم في مقابل شيء البتة. علاوة على هذا فإن مثل هذه الإضرابات تثير مخاوف اليهود الذين يمرون بالطيرة في طريقهم إلى منطقة " تسور ناثان " و " كوخاف يائير".

توجد على الحائط في الغرفة القديمة لزوجتي صورة قديمة لنلسون مانديلا تحيطها القضبان، وتوجد بجوار صورته صورة للمطرقة والمنجل وصورة للعلم الأحمر. وكانت توجد بجوار هذه الصورة صور لعارضات أزياء وملكات جمال ومغنيين مصريين مثل إيهاب توفيق وعمرو دياب، وصور لنساء يرتدين ملابس البحر وفساتين يعود تاريخها إلى فترة الثمانينيات. أما أحدث صورة في غرفة زوجتي وأخواتها الخمس فكانت للفنان براندون من بيفرلي هيلز. وكانت قد علقت هذه الصورة حينما كانت في المرحلة الثانوية. والآن فكل أخواتها متزوجات، ولهذا فقد أصبحنا نقضي الليل في هذه الغرفة في عطلات نهاية الأسبوع عند زيارتنا للطيرة.

وقد وضعت حماتي سريرين متجاورين في إحدى زوايا الغرفة تحت صورة الفنانين الاسرائيليين عوفره حازيه وتامي بن عامي. مع

انقضاء عامين على زواجنا لازلنا نجد ذات الفراش الذي توجد عليه وسادات ثقيلة كالحجر وغطاء من الصوف يلزم أي أحد بأن ينام بملابسه عليه. والجو في الطيرة شديد السخونة، فكان السكان ينامون في الماضي على أسقف المنازل في الصيف غير أنهم يخافون الآن فلم يعد للأمن وجود به فالقرية أصبحت مليئة باللصوص والمجرمين. وتزايدت خطورة الوضع الآن بعد أن جلبوا إليها من يتعاونون مع الإسرائيليين وبنادقهم.

تثير غرفة زوجتي القديمة دائما الحنين في نفسي فأجد نفسي منجذبا إليها وكأني عرفتها للتو، ولا أستطيع أن أقاوم إغراءها حينما ترتدي إحدى عباءات أمها القديمة التي خفت لونها. وأمارس الحب معها دائما في غرفتها ونقضي طيلة الليل متعانقين. وفي غرفتها يفيض قلبي حبا لها، فأراها فيها جميلة دوما. وتروق لزوجتي مغازلتي لها وتقول إن هذه اللحظات في الطيرة هى من أجمل اللحظات.

وسيقوم والداها بإدخال بعض التعديلات على المنزل، وسيهدون في إطارها هذه الغرفة. وكانت حالة البيت بالغة البؤس، فبكيت زوجتي حينما أتيت معه والدي لطلب يدها في هذا المنزل، فشعرت بالخجل لمعرفتنا بطبيعة المكان الذي تسكن فيه. وكانت تأمل عند مجيئنا ألا يضطر أحدنا لدخول دورة المياه التي كانت في حالة يرثى لها. كان والدها قد علق فوق باب دورة المياه عشرة مسامير من الصلب ليعلق عليها المناشف وكتب فوق المسامير أسماء أبناء الأسرة. ولم تكن هذه المناشف مثل تلك التي نشتريها وإنما كانت من الليف. ويدرس أخوها منذ بضعة سنوات الاقتصاد في إحدى الكليات، ومن المحتمل أن يحصل على درجة الليسانس في العام القادم. ويقطن أخوها في حجرة أسفل البيت، هذه الحجرة التي كانوا يخزنون فيها الزيت والزيتون كما كان

يوجد بها فرن. وحينما كبر الولد وضعوا في الغرفة سريرا لينام عليه، وغطى الولد الحوائط بالكثير من الصور ولافتات نادي بوعيل تل أبيب لكرة القدم ومايكل جاكسون وفيروز ولينين وصور أخرى ليوم الأرض كان من بينها صورة لرجل عجوز يجلس تحت شجرة زيتون يحتضن حفيدا أشقر يغطي رأسه بالكوفية وكتب على الصورة " هنا باقون".

أما الآن فيصلحون الطابق العلوي وسيسترد الوالدان المخزن وتقول حماتي" آن الأوان ليكون لولدنا الحبيب بيت ويمكنه أن يتزوج فيه وأن ينجب أطفالاً".

7- أخي الصغير

ربط أخي الصغير مصيره بعالم آخر، فابتعد عن القرية مثلي، ولكنه لم يذب في اليهود، فليس له أصدقاء سواء في القرية أو في تل أبيب. وما يميز أخي أنه قليل الكلام، فيقضي أياما كاملة دون أن ينبس ببنت شفة. وكان مدرسوه في القرية يتصورون في البدء أنه لا يفهم الدروس إذ إنه لم يشارك البتة بالنقاش، كما أنه لم يرفع يده في الصف ليجاوب على أي سؤال. وفي بعض الأحيان وبعد يوم الآباء كان أبي يوبخه " هل أنت أنثى، ولماذا كل هذا الخجل؟". وكان أخي ينصت إليه دون أن يجيبه. مع هذا كانت درجاته في الاختبارات مميزة للغاية، ولهذا توقف الوالد عن توبيخه.

لا يحب أخي الصغير البشر وخاصة الأجانب منهم، فحينما يطرق أحد الباب يسرع إلى حجرته حتى لو كان بمفرده في البيت. وإذا ما عاد من المدرسه وتبين له أنه يوجد ضيوف في البيت فإنه يقف بالخارج

حتـى يتأكـد أن الضـيوف غـادروا المنـزل. وحتـى لا يلتقـي بأحـد فإنـه مستعد للوقوف في البرد والمطر ساعات طوال.

لا يجيـب أخـي الصـغير عـلى الهـاتف البتـة، وقـد أصـيب والـداي باليأس منه وتوقفا عن لفت انتباهه. وحينما يرن الهـاتف فإنـه يفـر إلى حجرته ويغلق الباب عـلى نفسـه مكتفيـا بالاسـتماع إلى الموسـيقى غـير اليهودية وغير العربية.

ويتصور والداى لسبب ما أن أخي الصـغير يحبنـي ويتصـوران أننـا غرباء بعض الشيء، ولهذا يطلبان مني عنـد عـودتي للمنـزل أن أتحـدث اليه وأطمئن على أحواله الدراسية في الجامعة وأن أعرف إذا ما كـان لـه أصدقاء وإذا ما كانت أموره المالية على ما يرام. وحينما يستفسرون منـه عن أى شيء فإنه يكتفي طوال الوقت بالهمهمة ويصـعب معرفـة فـيما يفكر.

وأخي الصغير رسام يرسم لوحات للطبيعـة الصـامتة، ومـع هـذا لا يهتم بإظهار لوحاته لأحـد. وعنـد العـودة إلى المنـزل ألقـى النظـر عـلى دفاتره متـأملا لوحاتـه الصـامتة. وكـان قـد أراد دراسـة الفنـون غـير أن والداى قالا إن دراستها غير مجدية، فالإنسـان في حاجـة إلى وظيفـة وأن الفنون مجرد هواية لا يمكن التعيش منهـا. ولم يجـادلهم أخـي، وحيـنما فحـص والـداى درجاتـه قـررا أن الفندقـة هـى أفضـل تخصـص يناسـبه وأرسلوه للدراسة.

منذ ذلك الحين فإنه لا يعود إلى البيـت فـيقضي النهـار في الدراسـة والمساء في العمل. وفي عيد الأضحى الماضي أخذ اجازة من العمل وتوجه إلى القرية ليشاهد طفلتي التي ولدت منذ تسعة شهور لم يرهـا خلالهـا قط. وحينما شاهدها ابتسم لها وحاول أن يرفعها لكنـه لم يعـرف كيـف يقومون بهذا مع الأطفال، فحاول أن يداعبها لكنه تخلي عما كان يعتـزم

القيام به، فلم يرد أن يداعبها أمام الجميع إذ أحس أن هذا الأمر لا يناسبه. وأخذها إلى حجرته ولا يعرف أحد ماذا فعل هناك معها غير أنه من المؤكد أنه وضع على أذنيها سماعات الموسيقى، وأعادها بعد برهة مبتسماً.

وكنت أنا وأخي الصغير نحب لعب كرة القدم في طفولتنا، وتسببت ذات مرة في كسر سنته الأمامية. وتوقف منذ ذلك الحين عن مغادرة البيت فلم يرد أن يلحظ أحد أن سنته مكسورة، وتوقف أيضا عن الذهاب للمدرسة وأخبر والديه أنه لا يرغب في استكمال دراسته، ولم يرغب حتى في أن يتوجه إلى طبيب الأسنان. وقضى حوالي عاما كاملا في المنزل لم يغادره البتة. وبسبب سنته المكسورة توقف عن الحديث حتى لا يفتح فمه.

وابتعد عن الجميع وعن كل ما يفعلوه فلم يعد يرتاد صالونات الحلاقة ولم يحلق شعره حوالي عشر سنوات حتى أصبح شعره منسدلا على ظهره. ويعتني للغاية بشعره، ويربطه بقطعة من المطاط. وأصاب هذا السلوك والديه بالانكسار، وتوقفا عن إقناعه بضرورة تمشيط شعره. ، وكنت الوحيد الذي أقول له إن شعره يبدو جميلا. وكان يروق له مداعبة شعره والوقوف أمام المرآة متأملا جسده المليء بالعضلات، وكان كثيرا ما يرفع قميصه محاولا أن يغطي كل جسده بشعره. ومع هذا فإن سنته مكسورة. ولهذا فقد توقف عن الضحك، وحتى إن ابتسم فإنه يرسم مجرد ابتسامة على وجهه. واذكر أنني حينما اشتريت له اسطوانة مدمجة عليها بعض القطع الموسيقية فقد اكتفى بأن رسم على وجهه ابتسامة بسيطة حتى لا أرى سنته.

ويتعين على أخي أن يعود الآن إلى عمله، وأن يغادر المنزل قبل مجيء الضيوف وقبل أن يجيء أحد لزيارتنا في العيد. وحينما دخلت

إليه مع الطفلة وجدته يجهز حقيبته. ولاحظت عند حديثي معه أن سنته المكسورة اعتلاها اللون الأصفر، ولا أدري لماذا كنت أتصور أنها لم تعد مكسورة وأنه قد يكون توجه لطبيب أسنان لإصلاحها غير أنه لم يزر طبيب الأسنان البتة. ويحاول خلال حديثه معي وضع يده أمام فمه أو على أنفه لإخفاء سنته المكسورة.

وسألته "كيف حالك" فأجاب "على ما يرام"، فعاودت سؤاله عن دراسته وعمله فأجاب "أن كل شيء على ما يرام ". وحينما سألته عما إذا كان لا يزال يرسم أجابني مهمهما " أرسم في العمل".

ويعمل أخي في إحدى الأقسام الداخلية في إحدى مستشفيات بتاح تيكفاه. ويقول أخي دوما إنه يحب عمله كثيرا، وأن هذا العمل هو الذي يساعده على تدبير أمور حياته ودراسته. لم يعد أخي يخجل من أن تبدو سنته المكسورة أمامي خاصة أنه يعلم أني لا أهتم كثيرا بالنظر إليها وأني اهتم فقط بالإنصات إليه.

يقضي أخي الليل في المستشفى جالسا على أريكة كبيرة للغاية مثل الأغنياء، ويستمع خلال جلوسه إلى الموسيقى ويرسم بعض اللوحات. وتوجد أمام الأريكة التي يجلس عليها أخي ثلاثة أسرة في آخر غرفة بقسم الأمراض الباطنية. ووظيفته هي الجلوس أمامهم في انتظار موتهم. ومرضاه لا يتحدثون ولا يتحركون، وحياتهم معلقة كلية بأجهزة التنفس الصناعي. ولا يدل على الحياة في الحجرة سوى حركة صدورهم التي تعلو وتنخفض. ويموت هؤلاء المرضى بعد مضي يوم أو يومين من دخولهم لحجرة أخي غير أن أحدهم وافته المنية بعد مضي شهرين على دخوله للمستشفى.

يصور لي أخي بشكل دقيق اللحظات التي تسبق الوفاة. وحينما يتوفى أحد فإنه يستدعي أحد الأطباء. وبعد أن يوقع الطبيب على إقرار

بالوفاة يقوم بفصله عن الأجهزة، ويضع ورقة عليها اسمه على صدره وأخرى على رأسه. ولا يقوم أخي بأكثر من هذا. وفي بعض الأحيان تتوجه الممرضات إلى غرفهن للنوم ويطلبن منه ألا يوقظهن في حالة وفاة أي مريض. وعندئذ فإنه يجلس أمام المتوفى حتى الصباح. وفي كل وردية يموت أحد المرضي، غير أن أحدى الليالي شهدت وفاة ثلاثة مرضى مما أصابه بالإحباط حيث إن الوردية انتهت مبكرا، ولم يدر ماذا عليه أن يفعل.

يقضي أخي الليل في رسم المتوفين بعد أن يبادر بفصل الأجهزة عنهم وتسجيل عددهم قبل أن يخبر الطبيب والممرضات. ويرقد أمامه المرضى الطاعنون في السن الذين يعانون من أمراض الضغط، ويقول أخي إن الغرفة تفوح منها رائحة العفن غير أنه اعتاد عليها. ويقول إنه من الأفضل ألا يغسلونهم البتة حيث إن الممرضين يستخدمون أرجلهم عند قلب المرضى أثناء غسلهم. ولا يتحدث أخي البتة مع الممرضين من العرب ولا يلقي عليهم حتى السلام.

ويمسك أخي الآن بملف امرأة توفيت بالأمس غير أنه لم يسمح لي بمطالعته، ويقول إن اللوحة التي رسمها لها هي أكثر لوحة يحبها واسماها المرأة الثرية لأن كل أسنانها كانت مزروعة.

8- مصر

أضحت الحرب شيئا عاديا، فأحاول أن أتغلب على الأرق بالتفكير في الألعاب الحربية فأرى نفسي فيها قائدا لسرية بأكملها تنجح في الإيقاع بالأعداء في الفخ وآمرهم بعدم التحرك من مواقعهم. وحينما أستيقظ في الصباح أدرك أني خسرت ثانيةً الحرب بعد أن أردوني قتيلا أنا

وكل أفراد سريتي. وترافقني الحرب أينا كنت ولا تتركني حتى في منامي. واستيقظ في بعض الأحيان في منتصف الليل مذعورا لأفتش عمن أطلق على النار في غرفة النوم ومن أطلق النار على الطفلة. وحينما يرن الهاتف أقضي بضعة دقائق لأستوعب أن هذا الصوت صادر عن الهاتف وليس عن قصف العدو.

وتطوف بي أفكار مختلفة، فأفكر في بعض الأحيان في أن أعتنق اليهودية، وأفكر في أحيان أخرى في أن أفجر نفسي في أولئك الجنود الواقفين عند معابر" تسوميت" و"رعناناه". . وأسافر إلى الطيرة بحثا عن التوبة وعن أشخاص مثلي ممن يحملون بطاقة الهوية الزرقاء وعساهم أن يكونوا اتخذوا قرارا مثلي، وعسى أن أجد بصيصا من الأمل.

فبدأت أستجيب لدعوات حفلات الزفاف التي تأتيني من أقارب الأسرة لحضور حفلات الزفاف، وللعقائق أو لتأدية واجب العزاء. يتعين على أن أعود. وتقول أمي إنه من الوارد أن يأتوا ذات يوم لشحننا جميعا، فمن الوارد أن يأخذوا كل سكان " بيت صفافا" إلى الأردن، وكل سكان الطيرة إلى لبنان. وتقول أمي علينا أن نتجمع على شاحنة واحدة.

تقول أمي إن الشيء الأسوأ هو أن يأخذونا جميعا إلى مصر، وتردد هذه الجملة بعد أن عادت من هناك منذ أسبوع. وكانت الرحلة التي قامت بها إلى مصر مع والدي أصابتها بقدر كبير من الإحباط وخاصة أبي الذي فقد بعد زيارته إيمانه بالعالم العربي، فيقول إن أزمة الفقر تضرب كل من هناك، وأنه ليس بوسعهم التفكر في الصهيونية أو العروبة أو الحرب. ويدرك أبي الآن أن ناصر مات حقا، وأنه لن يقوم ناصر جديد.

تحدثني أمي همساً أن الجنود أوقفوا والدي على الحدود لمدة ساعتين، وتقص امى هذا الحديث همسا إذ إنها لا ترغب في أن يسمع

والدي حديثها هذا، وتقص أمي أن الجنود أظهروا اسمه على الحاسب الآلي ونادوه بشكل مثير للاشمئزاز، وأنها أحست لحظتها بقشعريرة مدمرة في جسدها، وأنها تمالكت كل قواها في ذات اللحظة حتى لا تتحول المياه التي تجمعت بعينيها إلى دمعة تسقط على خدها. وقد أمره الجنود على نحو فظ بالجلوس جانبا ومنعوه من الكلام، وتقول أمي أن أبي لم يتألم مما حدث غير أن نظرات الشفقة التي ارتسمت في عيون البعض هى التي كادت تظفر بالدمع من عينيه. ولم يتفهم أحد أنه أجل وأسمى من كل المتسكعين حوله، وأنه أكثر حكمة وعزة من كل العالم.

فقد أبي منذ سفره إلى مصر الرغبة في الحرب، ومع هذا لم تفارقه الرغبة في متابعة أخبار العالم. ولكنه توقف عن التفكير في الأجوبة والحلول، والتحليل، كما انه لم يعد معنيا بالتفكير في الثورة والمساواة والأراضي والدولة الحرة. لقد هزم أبي. ويقول أبي الآن إنه يتعين على الفلسطينيين الخضوع أيضا وأنه لو كان زعيما للفلسطينيين لكان قد اصدر أوامره بهدم المسجد الأقصى بالديناميت، وبإزالة كل ذكر للإسلام والعروبة من على الأراضي الفلسطينية. ويقول أبي إن مثل هذا الحل هو أفضل انتقام على حالة الصمت العربي والإسلامي إزاء المعاناة الفلسطينية. وأنه لو كان السعوديون والإيرانيون والسوريون والمصريون والدول العربية كافة معنيين بالأقصى ومحمد كما يدعون فليأتوا للدفاع عنه.

يقول أبي بعد أن استبد به اليأس والانكسار أن أفضل حل لأبناء عمومتنا برام الله ونابلس وباقة الحطب أن يحصلوا على بطاقة هوية زرقاء، وأن يتحولوا إلى مواطنين من الدرجة السابعة في الدولة الصهيونية، وأن هذا الحل أفضل من أن يكونوا مواطنين من الدرجة

الأولى في أية دولة عربية، وأنه يفضل أن يصبحوا عبيدا للعدو عن أن يكونوا عبيدا لأى زعيم عربي

****

أنجبت نادية زوجة أخي سام أول ولد في الأسرة، ولم يرغب أبي في أن يتسمى الولد باسمه خاصة أنه لم يكن يشبهه كثيرا فضلا عن أنه رأى أن اسمه قد يكون نذير شؤم عليه. أما أخي فكان يفكر في أحد الأسماء التي قد تكون ذات مغزى، ففكر في أن يسميه بيسان، أو عز الدين نسبة إلى عز الدين القسام، وفكر في جيفارا ونيلسون مانديلا وكاسترو وناصر وصبرا، بل فكروا في أن يسمونه وطن مثلما فكر أبي في أن يسميني بهذا الاسم. وفكروا في أن يسمونه أرض أو أيار نسبة إلى شهر مايو الذي ولد فيه أخي سام.

وبعد أن احتار بهم الأمر قرروا أن يأخذوا باسم داني، هذا الاسم الذي اقترحه أخي محمود الذي قال إن مثل هذا الاسم سيحمي الولد من المشكلات التي قد تواجهه فيما بعد، وأنه إذا كانوا سيضحكون على هذا الاسم في المدرسة بالطيرة إلا أنه سيكون اسما مناسبا له في الجامعة وسوق العمل وفي الباصات وبالتأكيد فإن هذا الاسم هو الاسم المفضل في تل أبيب.

في ذلك الحين كانت جدتي تجد صعوبة بالغة في مشاهدة أو سماع ما يحدث حولها ومع ذلك كانت تصر على النهوض مبكرا لصلاة الفجر التي كانت تؤديها وهى جالسه، وكنت دائما أرقبها عند قيامها في الوقت الذي كانت زوجتي وطفلتها تغطان في نوم عميق. ورأيتها ذات صباح تزحف على الأرض متوجهة صوب دورة المياه التي تقيأت فيها. وعندئذ نهضت مسرعا إليها، فوجدتها مستلقاة على الأرض تحاول الوصول إلى المرحاض، وتتقيأ على ملابسها، فسألتها " ماذا حدث لك " غير أنها

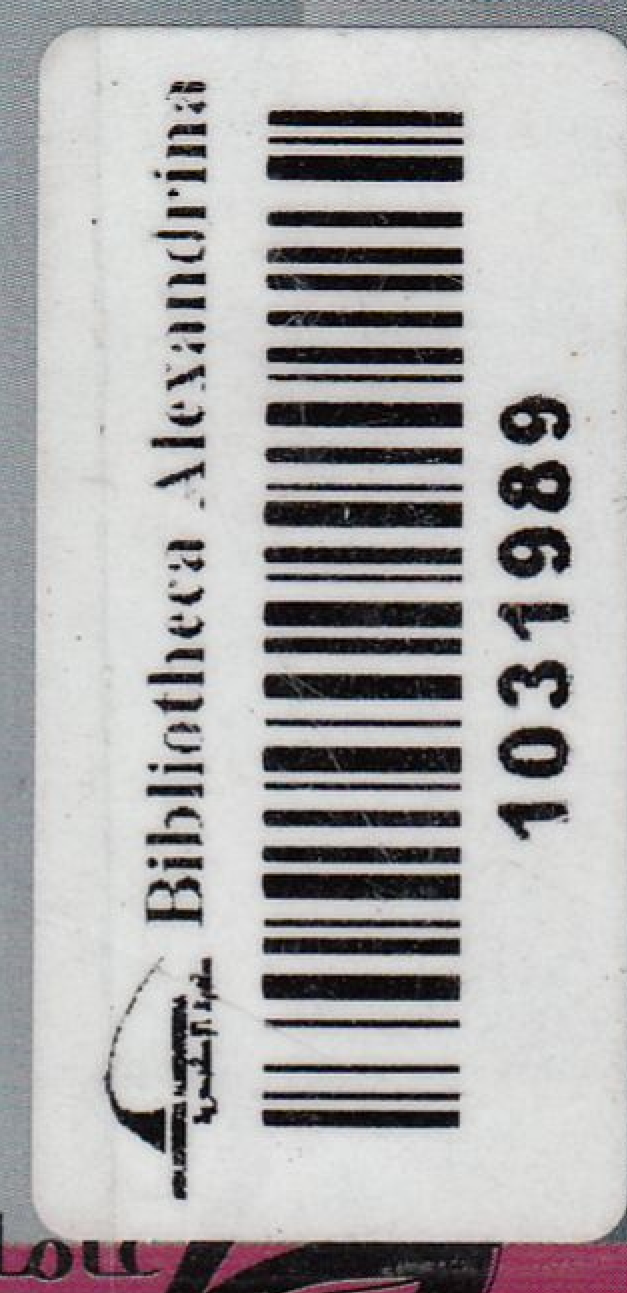
تحدثت همسا كعادتها " عد للنوم يا حبيبي إن هذا هو حالي منذ فترة طويلة".

وركعت إلى الأرض وحضنتها وقبلت رأسها محاولا التوقف عن البكاء، فأخفت عينيها بطرحتها البيضاء وقالت إنها لا تخشى الموت، ولكنها منهكة وأنها لا ترغب في أن تسبب مزيدا من الإزعاج لوالداى، وواصلت حديثها قائلة إنها ظنت ذات حين أنها ستدفن في أرضها، وبادرتني بالسؤال " أتذكر أين مفتاح الدولاب؟ " فبكينا معاً

عرب راقصون

(رواية فلسطينية مترجمة عن العبرية !)

أصدر الأديب سيد قشوع عدة أعمال أدبية باللغة العبرية، وتعد رواية عرب راقصون هى روايته الأولى. وتتكون رواية " عرب راقصون" للأديب سيد قشوع التي حرصنا على نقلها إلى اللغة العربية من خمسة فصول رئيسة تنتظم في كل منها عدة قصص قصيرة يقدم الراوي من خلالها سيرة ذاتية لعائلة فلسطينية تقيم في داخل إسرائيل، فيتحدث الراوي في الفصلين الأولين عن طفولته في الطيرة وأفراد عائلته، ويلقي في هذين الفصلين الضوء على دور والده في مقاومة سلطات الاحتلال، وتجربته في المعتقلات الإسرائيلية. ويتحدث الراوي أيضاً عن نجاح بطل مجموعته القصصية في أحد الاختبارات التي أجرتها وزارة التعليم الإسرائيلية مما أهله للالتحاق بإحدى المدارس الداخلية في إسرائيل. ويتناول الراوي في الفصلين الثالث والرابع من المجموعة تجربة بطل مجموعته في المدرسة الداخلية الإسرائيلية التي التحق بها.



اليوبيل الفضى للمحروسة
1986 - 2011
فى خدمة ثقافة الحرية

